

اخرجه

الدكتور زكي محمد حسن والملازم الاول عبد الرحمن زكي

واشترك في الكتابة فيه

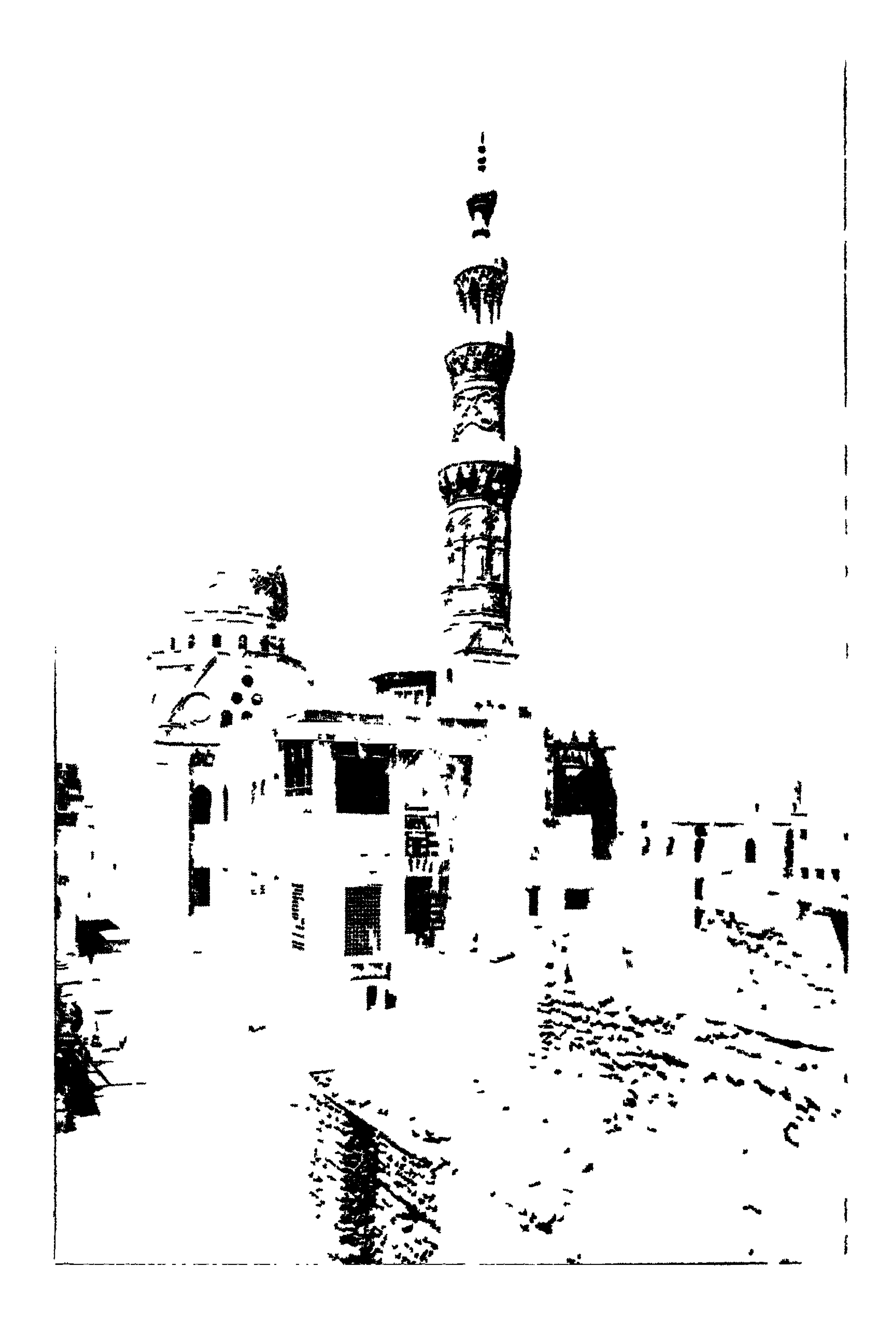
الاستاذ جاستون فييت
مدير دار الآثار العربية

الاستاذ محمود احمد
مدير ادارة الآثار العربية

والاستاذان يونس مهران واسماعيل أبو العينين
من خريجي معهد الآثار الاسلامية

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٣٧



المقدمة

بقلم الدكتور زكي محمد حسن
امين دار الآثار العربية

كانت احدى المدينتين اللتين وزعتهما ادارة المقتطف على مشتركيه في العام الماضي كتاباً عن مصر الفرعونية . ورأى الاستاذ فؤاد صرّوف ان يكون هذا العام دور مصر الاسلامية ، لأن من حق العرب علينا — واليهم ندين بجل ثقافتنا الحالية — أن نشيد بذكر ما كانت عليه مصر بعد ان فتحوها وطبعوها بطابع اسلامي لا يزال باقياً حتى الآن ، ولأننا مقبلون على الاحتفال بمضي الف عام على تأسيس القاهرة ، فطبيعي أن نمهد لهذا العيد بمؤلفات نذكر فيها عظمة المدنية الاسلامية في وادي النيل ، ونلم بطرف من الاحداث التي توالت على مدينة المعز ، وقد كانت منذ انشائها من المراكز الرئيسية الخطيرة الشأن للتطوُّر السياسي والثقافي والديني في الاسلام

لهذا طلب الاستاذ فؤاد صرُّوف الى صديقي عبد الرحمن زكي والي ان ننهض بعبء كتاب صغير عن مصر الاسلامية ، فلبينا النداء عن طيبة خاطر . ولكننا آثرنا أن نضع الحق في نصابه ، وألاّ يكون كتابنا عن مصر الاسلامية ، لاننا لا نستطيع أن نفي هذا الموضوع حقهُ في فترة قصيرة من الزمن . ومن ثم فقد رأينا أن نستعين ببعض الاساتذة والزملاء في كتابة بضع مقالات في شؤون مصرية إسلاميه . وقد كانت ثمرة جهودنا هذا الكتاب الذي يسرنا أن نقدمهُ اليوم للقراء ، شاكرين للمقتطف نبيل فكرته في اختيار الموضوع ، وحسن ثقته بنا ، ومعتذرين في الوقت نفسه عما في الكتاب من نقص وتقصير وحسب القارىء الكريم أن يعرف أننا لا نرى في كتابنا إلاّ سلسلة من الأحاديث التي يحلو لنا تكرارها والاصغاء فيها

وقد تفضل الاستاذ جاستون فييت مدير دار الآثار العربية فسمح لنا بأن نضمن كتابنا مقالاً لهُ عن المواصلات بمصر في العصور الوسطى ، ونقله الى العربية حضرة الزميل محمد وهبي افندي من خريجي معهد الآثار الاسلامية وقد قام بهذه المهمة على خير وجه ، بالرغم من صعوبة المقال وكثرة المصطلحات فيه

وكذلك لبى نداءنا الاستاذ محمود أحمد مدير إدارة الآثار العربية ، وكتب لنا مقالاً نفيساً

عن العمارة الاسلامية في مصر وتفضل فأسهب فيه - كما يرى القارىء - حتى اضطررنا الى حذف مقالنا عن الفنون الفرعية الاسلامية ، مكتفين بشرح بعض بدائع الفن الاسلامي شرحاً موجزاً ، حتى لا نزيد الكتاب عن الحجم الذي قدرناه له

وقام اسماعيل أبو العينين افندي — من خريجي معهد الآثار الاسلامية — بتلخيص تاريخ مصر في العصور الوسطى . كما كتب يونس مهران افندي من خريجي المعهد المذكور مقالاً عن الجامع الازهر . فالى حضراتهم جميعاً نقدم خالص الشكر

اما صديقي عبد الرحمن زكي فقد تحدث عن عواصم مصر الاسلامية . وأتيح لي أن أختم الكتاب بكلمة عن بعض المصادر المهملة في دراسة التاريخ الاسلامي أدليت فيها ببعض الآراء في أساليب البحث في هذا العلم ، أسوقها الى من يظن أنهُ في حاجة اليها من القراء الكرام واما الذين لا يرون فيها نفعاً لهم فاعتذر اليهم عن وجودها في هذا الكتاب وأرجو ألاّ يعيروها من الانتباه الاّ ما تستحق

***

وانا بعد هذا كلهُ نحب أن نختتم هذه المقدمة باستعراض سريع لبعض الحوادث في تاريخ مصر في العصور الوسطى لنبين المكانة التي كانت لبلادنا في القيصرية الاسلامية في تلك العصور ، ولنثبت أن الزعامة التي آلت اليها في العالم الاسلامي لم تكن وليدة العصر الحديث فهي تقوم على دعائم قوية منذ فتح العرب مصر وفرضوا عليها دينهم ولغتهم وقاموا بتعريبها كما قامت بتمصيرهم

وجدير بنا أن نقرر أن العرب كانوا يعرفون لمصر خطرها ومكانتها منذ البداية ، فنحن لا نؤمن بأسطورة الكتاب الذي يروي بعض المؤرخين أن الخليفة عمر بن الخطاب أرسله الى قائده عمرو بن العاص ، ليرجع عن فتح مصر . ولا نؤمن بأن مصر فتحت بدون رغبة الخليفة . ولا غرو فاننا لا نرمي العرب بأنهم كانوا يجهلون ما كانت عليه مصر من الثروة والخصب ، ولا ما كان فيها من الخلافات الدينية بين الحكام الروم والمحكومين المصريين ، والاضطهاد الديني وثقل الضرائب التي كان يئن تحت عبئها هؤلاء . ولا نريد ان نتهم العرب بأنهم كانوا يجهلون ان مصر فريسة سهلة وان الاستيلاء عليها ضرورة حربية لاتقاء خطر الروم ولتأمين استيلاء المسلمين على ربوع الشام ، وان القبط[١] سوف يقفون منهم موقف المحايد ، ان لم يصبحوا عوناً لهم على الروم

---

(١) [illegible] سكان مصر الوطنيين بهذا الاسم وهو مشتق من اسم البلد باللغة اليونانية ، [illegible] وادي النيل اسمه السامي القديم : مصر

ومهما يكن من شيء فالمعروف ان الولاة العرب لم يلبثوا بعد الفتح ان بدأوا في ارسال الغلال سنويًّا من مصر الى الحجاز كما كان يرسلها ولاة الروم من قبلهم الى روما ثم القسطنطينية [١]

وظل وادي النيل زهاء قرنين من الزمان يحكمه ولاة يعينهم اولياء الامر في بلاد العرب . ولكن الذين استقروا في مصر من المسلمين ظلوا على اتصال بالحجاز والشام ، بل سار منهم وفد الى المدينة تزعّم الثورة التي انتهت بمأساة الخليفة عثمان . وخضعت مصر بعد ذلك فترة من الزمن لسلطان علي بن ابي طالب

ولكن عمرو بن العاص الذي كان بطل الفتح العربي منذ البداية ، فسلّمت له بابليون والاسكندرية صلحاً ، والذي أتيح لهُ بعد ذلك ان يستدعى الى مصر في عهد خلفه ، فيفتح الاسكندرية عنوة ، حين قدم اليها سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) اسطول بيزنطي رحّبت بهِ وشقت عصا الطاعة على المسلمين ، نقول ان عمراً هذا كان من اكبر انصار معاوية في نضاله على الخلافة مع علي بن ابي طالب ، وانه سار الى مصر بجيش اخضعها لحكم معاوية فكافأه هذا على اخلاصه ودهائه بان منحه وادي النيل طعمة له بعد عطاء الجند ونفقة الادارة

وكان خضوع مصر لمعاوية إيذاناً برجحان كفته . ثم قتل علي واستتب الحكم لبني امية فولي مصر في عهدهم بعد وفاة عمرو واحد وعشرون والياً ، حكم أحدهم البلد نحو تسعة اشهر نائباً عن ابن الزبير الى ان سار الى مصر مروان بن الحكم فطرده منها

ومن اخطر هؤلاء الولاة شأناً عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك ، وكان يحكم مصر من مقره بحلوان كأنهُ امير مستقل لا يكاد يكون للخلافة اي سلطان عليهِ

وعندما قويت الدعوة لبني هاشم ، وتمخضت عن سقوط بني أمية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، كانت مصر الاقليم الذي اختاره مروان بن محمد ليعتصم به ، ولكن جيشاً عباسيًّا تبعهُ اليها . وقتل مروان [٢] ، فتقلد الحكم في وادي النيل صالح بن علي قائد هذا الجيش وتوالى على مصر حتى سنة ٢٥٤ هـ (٩٦٧ م) أربعة وستون حاكماً ، ولي أحدهم الأمر ثلاث مرات وولي تسعة آخرون الحكم مرتين

وكان القبط من ناحية وبعض عرب المشاغبين من ناحية اخرى يثورون بين حين وآخر فتخضعهم الحكومة . وقد زار المأمون مصر فوضع حدًّا لكثير من الاضطراب فيها وزاد دخول القبط في الدين الاسلامي فلم يلبث المسلمون ان صاروا اغلبية في البلاد . وصارت العربية

(١) كان نظام ارسال الاقوات اللازمة في كل عام ... اول ... يعرف ... [illegible]

(٢) كان قتل هذا الخليفة أثر ظاهر في الاساطير ... حيث ... فيها ... . وقد نقل صاحب تاريخ البطارقة تفاصيل دقيقة عن هذا الحادث

لغة البلاد حتى كان رجال الدين من القبط في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مضطرين الى الكتابة بها . وزادت هجرة القبائل العربية والتجار العرب [١] وكان لذلك اليد الطولى في سرعة تعريب البلاد في نفس الوقت الذي عمصر فيه العرب الفاتحون

ومهما يكن من شيء فان مصر في القرنين اللذين جاءا بعد الفتح العربي سرعان ما اصبحت درة نفيسة في القيصرية العربية ، فقدكانت الخلافة وممثلوها يستغلونها الى اوسع حدود الاستغلال. وفضلاً عن ذاك فقد نمت في وادي النيل حركة علمية دينية واشتهر من الصحابة فيها عبد الله ابن عمرو بن العاص وقد اخذ عنهُ كثير من العرب الذين استوطنوا مصر . ونبغ من الفقهاء عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد [٢] . وكان الاخير صديقاً للامام مالك ويظن الكثيرون أنه كان أعلم منهُ ، وأن السبب في أنهُ لم يبلغ شهرته انما يرجع إلى أن أصحابه لم يرووا عنهُ او « أضاعه اصحابه » على حد قول الامام الشافعي،الذي زارمصر في نهاية القرن الثاني الهجري وعاش فيها حتى سنة ٢٠٤ هـ (٨٢٠ م)

ولما ازداد نفوذ الجند من الأتراك في خدمة البلاط العباسي بدأ الخلفاء سنة جديدة في حكم بعض الاقاليم التابعة للخلافة ، وذلك باقطاعها أولياء عهدهم ثم قواد الجند من الترك . وكان هؤلاء القواد يخشون قيام الدسائس ضدهم اذا ابتعدوا عن عاصمة الخلافة ، كما كان الخليفة نفسه يرى في بقائهم الى جانبه ضماناً لعدم استقلالهم بما يولونهُ من الاقاليم . فكان هؤلاء الولاة لا يحكمون بأنفسهم بل يرسلون الى الاقاليم عمالاً من قبلهم ، ويتلقون منهم ما يتبقى من الجزية والخراج بعد دفع نفقات الدولة والادارة ، فيدفعون منها الى بيت مال الخليفة أموالاً كان يتفاوت قدرها

وفي سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) تقلد حكم مصر القائد التركي باكباك فاستخلف عليها احمد ابن طولون . الذي أسس فيها أسرة مستقلة تبدأ بها حياة مصر لنفسها في مجموعة الأمم الاسلامية . ولم يعد دخل البلاد يتسرب الى بيت مال الخليفة او الى جيوب الولاة والعمال . وعاد الى مصر سلطانها على الشام للمرة الاولى بعد قرون طويلة . ولم يكن الطولونيون الاسرة الوحيدة التي استقلت عن الخلافة العباسية ، فقد سبقتهم وحذت حذوهم دويلات اخرى ، ولكننا نرى أن أكثر هذه الدويلات عملت على تشجيع الشعور الوطني والتقاليد المحلية ولا سيما في ايران ، بينما عكف الطولونيون على تقليد الخلافة . وبنوا عاصمتهم القطائع على نسق سامرا عاصمة المعتصم . وأخذوا يسيرون في حياتهم الاجتماعية على نسق العباسيين في بغداد

---

(١) كان بين مصر والعرب صلات منذ أول عهد مصر بالتجارة العرب فقد ذكر استرابون الجغرافي الاغريقي أن مدينة كبتس في صعيد مصر كانت نصفها عربية (٢) راجع فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ج ١ ص ٢٢٣—٢٢٧

ولكن الذي لا شكّ فيه بعد هذا كله ، ان مصر تبدأ بالأسرة الطولونية صحيفة جديدة في تاريخها الطويل ، ليكون لها كيانها الخاص بدون ان تطلق الحضارة الاسلامية او تنفصل عن العالم الاسلامي كل الانفصال . وابن طولون لا يشق عصا الطاعة على الخليفة نفسه ، لان المعتمد لم يكن في يده من السلطان شيء ، بل كان أخوه الموفق يحكم البلاد باسمه ، وكان ابن طولون يظهر بمظهر المدافع عن الخليفة ، بل انهُ عمل على ان يجذب الخليفة المضطهد الى مصر وان يستمد السلطان منهُ فيحكم البلاد باسمه ويجعل مصر قلب العالم الاسلامي وحاضرته ، ولكنهُ لم ينجح في سعيه هذا ، اذ قبض رجال الموفق على الخليفة وأعادوه الى سامرّا . وان يكن بيبرس نجح بعد أربعمائة سنة في تحقيق هذا المشروع ، فلم يكن ذلك الا لأن السلاجقة قضوا على الخلافة في بغداد ، فلم يكن عسيراً ان ينصّب في مصر خليفة يظهر في بعض المناسبات والاحتفالات ويكون لهُ سلطان اسمي حتى يفتح الأتراك العثمانيون مصر ، فيذهب بعض المؤرخين الى ان المتوكل آخر الخلفاء العباسيين في مصر تنازل عن الخلافة للسلطان سليم ، على الرغم من ان المعروف ان سليماً اتخذ لقب الخلافة قبل ان يفتح مصر ، وان المصادر المعاصرة لم تذكر شيئاً عن مثل هذا التنازل [1]

وعلى كل حال فان الدولة الطولونية في عزها لم تكن تخشاها الدولة العباسية فحسب ، بل كان البيزنطيون يعرفون لمؤسسها شجاعته وحسن سياسته فتوددوا اليه باطلاق الأسرى وارسال الهدايا النفيسة [2]

ولم يكن سقوط الطولونيين ورجوع مصر الى حكم العباسيين ايذاناً بالقضاء على استقلالها ، فقد كانت الخلافة ضعيفة ، ولم يكن بدّ من قيام دويلات صغيرة على انقاضها فقام بنو حمدان وبنو بويه واستقلّ الاخشيديون بمصر الى حد كبير ، وزاد سلطان المادرائيين ونفوذ أسرتهم في وادي النيل . ثم كان كافور مقصد الشعراء يمدحونه طلباً لعطائه كما فعل المتنبي

ولكن الأسرة الطولونية وكذلك الاخشيدية لم تعمرا طويلا ، ولم تكونا تقومان في مصر على اي أساس ديني او وطني ، كما كانت الدولة الفاطمية التي خلفتهما في حكم البلاد من سنة ٣٥٨ الى سنة ٥٦٧ هـ (٩٦٩ — ١٠٧١ م) وفرضت على البلاد مذهب الشيعة ولم يقف خلفاؤها عند حدٍ في سبيل اعلان مجدهم واظهار أبهتهم . ولا غرو فقد جاءوها ملوكاً فاتحين لهم الأمر والسلطان ، وليسوا ولاة مبعوثين يبنون فيها مجدهم ويقيمون في ربوعها سلطانهم ، وازدهرت

---

(١) راجع T. W. Arnold : The Caliphate ص ١٢٩ وما بعدها

(٢) انظر كتابنا Les Tulunides ص ١٥٧ — ١٥٩

التجارة في عصر الفاطميين واستتب الأمن وساد الرخاء والتسامح الديني وزاد نمو الاسكندرية وصارت حلقة الاتصال بين الشرق والغرب تتجمع فيها البضائع وتشتد فيها حركة التجارة بين أوربا وبين بلاد العرب والهند والصين

وكانت سورية ميدان النزاع بين الفاطميين وبني بويه والسلاجقة ، وكان فيها امارات صغيرة يخطب فيها باسم الفواطم تارة وباسم العباسيين تارة أخرى . بل ان بغداد نفسها القيت فيها الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر ، وذلك بين سنتي ٤٤٩ و ٤٥٠ ﻫ (١٠٥٨ م) حين ثار الوزير البساسيري على الخليفة القائم

ومهما يكن من شيء فقد أفلح الفواطم في إقامة قيصرية واسعة الارجاء ازدهرت فيها حضارة بزت ما عرف في بغداد وقرطبة وحسبهم فخراً أن يكون من منشآتهم الجامع الازهر وان تكون من منتجات فنونهم التحف التي تفخر دور الآثار والمجموعات الأثرية بجزء يسير منها لا يكاد يمثل هذا العصر الذهبي خير التمثيل . وحسبهم فخراً أن يكون أثر ثقافتهم قد امتد حتى صقلية وجنوبي ايطاليا والاندلس وقد وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو رخاء مصر في بداية عصر المستنصر وصفاً مسهباً أظهر فيه أن بلادنا كانت واسطة عقد العالم الاسلامي في ذلك العصر (١)

على أن نجم الدولة الفاطمية أذن بالأفول وتعاقبت على البلاد سني القحط أو « الشدة العظمى » وأقبل الصليبيون ووصلت جنود ملكهم عموري الى أبواب القاهرة قبل أن يظهر في ميدان السياسة المصرية صلاح الدين

وقد أفلح صلاح الدين وخلفاؤه فيما اخفقت فيه الدولة الفاطمية في نهاية أيامها، ونقصد بذلك صد الصليبيين وقمع ما في البلاد من قلاقل واضطرابات . وأصبحت مصر على يده حامية الشرق والاسلام ومدت سلطانها ثانية على سورية وانزلت بالصليبيين خسائر فادحة . وكان صلاح الدين والعادل والكامل سلاطين مصريين قبل كل شيء . ولا شك في ان حصار الصليبيين دمياط ثم هزيمتهم عند المنصورة واضطرارهم الى الجلاء عن مصر بدون قيد ولا شرط، كل ذلك اعلى شأن السلطان الكامل فسادت السكينة واستتب الأمن في البلاد

ولكن أسرة الايوبيين كانت مفككة العرى وكان النزاع بين خلفاء صلاح الدين يحمل بين طياته أسباب تفرق كلمتهم ثم سقوط دولتهم عندما قوي شأن عبيدهم وجندهم من المماليك فقبضوا على أزمة السلطان بعد أن كانوا يحكمون من وراء الستار

---

(١) راجع كتابنا كنوز الفاطميين ص ١٠ — ١٣

وكان تربع المماليك في دست الحكم سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) ايذاناً بانقضاء عهد الأسرات الوراثية الحاكمة، فاننا اذا استثنينا الأفراد الذين حكموا من أسرة قلاوون، وجدنا أن دولة المماليك — ولا سيما المماليك الجراكسة ٧٩٢ — ٩٢٣ هـ (أي ١٣٩٠ — ١٥١٧ م) ليست إلاّ حكومة حربية أوليجاركية، قوامها العبيد الذين يشترون ثم يعتقون، والذين يكونون طبقة مستقلة عن الشعب المصري تعيش في سعة وهناءة وتستغل الشعب استغلالاً معيباً كما تستغل حكومتها الوسطاء في التجارة بين الشرق والغرب استغلالاً يعود عليها بالارباح الطائلة ويمكنها من اقامة العمائر الضخمة التي لايزال جزء كبير منها قائماً حتى الآن

على أن للمماليك فخراً لا يعدله فخر، فقد صدوا المغول عن مصر وحموا وادي النيل مما حل بالعراق على يد تلك الجموع المتوحشة. والواقع أن انتصارات بيبرس على الصليبيين ثم هزيمة المغول في عين جالوت مهدت الطريق للناصر محمد بن قلاوون حين اعتلى العرش لثالث مرة سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠م) فظل يحكم البلاد إثنتين وثلاثين سنة ساد فيها الرخاء وازدهرت الفنون. وفي سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) اعيد تقسيم وادي النيل فجعل خمسة عشرة مديرية، لا تختلف عن المديريات الحالية الا في واحدة بالصعيد

وقصارى القول أن مصر كان لها في عصر المماليك مقام ممتاز، يمتد نفوذها الى الاقطار البعيدة، وتخطب ودها بيزنطة وغيرها من الدول الاوربية، ولا غرو فان نظام دولة المماليك نفسه وذهاب سنة الوراثة في الحكم كانا كفيلين ببقاء الاصلح او بمعنى أدق كانا كفيلين بصعود الاكفاء الى القمة وظهور حكام كبيبرس وقلاوون والناصر وبرقوق وقايتباي، يتوفر فيهم بعد النظر، كما يظهر من سياسة ايواء الخليفة العباسي وحمايته، وتتوفر فيهم وفي اتباعهم الشجاعة والتربية الحربية النادرة ويعرفون عند اللزوم كيف يشجعون كري الترع وحفرها وزراعة الارض ضماناً لدخل الحكومة وتحصيل الضرائب

ولكن لا شك في ان تجارة الهند كانت المصدر الرئيسي لمالية السلاطين المماليك، فلما كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت التجارة اليه، كان ذلك ضربة قاضية على حكم المماليك وايذاناً بانتهاء دولتهم. وزاد الطين بلة أن الدولة العثمانية كانت تطمح الى الاستيلاء على مصر، ولم يكن عسيراً ان ترقب المناسبات وتنتحل المعاذير حتى تم لها ما ارادت سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)

ومع ان تاريخ مصر الحديث يبدأ بالحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ م فان الحكم العثماني في مصر من سنة ١٥١٧ حتى سنة ١٧٩٨ فترة ركود في تاريخنا ليس فيها ما نفخر به، ولا ما يستحق أن نشيد بذكره، اللهم الاّ ثورة علي بك الكبير في القرن الثامن عشر الميلادي

ولا يسعنا ان نختم هذه المقدمة بدون ان نشير الى الحياة العقلية والعلمية بمصر في العصور الوسطى ، فقد ضاق المجال في هذا الكتاب عن الحديث عنها وفاتنا الكلام عن مدارس الفقه الشافعية والمالكية وعن كتب الخطط وفضائل مصر وعمن نبغ من المؤرخين كابن عبد الحكم وابن الداية والكندي وابن زولاق والقضاعي وابن دقماق والاوحدي والمقريزي وابن إياس وابي الفدا والسيوطي وغيرهم ، ولكننا نستميح القراء عذراً فاننا ، كما ذكرنا في اول المقدمة ، نعرف ما في كتابنا من قصور ، فالموضوع الذي نحن بصدده لايفيه حقه كتاب في هذا الحجم ، ولا يكفي لوضعه الزمن الذي قضيناه في تصنيف كتابنا هذا

مصر الاسلامية

فى العصور الوسطى

لاسماعيل محمد ابو العينين

١ — نهاية حكم البيزنطيين في مصر

قبل أن أتكلم عن فتح العرب لمصر على يد عمرو بن العاص اذكر كلمة عنها في اواخر حكم الرومان لها وأبين كيف أن الاحوال في ذلك الوقت ساعدت العرب على فتح البلاد بهذه السهولة وعلى هذا الانتصار السريع

فمصر في القرن السادس الميلادي لم تعد اقليماً بيزنطياً بالمعنى الصحيح فقد كانت السلطة البيزنطية عليها ضعيفة وأخذت البلاد من الوجهات السياسية والادارية والاقتصادية والدينية تتهيأ لهذا الحادث الكبير وهو الانتقال من أيدي البيزنطيين الى أيدي العرب

كانت العلاقة بين القسطنطينية وبين مصر مادية بحتة بمعنى أن مصر تؤدي الخراج المفروض عليها سنوياً ، قمحاً وغلالاً تُرسل من الاسكندرية الى القسطنطينية او أموالاً عينية. وبغير ذلك كان لا يعنى الرومان

اما عن كيفية جباية الضرائب وهل كانت تجبى بالعدل فقد كان ذلك متروكاً للسلطة المحلية ونجد في القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي أن مسألة الضرائب كانت مصدر شكوى للفلاحين فقد كانت هناك ثلاثة انواع منها : ضريبة على الارض وضريبة على الرؤوس وضريبة لعمال الادارة

وكانت تقع مظالم كثيرة في جباية تلك الاموال ولا سيا على الفلاح الصغير بحيث وجد في مصر نظام الحماية Colonnate فلكي يهرب الفلاح من كثرة الضرائب يضع نفسه تحت حماية أمير من الامراء ولكنهُ كان في الواقع كالمستجير من الرمضاء بالنار فبمضي الزمن كانت تصبح أرضهُ ملكاً للامير الذي وضع نفسه تحت حمايته ويتحول الفلاح من مالك صغير الى مجرد عامل أجير لهذا الامير وبذلك وجد ما يسمى في الدولة الرومانية بالابعاديات Latinundia يملكها ملاك كبار أشبه بأمراء اقطاعيين بحيث أصبحت البلاد موزعة بين عدة أسر كبيرة قوية وغنية وبذلك انتهت البلاد في القرن السابع الميلادي الى نظام اشبه بالنظام الاقطاعي

وقد كانت البلاد مقسمة ادارياً خمسة اقسام كبرى وهي :

(١) الاسكندرية ويقيم فيها الحاكم الروماني Augustal Duke

(٢) شرقي الدلتا ويحكمهُ دوق Duke
(٣) غربي الدلتا ويسمى ليبيا ويحكمهُ دوق
(٤) مصر الوسطى ويشمل الفيوم وما اليها ويسمى Arcadia ويحكمه دوق كذلك
(٥) الجزء الباقي الى حدود السودان ويسمى Thebaid ويحكمهُ دوق

ولا بأس بهذا التقسيم في الجملة ولكن ضعف سلطة الحاكم الروماني المقيم في الاسكندرية على الامراء جعله معيباً كما انهُ لم تكن هناك وحدة ادارية بالمعنى الصحيح فقد كان كل دوق مستقلاً تقريباً وتحت أمرته قوة عسكرية وكانت الاسكندرية هي كل شيء وما عداها مهمل

أما من الناحية الاجتماعية فقد كان الامراء شبه مستقلين ووجدت أسر قوية وتوزعت الأراضي توزيعاً اقطاعيًّا . وكان الجيش مقسماً تبعاً للتقسيم الاداري الحامي الذي لم يكن مرتبطاً بعضهُ ببعض بل كان موزعاً واستعداده الحربي ضعيفاً ولم تكن تسوده روح قومية بالمعنى الصحيح

واذا اضفنا الناحية الدينية الى النواحي الثلاث السابقة تبين لنا فساد الحال . فالاقباط كانوا على خلاف مستحكم مع الدولة البيزنطية . فقد كان المذهب الرسمي للدولة هو المذهب الملكاني Melkites بينما كان الاقباط على المذهب اليعقوبي Monophysites وأراد أباطرة الرومان أن يلزموا المصريين باعتناق مذهبهم ووقعت في السنوات العشر السابقة للفتح العربي اضطهادات شديدة للاقباط من الحكومة البيزنطية وكان يتولى هذا الاضطهاد الحاكم البيزنطي Cyrus أو المقوقس كما يسميه العرب وكان قد أرسله الامبراطور هرقل سنة ٦٣١م. الى الاسكندرية بطريقاً لها ورئيساً للسلطة الزمنية في البلاد . وقد عمل هذا الرجل مدة عشرة سنوات بكل الوسائل على اغراء الكنيسة القبطية باتباع المذهب الروماني وزيادة الاموال التي تجبى من مصر ولكن المصريين ثبتوا على أفكارهم ولم يزدهم الاضطهاد الا رسوخاً في ايمانهم الا أن صفوفهم تضاءلت وأحاط بهم الشقاء وعدمت الارض من جراء ذلك أذرعاً تعمل على فلاحتها وغراسها والمصانع أيدي تشتغل فيها وبارت التجارة وأقبل القحط على البلاد فانتشر الطاعون وقامت الثورات إلاّ أنهُ قد صحبت هذه الاحوال من جهة أخرى يقظة الروح القومية في المصريين — اذ كثيراً ما تكون المسائل الدينية معبرة عن الميول السياسية او ستاراً لها — وتظهر هـذه اليقظة في انتعاش اللغة القبطية وآدابها واستعمالها في الحسابات والاعمال ومزاحمتها للغة اليونانية وفي الاعتراف ببطارقة من الاقباط وفي استقلال الفن القبطي الذي كان له تأثير كبير في الفن الاسلامي فيما بعد

جميع هذه الاحوال يمكن أن يرجع اليها سهولة فتح العرب لمصر. فقد كان العرب لا يقاتلون أمة بل كانوا يقاتلون جيش احتلال لا تؤيده روح قومية كما أنهُ لم تكن هناك مقاومة عامة شعبية بدليل أن جيش العرب البالغ اثني عشر الفاً هزم جيش الروم البالغ خمسين الفاً

٢ — مصر أيام الخلفاء

(١٨ هـ — ٢٥٤ هـ . = ٦٣٩ م . — ٨٦٨ م .)

الفتح

اختلف مؤرخو العرب في ذكر اسباب الفتح العربي لمصر فنهم من قال : ان النبي صلى الله عليه وسلم وعد به العرب فقام خلفاؤه بتنفيذ نبوءته. وقال آخرون إن الاقباط استدعوا العرب ليخلصوهم من ذل البيزنطيين وقال غيرهم إن عمرو بن العاص لما كان شابًّا أغاث راهبًا في برية ونجاه من الهلاك فأحب الراهب أن يكافئه فجاء به الى الاسكندرية حيث أغدق عليه هو ورؤساؤه عطايا سنية وأن عمراً حضر مع ذلك الراهب في هذه المدينة حفلة ألعاب عمومية كانوا يقذفون فيها بكرة ويعتقدون أن من وقعت تلك الكرة في حجره تكتب له الاقدار أن يصبح ذات يوم حاكم المدينة فاتفق أنها وقعت في حجر عمرو وهو بلباسه البدوي فأجفلته فأضحك الأمر الحاضرين وحملهم على الاقلاع عن اعتقادهم لاستبعادهم أن يصبح ذلك البدوي أميراً عليهم . وإن عمراً استفسر من الراهب عما يضحك القوم فأفاده فهز عمرو كتفيه استهزاءً منهُ هو أيضاً بذلك الفأل ولكنهُ عاد فتذكره بعد ما انتشرت الدعوة الاسلامية في شبه الجزيرة العربية واستتبت فيها استتباباً حمل قبائلها على الخروج بقلوب متحدة الى فتوحات خارجية كان عمرو أحد كبار قوادها ، فتولدت في قلبه الاماني البعيدة ولا سيما بعد فتح فلسطين وبيت المقدس. وعسكرت الجيوش العربية على حدود الصحراء التي تفصل بلاد الشام عن القطر المصري فأقبل يحبب أمر فتح هذا القطر الأخير الى الخليفة عمر بن الخطاب بجميع وسائل الاقناع فتارةً يذكره بنبوءة النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة بالفتح وطوراً يذكر لهُ أن مصر على كونها أعجز أقاليم العالم عن القتال أكثر الارض أموالاً وان فتحها والحالة هذه على ما فيه من السهولة يزيد قوة المسلمين ويأتيهم بعون عظيم حتى حمله على الرضاء به

ثم اختلف أيضاً المؤرخون في كيفية الاقدام على الفتح فقال بعضهم : كان عمرو في جنده على قيسارية مع من كان بها من أجناد المسلمين وعمر بن الخطاب اذ ذاك بالجابية فكاتبه عمرو سرًّا مستأذنًا في ان يسير الى مصر وأمر أصحابه فتنحوا كقوم يتنحون من منزل الى منزل قريب ثم سار بهم ليلاً فلما فقده أمراء الأجناد استنكروا الذي فعل وعدوه غدراً فعرفوا ذلك الى عمر

ابن الخطاب فكتب عمر الى عمرو « الى العاصي بن العاصي : اما بعد فإنك قد غررت بمن معك فان ادركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع وان ادركك وقد دخلت فامض واعلم أني ممدك »

قال غيرهم : ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص بعد ما فتح الشام « أن اندب الناس الى المسير معك الى مصر فمن خف معك فسر بهِ » وبعث الكتاب مع شريك بن عبده فندبهم عمرو فاسرعوا الى الخروج معهُ. ثم ان عثمان بن عفان دخل على عمر بن الخطاب فقال عمر لهُ « كتبت الى عمرو بن العاص يسير الى مصر من الشام » فقال عثمان « يا أمير المؤمنين ان عمراً جريء وفيهِ اقدام وحب للامارة فأخشى ان يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا » فندم عمر على كتابهِ الى عمرو وأشفق مما قال عثمان فكتب الى ابن العاص مرة أخرى وقال « ان ادركك كتابي قبل ان تدخل الى مصر فارجع الى موضعك وان كنت دخلت فامض لوجهك »

وقال آخرون ان عمر لما اقنعهُ عمرو بصواب الفتح قال له : « سر وانا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي سريعاً ان شاء الله تعالى فان ادركك كتابي آمرك فيهِ بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » فسار عمرو من جوف الليل دون ان يشعر بهِ أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنهُ تخوف على المسلمين في وجههم ذلك فكتب الى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معهُ فأدرك الكتاب عمراً اذ هو برفح فتخوف اذا هو أخذ الكتاب وفتحهُ أن يجد فيهِ الانصراف فلم يأخذه من الرسول ودافعهُ وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل انها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ثم قال لمن معهُ « ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر » قالوا « بلى » فأخبرهم بما دار بينهُ وبين أمير المؤمنين من الاتفاق قبل قيامه ثم قال لهم « انتم شهود على أن كتابهُ لم يلحقني الاّ وقد دخلنا أرض مصر فسيروا اذن بنا وامضوا على بركة الله »

ومن المؤرخين من قال أيضاً : ان عمراً كان بفلسطين فتقدم باصحابه الى مصر بغير اذن فكتب فيهِ الى عمر فكتب عمر وهو دون العريش فحبس عمرو الكتاب ولم يقرأه حتى بلغ العريش فقرأه حين ذاك واذا فيهِ « من عمر بن الخطاب الى العاصي بن العاصي أما بعد فانك سرت الى مصر بمن معك وبها جموع الروم وانما معك نفر يسير ولعمري لو نكل بك ماسرت بهم فان لم تكن قد بلغت مصر فارجع » فقال عمرو « الحمد لله أية ارض هذه » قالوا « من مصر » فتقدم ولم يبال وهو كما هو

ومهما يكن من اختلاف آراء المؤرخين في أسباب الفتح وكيفيته فان مما لاشك فيهِ ان

الضرورة الحربية كانت تحتم على العرب بعد استيلائهم على العراق والشام أن يغزوا مصر التي كان في استطاعة الروم ان يتخذوها قاعدة لتهديد أملاك المسلمين وحتى ان المدينة نفسها مقر الخلافة حينذاك كانت معرضة للخطر لقربها من ميناء القلزم (السويس) على البحر الاحمر هذا فضلاً عن ان مصر بغلاتها وخيراتها أنسب وأكثر فائدة للعرب من الشام والعراق

وعلى ذلك فكل ما يقوله مؤرخو العرب عن فتح مصر على غير رغبة من الخليفة بعيد الاحتمال

خرجت الحملة سرًّا من قيسارية في فلسطين على شاطىء البحر الابيض المتوسط في أواخر سنة ١٨ هجرية (٦٣٩ م.) بعد أن أتم عمرو فتحها. وسارت بقيادته محاذية للبحر وهو الطريق الذي يسير فيه كل غاز لمصر من جهة الشام فوصلت العريش في ذي الحجة سنة ١٨ هـ. وقت عيد الاضحى وتابعت السير حتى بلغت الفرما (شرقي بور سعيد) وبعد ان دافعت عنها حاميتها مدة شهر استولى عمرو عليها بمساعدة قبط مصر الذين كانوا على استعداد للترحيب بمن يخلصهم من ظلم الروم ففتحوا للعرب أذرعهم وقلوبهم وقاموا يمهدون لهم سبل الفتح إن لم يكن بمساعدة ايجابية فبالتزام الحياد والقعود عن الدفاع . ثم واصل الزحف حتى بلبيس وهناك بعد حصار دام مدة شهر التقى بالجيش الروماني فدحره في واقعة كبيرة فتحت له الطريق الى رأس الدلتا والى ام دنين وحصن بابليون

ويقول المؤرخون ان عمراً بعد ان استولى على ام دنين وموقعها جامع اولاد عنان وما حوله وكانت تقع على النيل عبر الى الشاطىء الغربي وغزا الفيوم . وهذا أمر مشكوك فيه لأنهُ لايمكن أن يغرّر عمرو بجنده ويجازف بهم في الوقت الذى يشعر فيه أن جيشهُ قليل العـدد فيرسل في طلب المدد من الخليفة . وعلى كل حال فانهم يقولون إن عمراً لما عاد من غزوة الفيوم وجد المدد قد وصله فبلغ عدد جيشه ثمانية آلاف جندي أو اثني عشر الفاً كما يقول بعض مؤرخي العرب وحارب الروم في عين شمس وهزم جيشهم الذي رجعت فلوله إلى حصن بابليون فشرع عمرو في حصاره وقد طالت مدة الحصار بسبب فيضان النيل وجرت في خلالها مفاوضات بينهُ وبين المقوقس في جزيرة الروضة انتهت بتسليم الحصن . وقد كان هرقل قد توفي في خلال ذلك وقيل إن وفاته كانت سبباً في انكسار نفوس الروم داخل الحصن وضعف روحهم المعنوي مما جعلهم يسلمون في ٩ ابريل سنة ٦٤١ بعد حصار دام ستة أشهر

شرع عمرو بعد ذلك في الزحف على الاسكندرية فحدثت بينهُ وبين الروم عند دمنهور الحالية واقعة كبيرة تقدم بعدها الى الاسكندرية وكانت ميناء محصنة محمية من جهة البحر بالاسطول البيزنطي فشرع في حصارها الاّ أنهُ حدث في اثناء ذلك ان تغيرت الاحوال في القسطنطينية فقد مات هرقل وخلفهُ احد اولاده وكان قاصراً فأقيمت امه الامبراطورة وصيّة عليه في ادارة شئون

الامبراطورية فاستدعت المقوقس من منفاه وكان قد نفي لاتهامه بالتقصير في الدفاع عن البلاد وردته الى الاسكندرية مزوداً بالسلطة التامة فقام بمفاوضات مع عمرو بن العاص انتهت بمعاهدة بابليون التي أورد يوحنا النقيوسي تفاصيلها وموادها التي اهمها :

(١) يدفع سكان الاسكندرية جزية شهرية

(٢) يقدم الرومان للعرب ١٥٠ جندياً و ٥٠ رجلاً مدنياً رهائن لضمان تنفيذ شروط هذه المعاهدة

(٣) يعد العرب بعدم التعرض لكنائس المسيحيين أو لشؤونهم الدينية

(٤) يسمح لليهود بالاقامة في الاسكندرية

(٥) يقيم العرب في مكان بعيد عن المدينة مدة أحد عشر شهراً ويعد الروم بالجلاء عن المدينة في خلال هذه المدة والابحار الى بلادهم

(٦) يتعهد الروم بعدم عمل أية محاولة لاسترجاع المدينة

وقد أمضيت هذه المعاهدة في أوائل شهر نوفمبر سنة ٦٤١ م . وأبحرت الجنود الرومانية الى بلادها في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م

ويتضح من شروط هذه المعاهدة أنها كانت قاصرة على الاسكندرية بدليل أن عمرو بن العاص شرع بعد ذلك في الاستيلاء على المدن الشمالية ثم أرسل من استولى على المدن الجنوبية ومنها الفيوم بحيث لم تأت سنة ٢١ هـ . الا وكانت البلاد بأجمعها قد خضعت لنفوذ العرب

ومما سبق يظهر بوضوح أن الحرب لم تكن بين العرب والمصريين بل كانت بين جند الروم والعرب كما كان القبط يساعدون العرب ويتجنبون مناوأتهم ويتمنون لهم النصرة لانهُ لم يكن هناك ما يحبب اليهم حكم الروم

وقبل أن أترك موضوع الفتح أرى لزاماً عليَّ ان أتعرض لما نسب الى العرب من تدميرهم مكتبة الاسكندرية واستعمال كتبها لإيقاد النيران في حماماتها العامة البالغ عددها اربعة آلاف حمام ويُرد على هذا الافتراء الكاذب الذي لا أصل لهُ انهُ لم يرد لهُ ذكر في مؤلفات مؤرخي اليونان او كتابهم كما أنهُ لم يتعرض لهُ يوحنا النقيوسي أو ابن عبد الحكم أو الطبري او غيرهم من المؤرخين المعاصرين بل كان اول ظهور هذا الافتراء في القرن الثالث عشر الميلادي اي بعد الفتح بستمائة سنة وهو مناقض لما ذكره يوحنا النقيوسي عن سياسة الحماية Protecting Policy التي اتبعها عمرو بن العاص وقد يحتمل ان يكون أساس هذه الخرافة في تدمير كتب عبدة النار في اثناء الفتح العربي لفارس فضلاً عن انهُ قد ثبت ان المكتبة لم تكن موجودة حين فتحها العرب حتى يمكن اتهامهم بحرقها

الادارة والتنظيم

لم يغير العرب كثيراً في الانظمة الاساسية للبلاد التي فتحوها . ولا غرو فقد كانوا حديثي عهد بنظم الحكم الحضري واساليبه . ومهما يكن من شيء فقد أجرى المسلمون في مصر من التنظيم ما أجروه في غيرها من البلاد التي فتحوها فكانت الادارة الاسلامية تدور على الإمارة والقضاء والخراج

فكان يلي الحكم الامير او الوالي وكان يؤم الناس في الصلاة ويحكم باسم الخليفة وينفذ أوامره. ويلاحظ ان الولاة في الدولة الاموية كانوا اكثر استقراراً بعكس الحال في الدولة العباسية فكانت مدة ولايتهم قصيرة لكثرة تبديلهم

أما القضاء وهو منصب له الصفة الدينية فيشمل اقامة الحدود والنظر في الخصومات وفي المواريث وكان يوليه الخليفة من قبله رأساً ولا سلطان للوالي عليه وكانت احكامهُ مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله

وكانت تسند وظيفة الخراج الى رجل يقال له صاحب الخراج يوليه الخليفة رأساً

ولم تكن هذه المناصب الثلاثة الكبرى هي كل شيء في الادارة بل كانت بجانبها أشياء اخرى ابقيت نظمها على ما كانت عليه قبل الفتح منها جباية الاموال وتوزيعها فقد بقي النظام الروماني مع تعديل مقادير ما يجبى لان الضرائب في عهد الرومان كانت متنوعة وثقيلة العبء على الناس وتفرض حتى على الاشياء التافهة أما العرب فقد بسطوها ففرضوا الجزية على الرءوس والخراج على الارض ونوعوا جزية الرءوس حسب المقدرة واعفوا منها من يجب اعفاؤهم كالنساء والعجزة وغيرهم

وقيل ان عمرو بن العاص جبى ١٢ مليون دينار في آخر سنة وليها حكم مصر منها ثلاثة ملايين دينار ضريبة الخراج وثمانية ملايين دينار جزية رءوس من القادرين على أدائها ومليون دينار ضرائب شتى وكان عدد سكان مصر حوالي الستة ملايين من الانفس

وقد شعر الاقباط بشيء من الراحة في ظل هذا النظام الذي روعي فيه حال الناس وحال الارض وُوقف كثيراً من التكاليف التي كانت مرهقة لهم في عهد الرومان

وقد قام عمرو بن العاص بتشييد كثير من المنشآت . منها انشاء مدينة الفسطاط التي اتخذها عاصمة للبلاد مستعيضاً بها عن الاسكندرية فلم تمض سنوات قليلة الآ واصبحت المدينة الجديدة زاهرة كل ما يجعل شأن العواصم كبيراً . ومنها تخطيط جامعهُ المشهور وهو الذي لايزال باقياً حتى اليوم .وتخطيط الجيزة وحفر القناة أو الخليج وأصبحت مصر بعد حفر الخليج الذي عرف

بخليج امير المؤمنين تمد بلاد العرب بالغلال بعد ان كانت تمد بيزنطة وروما كما انهُ قام باصلاح طرق الري في البلاد وكانت قد فسدت في أواخر الحكم البيزنطي. ويقال أن عمرو بن العاص كان يسخر اكثر من مائة الف عامل في كرى الخلجان والترع وتطهيرها بحيث اعاد طرق الري القديمة الى سابق عهدها وذلك لعمران البلاد وزيادة انتاجها

وكانت مصروفات الحكومة بمصر في عهد العرب منحصرة في ستة ابواب :

(١) ما كان الوالي يأخذه لنفسه بصفة مرتب

(٢) ما كان يخصصهُ للاعمال العمومية

(٣) ما كان يصرفهُ في عطيات اهل الديوان

(٤) ما كان يصرفهُ في ارزاق الكتبة

(٥) ما كان يسيره من القمح الى اهل الحجاز — لان اهل الحجاز بعد الاسلام اصبحوا كالشعب الروماني بعد الجمهورية ترد اليهم المؤونة من مختلف الاقاليم المفتتحة

(٦) وأخيراً ما كان يبعث بهِ الى خزينة الخليفة وكان يقابل ما عرف « بمال الجزية » في عهد السلاطين من بني عثمان

وعلى الرغم من ان الولاة الذين خلفوا عمرو بن العاص على زمام الامور في مصر ، ابتداء من عبد الله بن ابي السرح اخي عثمان بن عفان من الرضاع، وفي مدة الدولتين الاموية والعباسية كان رائد اكثرهم زيادة ثروتهم الشخصية وعلى الرغم من ان مصر في اواخر حكم عثمان بن عفان وفي مدة النزاع على الخلافة الذي قام بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان باتت مسرحاً للحروب والمنافسات الاهلية والدموية الا ان الرخاء والرفاهية بوجه عام استمرا سائدين في القطر المصري ولكن بتناقص مطرد حتى نهاية حكم المأمون

ويلاحظ ان مصر ابتدأت تتأثر بالثورة التي قامت في العالم الاسلامي في مدة المعتصم بانتقال امور الدولة من ايدي العرب والفرس الى ايدي الاتراك لان المعتصم استكثر منهم في الجيش والحرس وأنشأ لهم مدينة سامرا بحيث اننا نجد ان الامر كله اصبح في ايديهم بعد حكم المتوكل واذا رجعنا الى الولاة الذين ولوا مصر في زمن المعتصم نجد ان العنصر التركي يأخذ في الظهور شيئاً فشيئاً الى ان تأتي سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦م.) فنجد ان عصر الولاة العرب على مصر قد انتهى فقد كان عنبسة بن اسحق الضبي آخر من ولي مصر من العرب ولا يكاد يوجد بين الولاة خير منهُ فقد كان متواضعاً حريصاً على خدمة الرعية واقامة الشعائر الدينية وفي مدته استولى الرومان على دمياط وخربوها سنة ٨٥٣م . وتقدموا الى بلبيس وهمّ عنبسة للقائهم فلم يسعهم الا الفرار.

وفي السنة التالية أبى النوبيون دفع الجزية وغزا ملكهم « علي بابا » بلاد الصعيد بجيش كبير ونهب اسنا وادفو فاستعان عنبسة بالخليفة فهزم «علي بابا» بعد حرب طاحنة ورضي بدفع الجزية

وجاء بعد عنبسة ولاة من الترك جلهم جفاة لا عهد لهم بالحكم تفاقمت في ايامهم الثورات وعمت الفوضى ولم ينتشل البلاد من هذه الوهدة إلا احمد بن طولون

وقد كان الولاة العرب حكاماً فحسب . أما الولاة الترك فكانت لهم الصفة الاقطاعية كما نلاحظ أن معظم الامراء من الاتراك كانوا يقيمون في العاصمة العباسية وينيبون عنهم آخرين لحكم الأقاليم اذ انهم كانوا يفضلون الاقامة في العاصمة بغداد حيث يقيم الخليفة حتى لا يتمكن خصومهم من الدس لهم وعزلهم وكان الخليفة من احيته لا يتمنى رحيلهم حتى لا يشتد ساعدهم ويعملوا على الاستقلال بالاقاليم التي يحكمونها

تكوين الشعب المصري

نلاحظ في العصر الاول للفتح الاسلامي لمصر ظاهرة اندماج الفاتحين العرب في المصريين من أهل البلاد وحدوث تأثر متبادل بين الجنسين نتج عنهُ الشعب المصري الذي عرفتهُ العصور الوسطى

كان استيلاء العرب على مصر فاتحة لهجرات عربية متوالية دامت زمناً طويلا وقد كانت أضعف هذه الهجرات هجرة العرب او الجند الذين اتوا مع عمرو بن العاص عند فتح البلاد ولكن هجرة القبائل التي نزحت الى مصر بعد ذلك كانت اشد وأقوى . وقد روى المقريزي في خططه انهُ في خلافة هشام بن عبد الملك هاجرت بطون كثيرة الى مصر منها عرب القيسية ونزلت هذه البطون فيما سميه الحوف الشرقي وان ما نشاهده اليوم من كثرة العرب النازلين في شرقي الدلتا والمعروفين بعرب الشرقية لدليل قوي وبرهان ظاهر على حدوث هذه الهجرة كما نعلم كذلك من كتاب « البيان والاعراب فيما بأرض مصر من الاعراب » للمقريزي ان عرب الجزء الجنوبي من الشام هاجروا الى مصر ونزلوا في مصر السفلى وفي الصعيد وقد حصلت ايضاً في زمن الخليفة الفاطمي المستنصر هجرة عربية كبيرة الى مصر نقلت الدولة بعض بطونها الى الوجه القبلي لما قاموا بهِ من الثورات في ذلك الوقت وأشهرها قبيلة بني سليم وقبيلة بني هلال التي أرسلت بعد ذلك الى شمال افريقية عملا بمشورة لوزير «اليازوري» لاستمرارها في اثارة الشغب والقيام بالثورات ورغبة في الانتقام من بني زيري الذين شقوا عصا الطاعة على الفاطميين في افريقية (تونس) . وهذه الهجرات كان لها أثر كبير في انماء الروح العربية في مصر

كما نشاهد كذلك ان الأقباط وقد كانوا أكثرية في مبدأ الفتح ابتدأوا يستعربون ويدخلون في الدين الاسلامي لأن الدولة عربية ويحتلها العرب او من يتكلمون اللغة العربية ولأنهم رغبوا

في الفرار من الجزية وفي المنزلة الاجتماعية فهم أمام هذه المغريات وظروف المجتمع تعلموا اللغة العربية واعتنقوا الاسلام وكان من نتيجة ذلك تناقص الخراج المفروض على مصر فكتب « حيان بن شريح » عامل الخراج الى خليفة المسلمين « عمر بن عبد العزيز » يشكو اليه من تناقص الخراج لاقبال القبط على اعتناق الاسلام حتى اضطر الى ان يستدين مبلغاً من المال ليدفع به مرتبات الجند وطلب من الخليفة ألا يُعفى من دفع الجزية كل من يسلم من القبط. ولكن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهُ كتب اليه كتاباً شديداً لم يفره فيه على رأيه وعزله عن العمل، وقال « ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثهُ جابياً ». وقد كان الاقباط لايزالون قوة حتى أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث الهجري مع كثرة من دخل منهم في الاسلام وكانوا يقومون بالثورات من وقت لآخر. وكانت اشدها التي حدثت في زمن الخليفة المأمون فاضطره الامر الى الحضور بنفسه فأخمد الثورة ولم تقم للقبط قائمة بعد ذلك وأخذت أفواجهم تقبل أفواجاً على اعتناق الدين الاسلامي وعلى تعلم اللغة العربية فانحلت رابطتهم وقد بلغ من شدة مغالاتهم ان ادعى بعضهم النسب العربي. ولكن الرأي العام لم يفر هؤلاء على هذا الادعاء فعرضت قضيتهم على القاضي « العمري » الذي حكم بصحة ادعائهم من انهم عرب أصلاً فهاج الرأي العام واستؤنف الحكم أمام قاض آخر يدعى « البكري » فأفتى بأنهم ليسوا عرباً

كما ان استقرار العرب في الارض يزرعونها صبغهم بالصبغة المحلية البحتة بعد أن كانوا جنوداً طول العصر الأموي يأخذون الأعطيات. اما في عهد العباسيين فقد ضعف شأن العرب واعتزت الدولة بغيرهم من الفرس والاتراك. والى الخليفة المعتصم ينسب القضاء على نفوذ العرب فأسقطهم من الديوان ومنع أعطياتهم تبعاً لذلك وأحل محلهم العناصر الاخرى من الفرس والاتراك فدفعهم ذلك الى الاستقرار في الارض واحتراف الزراعة

كما انهُ بسبب انتشار اللغة العربية في البلاد واقبال الناس على تعلمها لم يأت القرن الثالث الهجري الا وظهر في مصر شعراء وأدباء فازدهرت الحركة العلمية وابتدأ من ذلك الحين ضعف اللغتين القبطية واليونانية ونسيانهما

فكانت النتيجة أنهُ لم يمض قرنان على دخول العرب في مصر الا وبدل المصريون دينهم ولغتهم وجنسيتهم واندمجوا اندماجاً كلياً في جسم الامة الفاتحة فأصبحوا جزءاً منها وحل منهم الاسلام وحلت منهم اللغة والجنسية العربيتان محل الروح من الجسد حتى انهُ عندما قامت الدولة الطولونية في منتصف القرن الثالث الهجري كانت في مصر امة اسلامية ساعد وجودها وروحها القومية على تحقيق اماني ابن طولون في الاستقلال بالبلاد

٣ — الدولة الطولونية في مصر

٢٥٤ هـ . — ٢٩٢ هـ (٨٦٨ م — ٩٠٥ م .)

نالت مصر على يد الطولونيين أول استقلال لها منذ انقضت أيام الفراعنة وقد سبقت مجيء الطولونيين فترة تأخر في شؤون مصر الاقتصادية فقد نقصت غلة الارض واستنفدت الحكومة مواردها بغير حكمة او روية فكان يرسل جانبٌ من الدخل الى بغداد ويدخل الجانب الباقي في جيوب الولاة من دون ان ينتفع منهُ الاقليم بشيءٍ لان معظم الولاة كانوا يعملون على الاثراء في اقل ما يمكن من الزمان لعلمهم انهم مهددون بالعزل في كل حين

وقد تغير هذا الحال بتأسيس اسرة مستقلة فبقيت موارد البلاد في داخلها وبمجرد ان استقل احمد بن طولون بشؤون البلاد لم يلبث ان احتفظ بثروتها وعمل على انمائها وثباتها

ويمثل احمد بن طولون مرحلة التنقلة في مصر من التبعية للدولة العباسية الى الاستقلال الذاتي

ولد احمد بن طولون بسر من رأى سنة ٢٢٠ هـ . (سنة ٨٣٥ م) وأبوه طولون من أصل تركي أهداه عامل بخارى الى الخليفة المأمون سنة ٨١٥ م . فنال الحظوة لديه وقد نشأ احمد نشأة طيبة وبرع في علوم اللغة والقرآن والشريعة وأولع بالتعليم العسكري الذي كان يربى عليهِ فتيان الاتراك في سر من رأى (سامرّا)

ولحسن حظه ان الامير « بقبق » الذي تزوج من ارملة طولون منح ولاية مصر واختار احمد نائباً عنهُ فيها فحضر اليها سنة ٨٦٨ م . وهو في الثالثة والثلاثين من عمره وكان ابو العباس احمد بن طولون قديراً خبيراً باختيار الرجال فلم يمضِ وقت طويل حتى أحس الناس نفوذه . وكان من اكبر المساعدين له كاتم سره احمد الواسطي

كان مرتقف ابن طولون محوطاً بالمصاعب الداخلية والخارجية . فاما الداخلية فدسائس « ابن المدبر » صاحب الخراج الذي أثرى بالاختلاس وابتزاز الاموال بمختلف الضرائب والمكوس . ثم قيام العلويين في غرب الاسكندرية وفي اسنا ومقاومتهم له مدة . ولم يغلل من حظ ابن طولون قتل الامير « بقبق » اذ ان الخليفة منح مصر للامير « برقوق » وهو حمو ابن طولون وهذا أطلق يده في مصر وضم اليهِ الاسكندرية وغيرها مما لم يكن داخلاً تحت نفوذه اولاً وما زال نفوذ ابن طولون يزداد حتى اقطعت مصر « للموفق » أخي الخليفة سنة ٨٧٢ م فمهد ابن طولون بهذا التغيير واسترضى الخليفة بالهدايا والتحف وصار في الواقع ملكاً مستقلاً في مصر لاسيما بعد ان تخلص من اكبر منافس له في البلاد وهو ابن المدبر الذي كان قد بقي صاحب الخراج مدة طويلة ثبت في اثنائه مركزه ولكنهُ قبل عن طيب خاطر مثل وظيفته في الشام خوفاً من بطش ابن طولون

ولما استقر الامر لاحمد ابن طولون وكثر جنده وحاشيته بنى لهم مدينة « القطائع » على جبل « يشكر » وجعل لكل طائفة من اتباعه قطيعة خاصة يقيمون بها وشاد لنفسه قصراً فخماً تحت قبة الهواء به حديقة غناء وميدان واسع. واما مسجده المعروف فلم يشرع في بنائه الا سنة ٨٧٦ م. واستغرق تشييده عامين كاملين . واهم ما يلاحظ فيه اقامة الاعمدة من الآجر لاول مرة بدل نقل اعمدة حجرية من الآثار القديمة وانهُ اول بناء استعمل فيه العقد المخموس الذي لم يستعمل في انجلترا الا بعد ذلك بقرنين من الزمن. وقد ألحق بالمسجد « مارستان » او مستشفى لمعالجة المرضى كما انهُ بنى العين او ما يعرف بمجرى ابن طولون بجهة الامام الشافعي

ولما عظمت نفقات ابن طولون على مبانيه وجيشه وحصونه وتضاعفت صلاته للعلماء وصدقاته على الفقراء لم يستطع ان يرسل شيئاً الى « الموفق » فأعدَّ هذا جيشاً لاخراج ابن طولون من مصر ولكنهُ لم يقدر على انفاذه لقلة المال . فتشجع ابن طولون وقد عزم على توسيع ملكه فانتهز فرصة موت « ماجور » والي الشام وساق جيشه اليها سنة ٨٧٨م بحجة ان الخليفة كان قد اذن له بالاستيلاء عليها قبل تولية « ماجور » ففتحت دمشق ابوابها وقدم رجال الدولة وأعيان البلاد خضوعهم له حتى صار ملكه يمتد من نهر الفرات الى رقة ومن جبال طوروس الى شلال اسوان

وبعد ان ترك ابن طولون حاميات في الرقة وحران ودمشق عاد الى مصر لان ابنه العباس الذي كان يحكم البلاد في غياب ابيه أراد ان يستقل بملكها فلما حضر ابوه التجأ العباس الى رقة وقاوم سنتين حتى هزم وقضى حياته سجيناً

وقد شجر الخلاف بين ابن طولون والموفق دون ان يظفر احدهما بالآخر. وكذلك شجر الخلاف بينهُ وبين الروم فانتصرت جيوش ابن طولون عليهم قرب طرسوس سنة ٨٨٣ م. وغنمت اموالاً طائلة . وقد اعياه الجهد فمرض وحمل على سرير الى مصر حيث لم يجده حذق الاطباء فمات في مايو سنة ٨٨٤ م . قبل ان يبلغ الخمسين

وكان احمد بن طولون كريماً شجاعاً تقيًّا خبيراً بأخلاق الرجال يشرف على اعمال الدولة بنفسه ويستطلع احوال رعيته ويقرب العلماء ويجزل لهم العطاء ويشجع الزراع ويؤمنهم على املاكهم وهو اول حاكم بعد الفتح الاسلامي انهض قوة مصر وجمل عاصمتها واتخذ له جيشاً قائماً

وقد خلف احمد بن طولون ابنهُ الثاني « ابو الجيش خمارويه » وكان في العشرين من عمره ميالاً للترف يجهل الحكومة والحروب فلا عجب ان تآمر اعداؤه مع نائبه في دمشق على ارجاع الشام الى حكم الخليفة ودخل « ابو العباس بن الموفق » دمشق وتقدم جنوباً حيث قابله خمارويه ومعهُ سبعون الف مقاتل عند « الطواحين » قرب الرملة فذعر خمارويه وفر بأكثر

جيشه الى مصر وثبت قائده « سعد الأعسر » مع بقية الجند فهزم الاعداء وابى الخضوع لسيده فنهض خمارويه وهزمهُ في دمشق سنة ٨٨٦ م.وطارد اعداءه الى «سامّرا» فولاه الخليفة مصر والشام ومنطقة الثغور على الحدود الرومانية لمدة ثلاثين سنة . وقد تشجع خمارويه فخاض عدة حروب ايدت مقدرته الحربية

ثم زوج ابنتهُ « قطر الندى » للخليفة المعتضد وتكلف في ذلك ما يقصر دونهُ الوصف من بناء القصور على طول الطريق من مصر الى بغداد لنزول العروس كل ليلة وقد اكثر من الجواهر والتحف الى غير ذلك مما دعا الى صرف الف الف دينار

وما زال خمارويه يسرف في البناء وانواع الترف حتى كادت موارد ثروته تنضب واهم ما قام بهِ توسيع قصر ابيه « بالقطائع » وتحويل الميدان حديقة غناء يتضوع منها عبير ازهار شتى صنعت بأشكال بديعة تغرد فوقها الاطيار التي اكثر من جمعها فيها . كذلك زين « بيتهُ الذهبي » بتماثيل منقوشة تمثله وزوجاته وقيانه. ولما كثر ارقه مائت له بركة من الزئبق يترجح عليهِ سريره وقد شد بخيوط من حرير الى عمد من الفضة

وقد حقد عليه بعض جواريه فأغرين بهِ من قتلهُ وهو في طريقه الى دمشق سنة ٨٩٦ م

وخلفهُ ابنهُ الاكبر « ابو العساكر » جيش وكان في الرابعة عشرة من عمره لا يفقه لمعانيهِ الخطير مغى منغمساً في لهوه فخرجت سوريا وما يليها عن طاعته وعمت الفوضى فروع الادارة ونفدت اموال الخزانة فعزله جنده بعد اشهر من اعتلائه العرش

وجاء بعده اناس ضعاف لم يحسنوا القيام بمهامّ الحكم وكانت البلاد على اكثر ما يكون من الاضطراب والفوضى وسوء الحال وأصبحت مهددة بغارة القرامطة فأرسل الخليفة المكتفي جيشاً هزمهم في بلاد الشام . ثم تابع الزحف بقيادة « محمد بن سليمان » القائد العباسي لاسترداد مصر لحكم الخلافة فدخل الفسطاط وفتك بالطولونيين وأحرقت القطائع وأبيدت جميع الآثار الطولونية ولم يستبق منها الا الجامع وبذلك عادت مصر الى حكم العباسيين مدة ثلاثين سنة من سنة ٢٩٢ هـ. — سنة ٣٢٣ هـ. (٩٠٥م. — ٩٣٥م.) حتى قامت الدولة الاخشيدية

***

والاسرة الطولونية استطاعت لأول مرة في تاريخ مصر الاسلامية ان تحكم مصر حكماً وراثياً مستقلاً وقد جاءت متوجة لحركة النضوج القومي التي ظهرت في مصر شيئاً فشيئاً وقد رفعت هذه الدولة مستوى المدنية المصرية بهذه المنشآت التي لم يقم مثلها من قبل حاكم اسلامي كما تعلق المصريون بهذه الدولة تعلقاً كبيراً

وقد كان جميع ولاة مصر من الأتراك في فترة الثلاثين سنة التي اعيدت فيها مصر الى حكم

الخلافة العباسية ، ساءت في عهدهم احوال البلاد بعد صلاحها وفي هذه الفترة تعرضت مصر لخطرين شديدين احدهما في الغرب حيث قامت الدعوة الفاطمية. والآخر في الشرق وهم القرامطة اولاد عم الفواطم في المذهب والدعوة

فهذان الخطران كانا يهددانها وكادا يقضيان عليها لولا ظهور رجل قوي استطاع ان يقيها شرهما مدة ثلاثين سنة اخرى وهو الاخشيد

وليس ادل على ضعف الخلفاء العباسيين وولاتهم في مصر ورغبة المصريين في التخلص منهم من تمكن « محمد الخالنجي » — وهو شاب من عامة الناس — من جمع عدد صغير من المصريين في فلسطين سنة ٩٠٥ م . واعادة الخطبة للطولونيين هناك ثم دخول مصر وحكمه اياها ثمانية اشهر باسم الطولونيين

٤ — الدولة الاخشيدية في مصر

٣٢٣هـ — ٣٥٨هـ (٩٣٥ — ٩٦٩م.)

الاخشيد لقب ملوك « فرغانة » السابقين . « ومحمد بن طغج » مؤسس الدولة الاخشيدية في مصر من سلالة هؤلاء الملوك .كان جده ضابطاً في جيش المعتصم وخدم ابوه مدة في جيش خمارويه . وكان محمد الاخشيد قوي الساعدين لا يمدر رجل آخر ان ينزع عن قوسه وكان قائداً حذراً يفضل السلم على المغامرة في الحروب وبدخوله مصر عاد اليها الامن والسكينة ولم يجرؤ احد على الثورة في وجه جيش الاخشيد وفيه اربعون الف مقاتل

وقد اختلفت الحالة العامة في ذلك الوقت عما كانت عليه في عهد الطولونيين فقد تدهورت الخلافة بحيث لم يبق للخليفة سلطان وكان الامر في يد الاتراك وتمزقت الدولة فكان « بنو بويه » يحكمون في فارس والسامانيون فيما وراء النهر والحمدانيون في اعلى الجزيرة والشام اي الموصل وحلب والاخشيديون في مصر وكان المغرب في يد الفواطم وشرقي بلاد العرب في يد القرامطة والاندلس في يد عبد الرحمن الناصر

وبينما الاخشيد هادىء في ملكه اذ انقض « ابن رائق » على حمص ودمشق فقاتله المصريون وتم الصلح على ان تكون سوريا شمالي « الرملة » لابن رائق وجنوبها للاخشيد يدفع عنهُ جزية سنوية ولما مات ابن رائق اخذ الاخشيد سوريا كلها بغير قتال وأضاف اليه الخليفة مكة والمدينة ثم جعل مصر لهُ ولابنائه مدة ثلاثين سنة فاخذ الاخشيد لابنه البيعة من قواد الجند ووجوه الاعيان

ثم اغار سيف الدولة الحمداني على دمشق وهزم الجيوش المصرية بقيادة كافور فخرج اليه

الاخشيد ومزق جيشهُ كل ممزق في واقعة «قنسرين» ودخل حلب ودمشق ولـكنهُ مع ذلك تنازل عن حلب وشمال سوريا لسيف الدولة حبًّا في مسالمتهِ ومات الاخشيد بدمشق سنة ٩٤٦ م. ودفن بيبت المقدس

ويذكر الاخشيد باعادة الأمن الى نصابه وبجعل حكمهِ وراثيًّا وان كان لمدة محدودة مما ادى الى استقلال مصر استقلالاً فعليًّا فاصبحت تجبي اليها ثمرات سوريا وغيرها من البلاد التابعة لها

وتولى بعد الاخشيد ابناه « ابو القاسم » انجور (٩٤٦ — ٩٦١ م .) وابو الحسن علي (٩٦١ — ٩٦٥) ولـكنهما لم تتح لهما فرصة لاظهار مقدرتهما اذ كانا تحت وصاية « كافور » حاكم مصر الحقيقي

كان ابو المسك كافور عبداً حبشيًّا اشتراه الاخشيد بثمن بخس وولاه قيادة الجيوش ثم نصبهُ استاذاً لاولاده وقد نجح كافور بعد حروب مع الحمدانيين في مد املاك مصر الى حدود الاناضول واحاط نفسه بالشعراء والعلماء واشتهر ببذل الهبات

ولما مات ابو الحسن علي الاخشيد سنة ٩٦٥ م . اعتلى العرش كافور ومنحهُ الخليفة لقب استاذ فبقي يدير شئون مصر في بذخ وتنعم حتى مات سنة ٩٦٨ م . بعد أن حكم مصر اثنتين وعشرين سنة . وقد كان يسود البلاد في عهـد كافور النظام الاقطاعي بمعنى ان كل مديرية عليها رجل قوي يضمنها للوالي ويستدل على شيوع هذا النظام من شعر المتنبي واقطاع اقليم الفيوم الى رجل يدعى « ابو شجاع فاتك »

وعند موت كافور اجتمع رجال البلاط وانتخبوا — من تلقاء انفسهم ومن دون رجوع لامر الخليفة العباسي — من بني الاخشيد ملكاً لمصر وممتلكاتها كما انتخبوا ولي عهد له الا انهما لم يضطلعا باعباء الحـكم فتطلع «المعز» رابع الخلفاء الفاطميين الى ضم مصر الى املاكه فلم تمض سنة على موت كافور حتى دخل الجيش الفاطمي الفسطاط سنة ٩٦٩ م. وانفصلت مصر عن بغداد نهائيًّا

ولم تخلف الدولة الاخشيدية آثاراً بعكس الدولة الطولونية وانما يقال ان الاخشيد كان ينزل ما يسمى البستان الكافوري وموقعه عند النحاسين ومساحته ستة وثلاثون فداناً كما كان له قصر في جزيرة الروضة

ويلاحظ ان في اواخر ايام هذه الدولة ساءت احوال البلاد سياسيًّا واقتصاديًّا فلم تكن هناك يد قوية تمسك بزمام الامور كما وقعت في البلاد ازمة اقتصادية بسبب انخفاض ماء النيل الذى بدأ سنة ٣٥١ هـ . وما تلاه من قحط ووباء فني به خلق كثير . وقد ظل هذا الانخفاض تسع سنين حتى عام ٣٦٠ هـ . ويحدثنا المقريزي بما كان متوقعاً وهو ان القحط اعقبهُ الوباء ففشا الموت بسببه حتى عجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم فاضطروا الى القاء جثث موتاهم في النيل ولما

اشتد الغلاء وندر وجود القمح أغار الاشرار على المزارع والحقول وعم السلب والنهب

ومما زاد هذا البلاء الذي انصب على البلاد عجز كافور عن صد القرامطة الذين اغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ ونهبوا حجاج مصر في طريقهم الى مكة سنة ٣٥٥ هـ. ثم عدم قدرته على الدفاع عن البلاد حين غزاها ملك النوبة حتى نهب البلاد الجنوبية فوصل الى أخميم وعاد الى بلاده محملاً بالاسلاب والغنائم يضاف الى ما تقدم ما كان من عجز كافور ايضاً عن دفع رواتب حرسه وارزاقهم فثاروا عليه

لهذا لا نعجب اذا عجزت البلاد عن صد هجمات المغيرين وكانت هذه الحال فرصة سانحة انتهزها الخليفة الفاطمي لغزو مصر ولم تكن بغداد في ذلك الوقت قادرة على ان ترسل جيشاً لصد الفاطميين عن البلاد

٥ — الدولة الفاطمية في مصر

٣٥٨ هـ . — ٥٦٧ هـ . (٩٦٩ — ١١٧١ م .)

لما استقر حكم الفاطميين في شمال افريقية فكروا في امتلاك مصر إذ رأوا فيها مكاناً صالحاً لنشر دعوتهم فقد كان استيلاؤهم عليها معناه بسط نفوذهم على الشام والحجاز وكانتا تحت حكم مصر . يضاف الى هذا ان الحالة الداخلية في مصر وفي الدولة العباسية التي كانت هدفاً للغارات من الشرق ومن البيزنطيين في الغرب جعلت فتح مصر امراً ميسوراً

شرع المعز في حفر الآبار على طول الطريق من «القيروان» عاصمة ملكه في شمال افريقية الى الاسكندرية وفي تخزين المؤن والذخائر وسار جوهر القائد من القيروان في فبراير سنة ٩٦٩م. بمائة الف جندي فلما وصل الى الاسكندرية طلب السكان منه الامان فأمنهم وتقدم الى الفسطاط فاستولى عليها بعد مقاومة يسيرة ولم يبت ليلته حتى وضع اساس القاهرة حيث شيد قصرين عظيمين أحدهما قصر الخليفة الخاص والآخر كان بمنزلة متنزه يطل على حديقة كافور بينهما ميدان لاستعراض الجند يعرف باسم «ما بين القصرين». وكان الخليفة يمر من احد القصرين الى الآخر بطريق تحت الارض خشية ان تكثر رؤية الناس له فيستهينوا به . وقد بالغ المؤرخون في وصف هذين القصرين مبالغة عظيمة وبنى « الجامع الازهر » كذلك (٩٧٠ — ٩٧ م .) ليصلي فيه الخليفة بالناس يوم الجمعة ولنشر التعاليم الفاطمية

ثم التفت الى اعادة السكينة وتخفيف وطأة القحط بما ارسله المعز من الحبوب وبإلزام جميع التجار ان يبيعوا حبوبهم بأثمان معتدلة امام المحتسب (مندوب الحكومة في السوق) ولضمان

العدالة جعل حكم كل جهة بيد حاكم مصري وآخر مغربي . وما لبثت بلاد النوبة أن قبلت أن تدفع لهُ الجزية المعتادة وخطب لهُ الحمدانيون في شمال الشام وأخضع جنوب الشام وطرد منهُ جيش الاخشيد

وعند ذلك ألح جوهر على سيده أن يبادر بالحضور الى عاصمته الجديدة فحضر اليها بأهله وولده بل ورفات اسلافه ودخلها في مايو سنة ٩٧٣ م . فاستقبله أهل البلاد بالترحاب وأعجبهم كرمه وبلاغته

وبحضور المعز صارت لمصر السيادة — لا على بلاد النوبة وجنوب الشام فقط — بل على الحجاز وبلاد المغرب نفسها اذ كانت مركز دولة الفاطميين وقلبها النابض منها تصدر الاوامر الى انحاء الدولة وتدبر شئونها ومنها يذهب الحكام الى بقية البلاد

وقد انتفع المعز بثغور مصر لتعزيز اسطوله فأقام حوضاً في المقس — ثغر القاهرة قبل بولاق — وبنى ستمائة سفينة وهو أكبر أسطول رأته مصر منذ الفتح الاسلامي واستبقى الجيش في كفاية حربية عظيمة وعني بالنيل والري والزراعة والقضاء

وفي آخر حكمه غزا « القرامطة » مصر ووصلوا الى عين شمس سنة ٩٧٤ م . وانتشروا في جميع انحاء القطر يفسدون ويخربون ثم حاصروا القاهرة وكادوا يستولون عليها لولا ان عمد الخليفة الى تقديم مبلغ كبير من الذهب الزائف الى شيخ بني طي أكبر حليف للقرامطة فتخاذل في الموقعة التالية واستطاع المعز ان يطارد القرامطة الى سوريا ومات سنة ٩٧٥ م. في السادسة والاربعين من عمره وقد ترك لمصر دولة مترامية الاطراف لم يقو خلفاؤها على الاحتفاظ بها كاملة بل استقلت عنهم افريقية سنة ١٠٤٦ م . وضعف نفوذهم في سوريا التي كانت مهداً للقلاقل ولم يخضع لهم عن طيب خاطر الا الحجاز رغم ما كان لهم من قوة برية وبحرية اذ اتخذوا جنوداً من البربر وآخرين من الترك وغيرهم من السودان

خلف العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦ م .) اباه وكان حسن الطلعة قائداً جريئاً ميالا للتسامح حتى مع اعدائه وقد استوزر في أول حكمه « يعقوب بن كلس » وهو يهودي اعتنق الاسلام وبقي متربعاً في كرسي الوزارة نحو خمسة عشر عاماً وكذلك استوزر « عيسى بن نسطريوس » وبفضل هذين الوزيرين امتلأت الخزانة وانتشرت السكينة في ربوع البلاد ولكنهما كانا يحبان جمع المال ويؤثران مظاهر العظمة والأبهة ولا يقلان عن سيدهما في حب التحف النادرة والملابس الفاخرة والاحجار الكريمة وغيرها من لوازم الترف والثروة التي جعلت مصر في عهد الفاطميين مضرب الامثال

واهم من هذا آثار العمارة والهندسة وتنظيم الحكومة في عهده فقد بني الجامع المعروف بجامع

الحاكم (لأن الحاكم هو الذي اتمهُ) وحفر ترعاً عديدة وشيد القناطر والحياض

والعزيز أول من نظم الحفلات الرسمية كما أنهُ أول من أدخل مماليك الترك في جيش مصر فكانوا وبالاً عليها ويعتبر العزيز احزم خلفاء الفاطميين وارشدهم . ولسوء حظ مصر لم يعقب العزيز الا ابناً واحداً من ام مسيحية هو الحاكم بأمر الله (٩٩٦ — ١٠٢١ م .)

تولى الحاكم في سن الحادية عشرة وكان أبوه قد عين « بيرجوان » استاذاً له أي وصيًّا عليهِ وأسندت قيادة الجند الى « ابن عمار المغربي » ولقب امين الدولة وأصبح في الواقع نائباً عن الخليفة ففضل ابناء جلدته وأعانهم على الجند الاتراك الذين جلبهم العزيز فكثر الشجار بين الطرفين في الطرقات وشاع نهب المتاجر وانتهى الامر بفوز الترك وقتل ابن عمار وأصبح الامر بيد « بيرجوان » ولكنهُ ترك حبل الامور على غاربها فبدأ « الحاكم » يباشر الادارة بنفسه وظهر ميله لسفك الدماء فقتل « بيرجوان » وتجلى شذوذه لرعيته في عدة اوامر خارقة للعادة منها قفل الحوانيت نهاراً ولزوم فتحها وفتح المنازل واضاءتها ليلاً وتحريم صنع احذية للنساء حتى لايستطعنَ الخروج من منازلهنَّ وقطع الكروم ومنع الناس من اكل الزبيب والملوخية والعسل

وبعد ان قضى عشر سنين من حكمه دون ان يتدخل في الامور الدينية لغير المسلمين رجع عن سياسة التسامح واخذ يضيق على المسيحيين واليهود في حين انه كان يختار منهم اعاظم رجال دولته . ثم تمادى في سفك الدماء حتى كان وزراؤه وقواده لا يثقون باستقرار رؤوسهم على اجسادهم مهما جلت خدماتهم له

وفي عهده توالت ثلاث سنوات مجدبة ساءت فيها حال البلاد حتى طمع في غزوها «ابو ركوة» وهو من الاسرة المالكة في الاندلس فر منها وأقام نفسه خليفة في المغرب ثم غزا برقة ومصر ونزل بالجيزة وعسكر قرب الاهرام ولم تتغلب عليهِ جيوش الحاكم الا بعد مطاردته الى النوبة وبعد جهد كبير . ومن اهم آثار الحاكم اتمام الجامع المسمى باسمهِ وهو الذي بدأه العزيز قرب باب النصر وتشييد « دار العلم » او « دار الحكمة » لنشر مذهب الشيعة خاصة وتشجيع العلوم عامة وكانت دار العلم قصراً فخماً بها مكتبة كبيرة مباحة للخاص والعام يقصدها العلماء من الاقطار النائية

وخيل الى الحاكم انهُ إله جدير بالعبادة وساعده دعاة أتوا من الغرب ومن الفرس واشهرهم « درازي » الذي اسس مذهب « الدروز » في لبنان على اعتقاد الوهية الحاكم وقد اثارت دعوته هذه ثائرة المسلمين ووقعت البلاد في محنة كبيرة ووقف دولاب العمل في كل مكان وخرج عليهِ الجند الترك والمغاربة وانضمت اليهم اخت الحاكم « سيدة الملك » فهزموا الجنود السودانية التي كانت تحميه وقتل الحاكم وهو يجول في الصحراء ولم يعثر له على أثر . ولا يزال الدروز يعتقدون انهُ سيعود بعد اختفائهِ فيصلح العالم

وخلفهُ ابنهُ الظاهر (١٠٢١ — ١٠٣٦م) وكان في السادسة عشرة من عمره فقامت باعباء الحكم عمته « سيدة الملك » فلما ادركها الموت التف حول الخليفة ثلاثة شيوخ أقصوا عنهُ كل ناصح أمين وأهملوا الرعية. وجاء على أثر ذلك انخفاض النيل فعم الكرب واشتد الغلاء وأصبحت الحرب في الطرقات سجالاً بين الجنود والاهالي . كل ذلك والخليفة منغمس في ملذاته عاكف على لهوه وقسوته

ولما مات بالطاعون خلفهُ ابنهُ المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) وعمره سبع سنين وكانت مصر قد فقدت كل ممتلكاتها تقريباً وخرج بنو زيري في المغرب الادنى على الفاطميين واستقلوا بحكم افريقية فأوعز اليازوري وزير المستنصر الى عرب بني هلال وبني سليم بالرحيل اليها انتقاماً من بني زيري ففعلوا ذلك وعاثوا فساداً في تلك البلاد

أما بلاد العرب فلم يكن جل نفوذ الفاطميين فيها بجهودهم أنفسهم بل بقيام دعاة لمذهب الشيعة ملكوا الحجاز واليمن سنة ١٠٦٣م واعلنوا حق الفاطميين المقدس في الخلافة

وقد تولى الوزارة في اول حكم المستنصر كثيرون من دون أن يتمكن احدهم من الاحتفاظ بمقامه طويلاً حتى تربع في دستها رجل عصامي يسمى « اليازوري » (١٠٥٠ — ١٠٥٨ م) اراد اصلاح حال الفلاح وزيادة الايراد فحرم على المرابين شراء المحصولات من الفلاحين قبل حصادها بثمن بخس وادخر القمح اتقاء القحط ولكنهُ مع ذلك لم يفلح لسوء الحالة العامة . وكان اليازوري محبًّا للفنون مشجعاً للعلماء ومات مسموماً سنة ١٠٥٨ م

وبموت اليازوري تعاقب وزراء كثيرون لم يستقروا في الحكم إلاَّ قليلاً لضعف الخليفة وتآمر من حوله من حاشية وجيش حتى عمت شكوى الرعية من كثرة التغيير والتبديل في موظفي الحكومة المسؤولين . وزاد الطين بلة ان اشتد النزاع بين الجند السودانية والاتراك وتغلب الترك وطردوا اعداءهم إلى الوجه القبلي فأصبح الصعيد كله في قبضة السودانيين . واستولى الترك وحلفاؤهم البربر بزعامة « ناصر الدولة ابن حمدان » على الوجه البحري وخربوه وتوالى القحط سبع سنين لغاية سنة ١٠٧٢ م . حتى بيع الرغيف بخمسة عشر ديناراً واكل الناس الخيل والحمير والكلاب والقطط حتى اتوا على آخرها ثم انقلبوا يأكل بعضهم بعضاً وصار لحم الآدمي يباع في الاسواق

ولما فنيت ثروة المستنصر — وكانت ثروة لم يسمع بمثلها — نهب الجند الاتراك قصره ونفائسه وبددوا المكتبة الكبرى وكان فيها ما يربي على مائة الف كتاب من انفس الكتب في جميع العلوم التي عرفها العرب

وقد ضاق الخليفة ذرعاً بمساوىء الجند ولا سيما الترك منهم فاستقدم « بدر الجمالي » حاكم

عكا — وكان اول امره مملوكاً ارمنيّاً ارتقى في سلك الوظائف الكبرى حتى عين حاكماً لجهات عدة — فحضر بجنده وامرهم بأغتيال زعماء الترك في ليلة واحدة فاستراح العباد من شرهم سنة ١٠٧٣ م . ونزل بدر الجمالي بشارع بين جوان واطلق الخليفة يده في جميع الامور فأخذ يعيد لقصر الخليفة كل ما عثر عليه من نفائسه السالفة ثم فتح البلاد من جديد وأنقذ الدلتا من يد البربر والصعيد من يد السودانية فاطمأن الفلاحون تحت حكمه العادل وعادوا لفلح ارضهم فكانت العشرون السنة الاخيرة من حكم المستنصر عهد امن ورخاء وقد بنى « بدر الجمالي » سوراً حول القاهرة وازال الابواب القديمة وبنى باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة في مواقع مختلفة من السور كما ترى الآن — بناها على نمط الحصون البيزنطية لما علم من مناعتها

ومات بدر الجمالي في ربيع ١٠٩٤ في الثمانين من عمره وخلفهُ في الوزارة ابنهُ الافضل شاهنشاه ومات المستنصر في السنة نفسها ثم لم يعد للخلفاء الفاطميين حول ولا قوة وأصبح الحكم في مصر بيد وزراء متنازعين يريد كل منهم ان يصرف الامور كما يهوى لا يتقيد برغبة الخليفة ولذا أهملت طريقة الوراثة في الخلافة وصار كل وزير يختار من بين سلالة الفاطميين أصغرهم سنّاً أو أضعفهم ارادة ليقيمهُ على عرش الخلفاء كلما خلا

خلف بدر الجمالي ابنه الافضل شاهنشاه فسار سيرة ابيه في العدل والحزم فاستمرت الطأنينة والرخاء . وكان شغله الشاغل اتقاء الخطر الذي يهدد مصر من جانب الشرق حيث نزلت الحملة الصليبية الاولى في سوريا وشرعت تنتزعها من يد السلاجقة والمصريين على السواء. وكانت سوريا بوجه عام تابعة لمصر من ايام ابن طولون لم تشذّ عن حكمها الا في فترات يسيرة. فلما استولى الصليبيون على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ من الجنود المصرية وتوغلوا في جنوب فلسطين حاول « الافضل » ان يصد غاراتهم فهاجمهم مراراً دون جدوى حتى تشجع « بلدوين » ملك بيت المقدس ودخل الحدود المصرية سنة ١١١٧ م . وأحرق « الفرما » وتقدم الى « تنيس » ولم يرجعهُ عن فتح مصر كلها الا مرضه . ومن ذلك الوقت التزمت مصر خطة الدفاع عن نفسها وقتل « الافضل » بايعاز من الخليفة سنة ١١٢١ وبقيت مصر بعده في فوضى لا تكاد سلطة الحكومة تمتد خارج قصر الخليفة حتى تولى الوزارة « طلائع بن رزيق » بلقب الملك الصالح سنة ١١٥٤ فضرب بيد من حديد على زعماء الفوضى وعاقب المجرمين وكانت مصر شديدة الحاجة الى رجل قوي مثله بعد ان فقدت عسقلان في السنة السالفة. وكانت عسقلان آخر حصن في فلسطين في يد المصريين يتطلع ملوك بيت المقدس الى الاستيلاء عليه وتدافع عنه مصر بكل جهدها

فلما استولى ملك بيت المقدس على عسقلان لم يبق امامه ما يمنعه من غزو مصر اللهم الا خوفه من ان ينقضّ السلطان « نور الدين محمود » صاحب حلب على مملكته اثناء تغيبه بمصر

لاسيا حين دخلت دمشق في حوزة نور الدين سنة ١١٥٤ بعد ان كان أميرها حليف الصليبيين ومن ذلك الوقت تطلع كل من سلطان حلب وملك بيت المقدس الى منع الآخر من امتلاك مصر وقد بذل « طلائع » كل ما في وسعهِ لمحالفة نور الدين بقصد طرد الصليبيين من سوريا ولكن نور الدين لم يبت في الأمر فصرف طلائع همته الى توطيد دعائم الأمن في مصر نفسها حيث عرف بقوة العارضة والكرم واستماع شكايات الرعية على اختلاف طبقاتها ومد يد المعونة الى ذوي الفطنة والعلم

ولما قتل طلائع بدسائس القصر خلفه ابنه « العادل رزيق » ولم تأت سنة ١١٦٣ حتى تغلب عليهِ « شاور » وقتله الاّ ان شاور لم يتم سنة في الوزارة حتى نازعهُ فيها « ضرغام » حاجب الخليفة ففر شاور الى نور الدين واستنجد بهِ وتعهد ان يقوم بجميع تكاليف الحملة اللازمة لعزل ضرغام من الوزارة ويدفع ثلث ايراد مصر جزية سنوية لنور الدين

أما ضرغام فلم يجد بدًّا من الاستعانة « بأموري » ملك بيت المقدس فلما حضر هذا الى مصر اضطر نور الدين الى ارسال حملة بقيادة « أسد الدين شيركوه » تغلبت على ضرغام والصليبيين ونصبت شاور وزيراً بمصر ثم قتل شاور وتولى الوزارة شيركوه ولكنهُ لم يمكث أكثر من شهرين ثم توفي فخلفه في الوزارة ابن أخيهِ « صلاح الدين » فكف يد الخليفة العاضد عن شؤون الملك بالتدريج حتى لم يعد لهُ من الامر شيء ثم قطع الخطبة للعاضد وهو مريض ودعا للمستضيء العباسي خليفة بغداد ومات العاضد سنة ٥٦٧ هـ . (١١٧١م.) وبموتهِ انقرضت الدولة الفاطمية واستولى صلاح الدين على مصر مع تابعيته للخليفة العباسي ببغداد اولاً ولنور الدين ثانياً تابعية اسمية

وقد كانت دولة الفاطميين من اعظم دول الاسلام ملكاً وأرقاها حضارة وأدباً وأنبلها ترفاً ومتعاً وكان تأنقهم بجمع التحف والذخائر من آنية الذهب والفضة والاحجار الكريمة لم يسمع بمثله في الدول الاسلامية . وقد تقدمت في زمانهم الصناعة العربية من الصياغة والحياكة والتطريز والعمارة والزخرفة تقدماً بقي أثره الى الآن وما زالت دور الآثار في مصر وبأنحاء العالم مملوءة بأحسن النماذج الدالة على تفوقهم في ذلك

ولدولتهم أعظم شأن في تاريخ مصر اذ كان لها تأثير في صبغ البلاد بصبغة لاتزال باقية الى اليوم فهم الذين احدثوا في مصر كثيراً من المواسم والاعياد والحفلات الوطنية مثل موسم اول العام ويوم عاشوراء ومولد النبي صلى الله عليهِ وسلم ومولد الحسين رضي الله عنهُ وفتح الخليج ووفاء النيل وغيرها وقد نجح الفاطميون في تأسيس امبراطورية شاسعة الارجاء وحضارة باهرة لم يعرفها الشرق من قبل الا نادراً تلك الحضارة التي اشتهرت بنظمها الادارية المحكمة وفنونها وجيوشها وأساطيلها وعدالة محاكمها وتسامحها الديني وأهم من هذا كله ما عرفت بهِ من تشجيع العلم والثقافة

اما من الناحية الدينية فقد أثار ادعاؤهم انهم يتصفون بالصفات الالهية سخط رعاياهم السنيين . أما بذخهم واسرافهم في الاحتفال بالاعياد الدينية وغيرها وولائمهم الفاخرة واعطياتهم وهباتهم وما الى ذلك فلم ينجح الاّ في التأثير في الجماهير الذين بهرتهم هذه المظاهر الخلابة والقليل من الناس الذين افادوا لانفسهم فوائد مادية من ورائهم

وطالما كانت تثور ثائرة السنيين اذا ما اراد الفاطميون أن يلزموهم اعتناق عقائدهم البغيضة لديهم لان هذه العقائد قلما صادفت هوى في القلوب ومع هذا نرى بعض السنيين قد اعتنقوا تلك العقائد إما لمصالح خاصة واما فراراً من حنق الفاطميين ونقمتهم

وبعد فقد كان من بين العوامل التي أسرعت في سقوط الفاطميين انقسام الاسماعيليين انفسهم إلى فرق واحزاب كما كان لظهور هذه الفرق الاسماعيلية كالدروز والحشاشين أثراً سيئاً في الحضارة الاسلامية وتقدمها

وان زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الايوبيين السنيين الغلاة وارجاع الخطبة للخليفة العباسي بعد ان قطعت في مصر كسائر الولايات الفاطمية الاخرى مدة قرنين وثماني سنوات تقريباً هو انتصار السنة على الشيعة

الدولة الايوبية في مصر

٥٦٧ هـ . — ٦٤٨ هـ . (١١٧١ م . — ١٢٥٠ م .)

لما تم الامر لصلاح الدين أخذ يحصن مصر ليأمن شر الاعداء فعزم على بناء سور عظيم يضم الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة وتشييد قلعة منيعة على جبل المقطم تشرف على الجميع وارسل عدة جيوش الى البلاد المجاورة لمصر قيل كان الغرض منها حفظ مكان تتراجع اليه جيوشه اذا طاردها الصليبيون او نور الدين نفسه — وقد كان صلاح الدين لم يبق لنور الدين عليه سوى سيادة اسمية فخنق عليه هذا — ووجه صلاح الدين احد هذه الجيوش الى شمال افريقيا والثاني الى السودان والثالث الى بلاد العرب حيث اخضع اخوه جميع بلاد اليمن وأسس دولة حكمت هنالك نحو خمس وخمسين سنة

وفي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م.) مات « نور الدين » فخلا الجو لصلاح الدين وعمد الى بسط نفوذه على جميع الممالك الاسلامية وتكوين دولة واحدة عظيمة منها تعمل على استئصال شأفة الصليبيين في الشرق فانتهز فرصة وفاة نور الدين وتركه الملك لصبي صغير فذهب الى دمشق وملكها وانتصر على من ناوأه العداء من امراء المسلمين حتى اعترف له بالسيادة على جميع الشام من مصر الى قرب الفرات

ثم قضى صلاح الدين ست سنوات في ضبط نظام املاكه ومواصلة تحصين القاهرة فبدأ في سنة ٥٧٣ هـ. (١١٧٧م.) بناء القلعة وبنى فيها قصراً لسكناه وحفر فيها بئراً عميقة تعرف الآن ببئر يوسف« الحلزون » ولم يتم بناء القلعة الا بعد موته وقد عدّل بناؤها وزيد عليه بعد ايامه مراراً حتى صارت الى شكلها الحالي في عهد محمد علي باشا رأس الاسرة المحمدية العلوية

وبذل صلاح الدين عنايته ايضاً باصلاح اعمال الري ونموه وأكثر من انشاء المدارس لنشر مذهب الامام الشافعي ومحو مذهب الشيعة بمصر

وما زال يعمل على توحيد كلمة الاسلام وبسط نفوذه على أهله حتى ضم الى دولته شمالي العراق وبلاد الكردستان وصار أمراء المسلمين من كل جانب رهن اشارته

وعند ذلك تفرغ للاستعداد لمحاربة الصليبيين فنشبت الحرب بينهُ وبينهم سنة ٥٨٣ هـ. (١١٨٧ م.) ودامت خمس سنوات وانتصر عليهم وعند نهاية حروبه هذه كانت لهُ الكلمة العليا في الشام فبعد ان كان المسلمونَ لا يملكون شبراً من الارض غربي نهر الاردن أصبحوا يملكون جميع البلاد عدا ساحل ضيق يمتد بين صور ويافا

وقد نهكت الحروب المستمرة صحة صلاح الدين فأصيب بحمى وتوفي بدمشق عام ٥٨٩هـ. (١١٩٣ م) ويعتبر صلاح الدين من أعظم رجال التاريخ فقد كان قائداً عظيما وسائساً محنكاً جمع بين الشجاعة والمروءة وعلو الهمة والشدة والتواضع والتقوى والزهد والورع والعدل والرحمة وكان الفرنج يعجبون بأخلاقهِ ويعدونهُ مثال الشهامة الشرقية

ولما توفي صلاح الدين قسمت أملاكه الشاسعة الاطراف بين أولاده وأخيهِ العادل وبين اخوته ووقعت بينهم منازعات وحروب الى ان استولى على مصر أخو صلاح الدين الملك «العادل» ابو بكر سنة ٥٩٦ هـ. (١٢٠٠ م.) فدانت لهُ معظم دولة صلاح الدين وصارت مصر صاحبة الشأن الأكبر في هذه الدولة ولم يفتر العادل بعد ذلك عن جمع كلمة المسلمين ليستعين بهم على استئصال شأفة الصليبيين

وفي سنة ٦١٤ هـ. (١٢١٨ م.) نهض الصليبيون نهضة جديدة وبدا لهم ان يحولوا رحى الحرب في مصر قلب الدولة الاسلامية فقصدوا دمياط فملكوها بعد قتال شديد وكان العادل في الشام فمات اثناء رجوعه كمداً عليها

ثم تولى ابنه « الكامل » من سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨) فعمل على طرد الصليبيين من دمياط ولما ان وصلت اليهم امداد جديدة عرض عليهم الصلح على ان يرد اليهم بيت المقدس نظير جلائهم عن دمياط فرفضوا هذا البدل وشرعوا في الزحف على القاهرة فأطلق عليهم المصريون

مياه النيل بالقرب من المنصورة ثم انقضوا عليهم من كل جانب ولـكن الـكامل أمر بتخلية سبيلهم بعد ان عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويجلوا عن الديار المصرية

وكان الـكامل يخشى زيادة قوة اقاربه في الممالك الاسلامية الاخرى فاتحد مع احد ملوك الصليبيين على أن ينزل له عن بيت المقدس نظير مساعدته للكامل على رد كل مهاجم ولو كان مسيحيًا وبمهادنته للمسيحيين وحد قواه لانتزاع املاك اقاربه حتى تمت له السيادة على جميعها ومات سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م .)

خلفهُ ابنه «العادل الثاني» فشغل باللهو عن التدبير فانكر الامراء ذلك عليه وخلعوه بعد سنتين تولى اخوه « الملك الصالح »نجم الدين ايوب سنة ٦٣٧ هـ . (١٢٣٩ م .) فكان من خيرة السلاطين ومن مآثره انهُ انتصر على الصليبيين وانتزع منهم بيت المقدس سنة ٦٤٢ هـ.(١٢٤٤م.). ومن اعماله انهُ بنى قلعة الروضة بجزيرة الروضة الآن انهُ حشد فيها المماليك من الترك وبالغ في شرائهم فكان ذلك من اكبر غلطاته فانهم سلبوا الملك من اولاده كما سلبوه من اولاد المعتصم العباسي

وفي آخر عهده نزل الصليبيون في اكثر من مائة الف الى دمياط فملكوها بقيادة « لويس التاسع » ملك فرنسا سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م .) فمات الملك الصالح قبل أن يصدمهم فأخفت سريته « شجرة الدر » موته ودبرت امر الجيش الى ان حضر ابنهُ (توران شاه) فتولى قيادة الجيش وكان الصليبيون قد زحفوا على المنصورة وكادوا يملكونها فهزمهم واستولى على اكثر مراكبهم وغرق كثير منهم في النيل واسر ملكهم لويس التاسع وسجن على ما قيل في (دار ابن لقمان) الباقية بالمنصورة الى الآن ثم فدى لويس نفسه وبقية أهله وعساكره وخرجوا من دمياط . وتعتبر واقعة المنصورة هذه من المواقع الفاصلة بين المسلمين والصليبيين

ولما ولي الملك (توران شاه) وفرغ من الصليبيين طالب السيدة (شجرة الدر) بمال والده وهددها وهدد المماليك فقتلوه بعد سبعين يوماً من ملكه وولوا مكانه الملكة « شجرة الدر » ولم يل المسلمين امرأة قبلها فأقامت في الملك ثلاثة اشهر وعزلت نفسها واتفق المماليك ان يولوا (الاشرف موسى) في بيت الملك فملكوه وعمره ثماني سنين وجعلوا (عز الدين ايبك التركماني) احد مماليك الصالح قيماً عليه فتزوج من شجرة الدر ولم يلبث ان خلع الاشرف واستبد بالملك وانقرضت الدولة الايوبية من مصر

وقد كانت الدولة الايوبية من مبدئها الى منتهاها دولة فتح وجهاد ولولا وقوفها في وجه اوروبا لانقرض الاسلام من جميع بقاع الشام والجزيرة ومصر وشمال افريقيه

٧ — دولة المماليك البحرية فى مصر

٦٤٨ هـ — ٧٨٤ هـ . (١٢٥٠ م . — ١٣٨٢ . م)

انقرضت الدولة الايوبية بقتل « توران شاه » ودخلت مصر بعدها في حوزة مماليك هذه الدولة . وكان خلفاء الدولة العباسية قبلهم قد اعتادوا استخدام الكثير من المماليك في الجند والحرس ليحتموا بهم من العرب ولا سيما انصار العلويين والامويين منهم فأخذت قوة هؤلاء المماليك تزداد شيئاً فشيئاً حتى صاروا أشبه بسجان للخلفاء واقتدى بالعباسيين « نور الدين » و « صلاح الدين » فاستخدما المماليك وعنيا بتدريبهم واعدادهم وبقى ذلك في عهد الايوبيين حتى ولي « الملك الصالح » نجم الدين أيوب فاشترى عدداً كبيراً من أشداء المماليك وبالغ في تدريبهم وانزلهم في قلعة الروضة التي شيدها بجزيرة الروضة فسموا لذلك « المماليك البحرية » ولما أغضبهم « توران شاه » قتلوه واستولوا على الملك فبقي في ايديهم نحو مائة وثلاثين سنة

واول ملوكها (عز الدين ايبك التركماني) وخلفهُ ابنهُ الصبي قليلاً ثم خلفهُ (قطز) الذي كان على يديه هزيمة التتار بفلسطين وكانوا قد ابادوا الدولة العباسية ببغداد قبل زحفهم على الشام

واشهر ملوك المماليك البحرية (الظاهر بيبرس البندقداري) الذي تولى الملك بعد قتله قطز سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م .) وكانت بغداد قد سقطت في مدة سلفهِ في يد التتار

فدعا الى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار في بغداد وبايعهُ بالخلافة ثم استمد سلطان الملك منهُ نائباً عنهُ سنة ٦٥٩ هـ . (١٢٦١ م) وذلك لكي يعزز زعامته للإسلام ويجعل مصر مركزاً للخلافة . ومن اعظم اعماله انهُ قاوم التتار الزاحفين على مصر مدة قطز وحارب الصليبيين محاربة شديدة نحو عشر سنوات وهدم « يافا » و « انطاكية » اذ كانتا من اهم معاقلهم

وما زال لبيبرس الذكر الحسن عند المصريين ، ومن المساجد التي شيدها مسجده الكبير بالحسينية والمعروف بجامع الظاهر

وبعد وفاة بيبرس حدثت منازعات بشأن تولي الملك وانتهى الامر بتولي السلطان «قلاوون» سنة ٦٧٨ هـ ، ١٢٧٩ م .) فبقي الملك في بيتهِ اكثر من مائة سنة ومن مآثره انهُ هزم التتار في موقعة فاصلة في حمص وكانوا يتأهبون للاغارة على مصر مرة اخرى ومن مبراته الحسان انشاؤه البيمارستان الكبير بين القصرين والمعروف الآن بمستشفى قلاوون بالنحاسين وبجانبهِ المدرسة العظيمة والقبة التي دفن بها ووقف عليها الاوقاف الكثيرة

وخلفهُ ابنهُ « الاشرف خليل » وفي مدته سقطت عكاءَ في يد المسلمين وتبعتها بقية مدن الساحل وبذلك انتهت الحروب الصليبية سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٣ م .)

ومن أشهر ملوكهم الملك « الناصر بن قلاوون » وقد هزم التتار في موقعة فاصلة قرب دمشق سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣م) فكانت هذه رابع مرة صد فيها التتار عن الديار المصرية

وفي مدته بلغ فن المباني والنقوش العربية اقصاهُ وقد ظهر ان اكثر الآثار العربية الجميلة التي في دور تحف العالم هي من صنع هذا العصر وهو المنشىء لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل وقد نسبت خطأً الى صلاح الدين

ومن ادوم المماليك البحرية اثراً ابنه السلطان (حسن) وهو باني المدرسة العظمية المشهورة الآن بجامع السلطان حسن بجوار القلعة

وبعد عهده وقع النزاع على الملك وانتهى الامر بانقراض هذه الدولة واستيلاء دولة جديدة من المماليك على مصر تعرف بدولة (المماليك البرجية) أو (المماليك الشراكسة) سنة ٧٨٤ هـ . (١٣٨٢ م .)

٨ — دولة المماليك الشراكسة أو البرجية في مصر

٧٨٤ هـ — ٩٢٣ هـ (١٣٨٢ — ١٥١٧ م .)

منشأ هؤلاء المماليك ان المنصور (قلاوون) اكثر من شرائهم وجعلهم في ابراج القلعة فسموا (البرجية) وهم يختلفون في الجنس عن المماليك البحرية لان معظمهم من الشراكسة واولئك من الترك

وقد كان لكثير من ملوك هذه الدولة وأمرائها ولوع بالعلوم واشتهروا بالتنافس في بناء القصور الفخمة والاربطة والجوامع والمدارس والسبل وغير ذلك من المعاهد الخيرية واكثر ما نراه اليوم في القاهرة من المباني العظيمة هو من آثارهم الا أنهم كانوا يميلون الى الظلم فكثرت في عهدهم الثورات والفتن في البلاد

وأشهر ملوكهم وأولهم هو السلطان (برقوق) تولى الملك سنة ٧٨٤ هـ .(١٣٨٢ م.) بعد ان اتفق مع الامراء على خلع آخر المماليك البحرية . وفي مدته أراد سلائل التتار بعد اسلامهم امتلاك مصر بقيادة قائدهم العظيم (تيمورلنك) فارسلوا كتاباً الى مصر يطلبون من حكومتها التسليم اليهم طوعاً فامتنع (برقوق) واتحد مع أمراء شمالي الشام وسلطان آل عثمان واعد العدة لصدهم ولكنه مات قبل الحرب سنة ٨٠١هـ (١٣٩٩) ومن اعظم آثاره مدرسته العظمية بين القصرين بالنحاسين الشهيرة (بجامع برقوق)

ومنهم ايضاً ابنه (فرج) الذي قام بعد ابيه بمحاربة التتار فمنعهم عن فتح مصر وان لم يصدهم عن شمالي الشام وله مدفن بالصحراء يعرف بجامع (برقوق). ومنهم السلطان (المؤيد) المتولي سنة ٨١٠هـ. (١٤٠٧م.) وهو باني الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار باب زويلة

ومن اعظمهم (برسباي) المتولي سنة ٨٢٥هـ. (١٤٢٢م.) ومن اهم اعماله اهتمامه بالتجارة وخاصة تجارة الهند المارة بمصر الى اوربا ونظم ضرائبها حتى صارت مورداً كبيراً للحكومة

ومنهم (قايتباي) وهو أطول ملوك هذه الدولة حكماً ملك من سنة ٨٧٣ هـ. الى سنة ٩٠٢ هـ. (١٤٦٨ — ١٤٩٦ م.) وكان في اول امره مملوكاً اشتراه (برسباي) بخمسين ديناراً فما زال يرقى بجده ومواهبه حتى بلغ هذا المركز ومن مبانيه الكثيرة تربته العجيبة التي بناها في الصحراء قرب القاهرة وتعرف بجامع قايتباي

ومن أشهر السلاطين الذين حكموا بعده السلطان الاشرف (قنصوه الغوري) المتوفي سنة ٩٢٢ هـ. (١٥١٦م. ومن آثاره جامعهُ الجميل بالغورية

وفي مدته تحولت معظم التجارة الهندية عن طريق مصر لان البرتغاليين اهتدوا الى طريق جديد حول رأس الرجاء الصالح فنقص بذلك ايراد الحكومة المصرية نقصاً كبيراً

ولما تولى عرش الدولة العثمانية السلطان «سليم الاول» اهتم بتوسيع نطاق دولته وعمل على محاربة المماليك لاول سبب فأتهم الغوري بممالأة الفرس عليه وكانوا يومئذٍ اشد اعدائه وبأن مصر أصبحت مأوى للعصاة و للمارقين من وجه سليم. فأدرك الغوري نيته وجرد جيشاً خرج به الى الشام على الرغم من تأكيد سليم له انهُ لا يقصد بمصر سوءًا والتقى الجيشان بميدان «مرج دابق» شمالي حلب سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وكانت مدافع العثمانيين قوية ففتكت بجيش المماليك فهزموا وشلّ الغوري لوقته فوقع تحت حوافر الخيل ولم يوقف له على اثر

وملك السلطان سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر فولى المماليك عليهم السلطان (طومان باي) فجمع من قدر عليه من الجنود والتقى بجيش سليم في صحراء الريدانية (العباسية الآن) فانهزم (طومان باي) ودخل السلطان سليم القاهرة وفر طومان باي وحاول ارجاع القاهرة فلم ينجح ثم قبض عليه سليم وصلبهُ على باب زويلة

وبموته انقرضت دولة الشراكسة سنة ٩٢٣ هـ. (١٥١٧ م.) وسقطت مصر من عالم الدول المستقلة سياسة وصارت ولاية عثمانية ونزل الخليفة المتوكل العباسي بمصر عن الخلافة لسلاطين آل عثمان

المراجع

١ — خطط المقريزي

٢ — محاضرات القاها بمعهد الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية حضرة الاستاذ عبد الحميد العبادي

٣ — تاريخ مصر الاسلامية الجزء الاول تأليف المرحوم الياس الايوبي

٤ — الفاطميون في مصر للدكتور حسن ابراهيم حسن

٥ — History of Egypt in the Middle Ages by S. Lane-Poole

٦ — Encyclopeadia of Islam

٧ — Précis de l'histoire de l'Egypte par Gaston Wiet

٨ — Les Tulunides, Etude de l'Egypte Musulmane à la fin du IXe siècle par Dr. Zaky Mohamed Hassan

٩ — تاريخ مصر الى الفتح العثماني لعمر الاسكندري والميجر سقدج

المواصلات فى مصر

فى العصور الوسطى

مترجمة عن

L. Egypte Contemporaine (année 1933 pp 241 à 264)

للمسيو جاستون فييت

مدير دار الآثار العربية

ونقلها الى العربية

محمد وهبي

خريج معهد الآثار العربية

المواصلات في مصر في العصور الوسطى (١)

نريد ان نعالج في بضع صفحات مسائل الانتقال في مصر في العصور الوسطى تاركين قصداً كل ما يمس الانتقال في العاصمة نفسها (٢) فيلزم اذاً دراسة طرق المواصلات في داخل البلاد التي كان يتخذها الشعب الزراعي والافراد للانتقال من قرية الى قرية . وسنعالج بعد ذلك طرق نقل البضائع. وسيتجاوز البحث الحدود المصرية كي تنظر الى حركة الموانى التجارية الهامة وسندرس فضلاً عن ذلك طرق البريد والحجاج ما دام القانون الاسلامي يحض آلاف المؤمنين على التوجه كل سنة الى مكة. وسنصف في النهاية وصفاً موجزاً نقلات الثلج ومطارات الحمام الزاجل وكل هذا كان مطبوعاً بطابع سياسي شأن الطرق في كل مكان

ان ابن عبد الحكم وهو أقدم مؤرخ لمصر الاسلامية يمدنا بمعلومات ثمينة بصدد قيام النظام الاسلامي فهو يقول لنا ان أول وال على الخصوص وهو عمرو بن العاص كان يخصم من جملة المبالغ المتحصلة من الضرائب قبل ارسالها الى الخليفة القدر اللازم لادارة شئون البلاد وحاجة الجند وان اعتماداً خاصاً كان يرصد لتطهير الترع وصيانة الطرق وبناء القناطر وترميمها وتهديم الجزر الصغيرة التي تتكون وسط مجرى النيل وكانت الحكومة تستخدم في هذا السبيل مائة وعشرين الف رجل مجهزين بالآلات اللازمة طوال العام صيفاً وشتاء بلا انقطاع (٣) تحقيقاً

---

(١) عند ما عرض علي أن أترجم هذا البحث الممتع قبلت عن طيب خاطر واستأذنت الاستاذ المؤلف فأذن بل أبدى استعداده بظرفه المعهود لتوضيح ما يغمض علي في النص او في المراجع وهي كثيرة كما يرى القارىء فتمتعت بخبرته الواسعة كما تمتعت بمقدرة الاستاذ الدكتور زكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية في معاونة بعض نواحي الترجمة المستعصية فدللها على وجه الدقة ثم في كيفية ترتيب المراجع بالعربية فرتبها أحسن ترتيب فأشكر لهما ما بذلاه شكراً وافراً

(٢) نشر لمسيو مارسيل كليرجيه كتاباً هاماً عن مدينة القاهرة في العصور الوسطى . وقد عالج بعض نواحي هذا الموضوع في مقالين : L'habitation indigène au Caire. (Ann. de Geographie) سنة ١٩٣١ ص ٥٢٧ — ٥٤٣ ، De quelques Caractères des Villes arabes, Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte عدد XVIII ص ١ — ٨)

وانظر Hautecœur et Wiet, Mosquées du Caire ص ١٠٩ — ١١٠

(٣) المقريزي طبعة بيت ج ١ ص ٣١٣ و ٣٢٢ ، Lane-Poole, Hist. of Egypt ص ٢٠

وانظر : Précis de l'Hist. d'Egypte ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ ،

Lozach et Hugo: L'habitat rural en Egypte ص ١٨٣ — ١٨٤

كان هناك مختصون بالطرق في كل بلد (قرن Wiet, Catal. des objets en Cuivre ص ١٢٧)

لذلك البرنامج المزدوج وهو ضمان الانتقال براً وبحراً عن طريق النيل والترع . فهذه البيانات التي يمدنا بها ابن عبد الحكم معقولة ولا تدعو الى التشكك مطلقاً في قيمتها فقد كانت مراقبة الطرق مراقبة صارمة وتعميق الترع وتطهيرها واجبين لهما أهمية خاصة في بلد يعتمد على نظام الري فالنيل هنا يخلف طميه والمياه هناك تقوم بعملها الهدام

ومهما يكن من شيء فقد كانت الطرق مرسومة على اساس الادارة البيزنطية المتخبطة لذ لما كانت مصر مخزناً للغلال اللازم لبيزنطة فان المواصلات البحرية والنهرية كانت دائماً موضع اهتمام من قبل موظفي الامبراطورية . وكان واجب صيانة الجسور قائماً على نظام السخرة غير أنهُ كان في الامكان أن يتخلص المرء من عبئها بدفعه ضريبة بَـدَلٍ ثم ان الشعب كان ملزماً بان يضع ما يملك من قوارب وما فيها من نوتية تحت تصرف صاحب الكورة عند قيامه بتحصيل الضرائب[١]

وأوراق البردي من العصر العربي تحتوي على كشوف حسابية تذكر بالتفصيل مصاريف العمال والآلات والعدد اللازمة لصيانة الجسور والترع[٢] . ونستخلص ايضاً من الاوراق المذكورة أن الحكومة كانت تحصل ضرائب غير عادية لتجهيز الاسطول[٣] وضرائب اخرى مخصصة للمعديات التي تعبر النيل[٤]

وقد كانت الحكومة تختار المستخدمين اللازمين للاسطول من بحارة وغيرهم من اصحاب المهن المختلفة كالنجارين من طبقات معينة ولكي تقدم العدد اللازم من الاخصائيين كانت تفرض على طائفة من الشعب ان تحترف حرفاً معينة[٥] . وربما كان القيام ببعض انواع الاعمال وراثياً[٦] كما كانت الحال في العصر البيزنطي . وهذا يفسر لنا مهارة المصريين الخاصة في صنع السفن البحرية فالمراكب الاولى التي صنعت في عصر الامبراطورية الاسلامية لم تبنَ الاّ في مصر بالفسطاط وبالقلزم على الخصوص[٧] ولم تمض اربعون سنة بعد الفتح الاّ وبلغت مصروفات الاسطول ٧٠٠٠ دينار سنوياً[٨] ولكن غارات القراصنة البيزنطيين حملت الخليفة على زيادة دور الصناعة فأمر بانشاء

---

(١) قارن Rouillard. Administr. civile de l'Egypte byzantine ص ٧٣ و ٨٤ و ١٣٩ وما بعدها ، Précis ج ٢ ص ٧٥

(٢) Grohmann. Papyr. arabe, Etudes de Papyrologie ج ١ ص٦٧ ، Précis ج ٢ ص ١٤٨

(٣) Grohmann المرجع السابق ص ٦٠

(٤) Grohmann المرجع السابق ص ٦٦

(٥) Grohmann نفس المرجع ص ٦٧

(٦) Rouillard المصدر المذكور ص ٧٣

(٧) المصدر السابق جروهمان Grohmann ص ٦٧

(٨) Corpus inscript. ar, Egypte ج ٢ ص ١٦٧ رقم ٢ (الدينار يساوي نصف جنيه تقريباً — المترجم)

واحدة بعكا [١] مستعيناً بالنجارين المصريين وأخرى بتونس على يد ثلاثة آلاف قبطي [٢]

فالطرق اذن كانت ضرورية ولا غنى عنها للاتصال بين القرى اذ كانت المساحات المزرعة تغمرها مياه الفيضان مدة طويلة من السنة. وحالة القرية المصرية اليوم بمنازلها المضغوطة المتلاصقة [٣] ليست وليدة الامس القريب وانما هي حالة انحدرت الينا منـذ قرون طويلة وترد اسبابها الى الحاجة الى الاحتفاظ بمساحة الاراضي الزراعية خصوصاً في الصعيد وعدم التفريط في اي جزء منها . فكانت القرية تبنى على مرتفع من الارض طبيعي او صناعي (على اساس مدينة او معبد قديمين) في نقطة لا تصل اليها مياه الفيضان عادة [٤]

انا نعيش في زمن قد اخذت فيه شبكة الطرق المصرية في التحول تحولاً جوهريًّا من جراء اتساع النقل بالسيارة غير انها كانت ولا تزال كافية لحاجات الشعب الزراعي فاليوم كالامس تزدحم في ساعة معينة عند طلوع الشمس وعند غروبها بقطعان الخراف والثيران الهادئة التي يعتلي اعجازها الاطفال احيـانا ، وبالحمير السنجابية وهي تسير سيراً وئيداً غير آبهة في خطى متزنة . وسكان الغيطان والحقول العاملون يسيرون معها رجالاً ونساء واطفالاً .ان الخروج الى الحقول في الصباح الباكر لا يزال حتى اليوم مصحوباً بالضجيج وان الانسان ليعبر عن سروره وفق غريزته فينتفض ذلك البدن انتفاضة المستريح من جو ذلك الـكوخ الطيني الحقير وانك لترى الرجال قبل الرحيل وقد جلسوا القرفصاء على صف واحد مستندين الى الجدار في اتجاه الشمس المشرقة يتهامسون همسات خفية قبل بدء الاشغال اليومية

نعم والطرق لم تتسع فالمهم عدم التفريط في شبر واحد من الارض قابل للزراعة ورغم ضيقها فانه لم يحصل ان انسدت الا نادراً جدًّا فالفلاحون يأخذون الطريق في ساعات معلومة وفي اتجاه واحد ولا يتلاقون بقوافل الجمال الطويلة الا قليلاً . والحق ان النيل والترع كانت طرق نقل البضائع على وجه الخصوص فنشأت على ضفافها البلدان التي للتجارة فيها شأن أخطر من الزراعة [٥]

وفضلاً عن هذا فان النيل والترع [٦] كانت من طرق المواصلات البعيدة ولم تكن السرعة

(١) البلاذري ص ١١٧

(٢) Ba[illegible] Descr. de l'Afrique ص ٨٤ . Encyclopédie de l'Islam ج ٢ ص ١٠٥٨ . [illegible] ج ٢ ص ١٤٨ . Amari. Diplomi arabi. p. X.

(٣) انظر ما كتبه [illegible] في المرجع السابق ص IX

(٤) Nas[illegible] ص ١١٨ المرجع السابق Lozach et Hug. ص ١٦٦

(٥) المرجع السابق تأليف Lozach et Hug ص ٢٣ .

(٦) ومن جهة اخرى كان بعض القرى اثناء الفيضان الكامل لا تستطيع ان تتصل بالبعض الآخر الا بالقوارب (Kh[illegible] Nas[illegible] ص ١١٨) .

كبيرة فستة ايام كانت لازمة لقطع المسافة بين الاسكندرية والقاهرة [١] والرحلة بين العاصمة وقوص ذهاباً أو اياباً كانت تستغرق مدة تتباين من ثمانية ايام الى خمسة عشر يوماً [٢]

كان الفتح العربي عاملاً من عوامل نمو حركة الملاحة النهرية فالعرب وقد احتفظوا بأهم انواع الاعمال التي كانت مفروضة على المصريين قبل العاصمة البيزنطية كانوا يبعثون بالغلال الى البلاد المقدسة ببلاد العرب وهي مكة والمدينة فأعادوا حفر القنال تسهيلاً لنقل الغلال ، تلك القنال التي كان امر بانشائها « نخاو » فرعون مصر بين النيل والبحر الاحمر ثم اهتم بها من بعده الامبراطور طرايانوس. وكانت بدايتها شمال مصر القديمة بقليل ونهايتها الى ما قبل القلزم او قلزما القديمة بميل. وكان من سوء حظ مصر ان كان الخلفاء الاوائل يديرون البلاد متشبعين بروح بيزنطة وسياستها الادارية فالخليفة المنصور امر بردم القنال لتجويع المدينة [٣] وكان يمكن لمدينة القلزم ان تحتفظ بنشاطها التجاري السابق غير أنها أخذت تفقد مكانتها شيئاً فشيئاً [٤] وعجلت الحروب الصليبية باضمحلالها . وسنعود اليها عند الكلام على الحج

والملاحة النيلية اليوم هي رمز الهدوء وسط حياتنا المضطربة ورمز حياة شعب عامل مجد ، غير أنها كانت في العصور الوسطى ذات حركة قوية سريعة تثير الاعجاب وقد وصفها المقريزي بعبارة فيها غلو وحماسة مقصودان . «ولا تنس الجواري المنشآت في البحر كالأعلام التي تسبق عند طياب الرياح مفوقات السهام واعجابها بغربانها البحرية وحراقاتها الحربية وشوانيها وهول مبانيها وجلال شكلها وجمال معانيها تبدو موشاة بالنضار الاحمر منقشة باللون الأخر فهي كالارقم المنمر أو كمتلون النمر أو الطاوس الذكر أو الناوس لبني الأصفر معمرة بيأس الحديد والاحجار محمولة على سيح الماء التيار مشحونة بالرجال منصورة عند القتال مصونة بالجن والنبال تبرز مذكرة بالآية النوحية وتضمن احراز الهمة العلية الفتحية حصون أمنع من أعز قلاع تطير اذا فتح لها جناح القلاع فتسبق وفد الريح عند الاسراع وتفوق سرعة السحاب عند الاتساع فهي مع العقبان في النيق حوّم وهنّ مع البنيان في البحر عوّم [٥] »

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦ [illegible]

(٢) Heyd, Hist. du Commerce du Levant ج ٢ ص ٦٠

(٣) أو افلاس مصر نفسها وحمل تجار الهند على المرور ببغداد ووادي الفرات
قارن المرجع السابق لهايد Heyd ج ١ ص ٤٠ وانظر المرجع السابق للين بول Lane—Poole ص ٢٠ ، J. Maspero et G. Wiet, Matériaux pour servir de la Géogr. de l'Egypte ص ٨٤ — ٨٥ Précis ج ٢ ص ١٤٧ ، Amari, Diplomi arabi ص XLIX

(٤) قارن المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٣٥ ، المرجع السابق لهايد Heyd ج ١ ص ٣٦

(٥) المقريزي ج ١ ص ٣٧٠

نعم وكانت الملاحة النيلية نشيطة جداً وكانت العاصمة تعتمد عليها في تموين نفسها فكان للباعة «بالقطاعي» دكاكين بمصر القديمة على ساحل النيل وكانت البضائع تفرغ على أبوابهم وكان الازدحام من الشدة بحيث كان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب (١)

وقد احتفظت القاهرة حتى في اواسط القرن الثالث عشر بطابعها كمدينة ملكية حربية وظلت الفسطاط ميناء تجارية والبضائع لكثرتها لم ير أحد الرحالة في ذلك العصر ضرورة لتعديد أصنافها الواردة من بحر الاسكندرية وبحر الحجاز (٢) ثم لما انقضت مائة عام كانت الحركة التجارية النيلية لا تزال شديدة . وها هو ابن بطوطة يحدثنا عنها حديث المعجب بها الاعجاب كله المقدر لقيمتها فيقول : «وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفاً للسلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بانواع الخيرات والمرافق ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لانه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى مدينة اسوان (٣) »

كانت مصر في العصر البيزنطي طريق البضائع الواردة من آسيا والشرق الاقصى برسم اقاليم الساحل الشمالي بالبحر الابيض المتوسط (٤) وكانت المراكب الحبشية تتاجر مع بلاد العرب وتفرغ فيها حمولتها الآتية من الهند عن طريق البحر الاحمر (٥) فلما جاء الفتح العربي لم يحدث أدنى تغيير في هذا الطريق التجاري الذي توسطه مصر. ولا يسعنا بهذه المناسبة الا اثبات نص هام لجغرافي من القرن التاسع وان كان قد سبق نشر هذا النص كثيراً لخطورة شأنه :

« كانت مصر مسلك التجار اليهود الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلابية وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل

---

(١) Nasiri Khusrau ص ١١٥

(٢) المقريزي ج ١ ص ٣٤٢ ، Précis ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٣) ابن بطوطه ج ١ ص ٦٧ و ٦٩

(٤) Lammens, La Mecque à la veille de l'hégire. Mél. de l'Univers. de Beyrouth ج ٩ ص ١٠٨ ، Lammens ج ١ ص ١٤٥ — ١٤٦

(٥) قارن المرجع السابق تأليف هايد ج ١ ص ٩ — ١٠ و ٢٥ ، والمرجع السابق تأليف رويار Rouillard ص ٨١ — ٨٢

من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك [١] »

ثم بعد قرن من الزمان كانت مصر « يحمل اليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين (بحر الحجاز وبحر الشام) من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والافاويه والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس لجميع البلدان تحمل اليها وتفرغ فيها [٢] »

وهكذا لم يكن ظهور الاسلام ليعطل تلك العلاقات التجارية مع الغرب المسيحي . وأحست اوربا كعهدها في الماضي بحاجتها الى بهار الهند ولآلىء الخليج الفارسي والاحجار الكريمة والعطور والحرير والعاج . وظلت الاسكندرية كما كانت في الماضي محتفظة بمركزها . ولم تكن الضرورة تدعو الى انشاء سوق جديدة[٣]

ولا شك في ان الحروب الصليبية اصابت الحركة التجارية بالركود ثم تدخلت البابوية عقب طرد الصليبيين لقطع كل علاقة تجارية مع مصر غير انها عادت فسمحت بها في حدود معينة تحت ضغط تجار اوربا ولكنها حظرت علناً تصدير الخشب والحديد اللذين يستعملان في تسليح المماليك[٤] فباءت هذه السياسة بالفشل ورأينا الدول الاوربية تعمل على كسب صداقة الحكومة المصرية وعقد أكثر المعاهدات التجارية فائدة وأبعدها اثراً[٥] وان تقارير قناصل اوربا بالاسكندرية لتدل

---

(١) ابن خردادبه ص ١٥٣ ، ابن الفقيه ص ٢٧٠ ، المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٢٥ ، المرجع السابق لهايد Heyd ص ٤١ و١٢٦ ، Précis ج ٢ ص ١٤٦ ، Amari, Diplomi arabi, p. X'

(٢) كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٢٠ ، Précis ج ٢ ص ١٧٠

(٣) قارن المرجع السابق لهايد Heyd ج ١ ص ٤١ و ٥٣ و ٧٨ ، Précis ج ٢ ص ١٤٦ و ١٤٧ كانت دمياط مهملة اذ كان من اللازم نقل البضائع على قوارب مسطحة انتقل اسمها العربي الى اللغة الفرنسية وهو des djermes (المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٧٤ ، المرجع السابق تأليف هايد Heyd ج ٢ ص ٦٠ رقم ٢ ، Arch. de l'Or. lati ج ٢ ص ٣٦٩ ، G. S. Col'n, Technol. de la batellerie du Mil, Bull. Inst. Fr. ج ٢٠ ص ٧٦) . ومع ذلك كانت ايرادات الجمارك برهاناً على ان الحركة التجارية كانت لا تزال نشيطة (هايد Heyd ج ٢ ص ٥٨)

(٤) المرجع السابق تأليف هايد Heyd ج ٢ ص ٢٣ — ٢٥ و ٤٢ وما يليها

(٥) قارن Lammens, La Mecque, Mél. de l'Univers. de Beyrouth ج ٩ ص ١٠٦ ، Précis ج ٢ ص ٢٥٥

دلالة واضحة على كثرة التجار الاجانب [١] وفي غضون القرنين الرابع عشر والخامس عشر أخذت سفارات البلاد الاوربية في مصر في الازدياد تحدوها اغراض تجارية وسياسية كبعثات ملك اراجون [٢] وملك فرنسا [٣] وجمهوريات جنوة [٤] والبندقية [٥] وامبراطور بيزنطة [٦] وملك البلغار ووادي الفولجا [٧] والبلاط العثماني [٨] وممالك اليمن [٩] والعجم [١٠] وامير سيلان [١١]

وكان للاسكندرية في القرن الرابع عشر ميناء نخمة عدها ابن بطوطة الذي ساح في الشرق والشرق الاقصى في مصاف مواني كيلون [١٢] وكلكتا في الهند وسوداق [١٣] في شبه جزيرة القرم وزيتون (تسنج تشيوفو) في الصين [١٤] . وكان تجار قطالونيا وجنوة والبندقية يجلبون الى مصر ما اشتدت اليه حاجتها من الرقيق من الجنسين وكان اهل جنوة يستوردونهُ من القرم على الخصوص ، وحاجتها من الخشب [١٥] الذي كان يستعمل في بناء المباني العامة والمنشآت البحرية ومن الاقمشة والفرو الذي كان يستعمل في تفصيل ملابس كبار الموظفين الرسمية [١٦]

---

(١) قارن المرجع السابق تأليف Hautecœur et Wiet ص ٧٦ — ٧٧ ، Voy. de Jean Thenaud, p. XVI—XVI

(٢) المرجع السابق تأليف هايد Heyd جـ٢ ص٣٢ و ٤٩ ، Corpus inscr. ar., Jérusalem جـ ١ ص ٣٩٩ ، Arch. de l'Or latin جـ ٢ ص ٣٦٨ — ٣٦٩

(٣) المرجع السابق تأليف هايد جـ ٢ ص٣٤ Corpus inscr. ar., Jérusalem جـ١ص٤٠٠ — ٤٠١

(٤) Quatremère, Sultans Mamlouks جـ ٢ حرف a ص ٨١

(٥) نفس المرجع تأليف هايد جـ ٢ ص ٣٨ — ٣٩ و ٤٥ و ٥٣

(٦) Quatremère Sultans Mamlouks جـ ١ حرف a ص١٧٧ و ٢١١ ، جـ ٢ حرف a ص ٨١

(٧) Quatremère, Mesalek, elabsar, Notices et extraits des mss. XIII ص٢٧٠ — ٢٧١

(٨) Précis جـ ٢ ص ٢٦٦

(٩) Quatremère. Sultans Mamlouks جـ ٢ حرف a ص ٨١

(١٠) Wiet, L'histor. Abul Mahasin, Bull. Inst. d'Egypte جـ ١٢ ص ١٠٠

(١١) Quatremère, Sultans Mamlouks جـ ٢ حرف a ص ٥٩ — ٦٠ ، المرجع السابق تأليف Hautecœur et Wiet ص ٨٦

(١٢) قارن كتاب عجائب المخلوقات ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(١٣) مسالك الابصار طبعة Quatremère ص ٢٧٢ ، Heyd جـ ٢ ص ١٦٢

(١٤) ابن بطوطة جـ ١ ص ٢٨

(١٥) قارن هايد Heyd جـ ١ ص ٣٥ ، جـ ٢ ص ٨٣ ، Précis جـ ٢ ص ١٤٧ و٢١١ — ٢١٢ و ٢١٩

(١٦) قارن Gaudefroy-Demombynes, La Syrie à l'époque des Mamlouks p. LXXXIX

ثم يستورد اولئك التجار عند العودة الى بلادهم بهار الهند [١] وخزف الصين ولآلىء الخليج الفارسي ومختلف محاصيل افريقيا الوسطى . وكانت مصر مركز تجارة البهار التى سيطرت عليها نقابة قوية وقد عرف هؤلاء التجار من قديم الزمان باسم كريمى Karimis المشتقة من Kanem

وكان لهؤلاء التجار رؤوس اموال ضخمة ووكلاء في الهند وعدن التي كانت تسمى (دهليز الصين)[٢] ، وكان بعضهم يرحل الى بلاد العرب والشرق الاقصى لزيارة وكلائهم.وكان مركزهم التجاري بمدينة قوص[٣] وكان في حوزتهم اسطول كبير. ثم انهم لم يلبثوا ان وسعوا تجارتهم فلم يكتفوا بانواع البهار وانما تاجروا فضلا عن ذلك في الحبوب على وجه الخصوص . ونمت ثرواتهم بحيث كان في مكنتهم اقراض ملوك مصر واليمن[٤] مايطلبون من مال

كانت الاسكندرية اهم مركز لتجارة البهار بالنسبة الى اوربا وكانت الرحلات في البحر الابيض المتوسط تختلف ازمانها . وماكانت لتخلو من الاخطار في بحر موبوء بالقرصان الذين ينتمون الى البلاد التجارية نفسها . فمنهم من كان من أهل قطالونيا وصقلية ومنهم بطبيعة الحال اهل جنوة الذين لم يكن ليخلو منهم مكان[٥] وكانت الرحلة بين القسطنطينية والاسكندرية وبين هذه وصقلية[٦] تستغرق عشرين يوماً

وقد اعتمدت حكومة المماليك على هذه التجارة فاستطاعت ان تزيد ايراداتها وقدرت رسوم الصادر والوارد الباهظة المفروضة على ثلاث سفن او اربع بما يوازي قيمة حمولة واحدة منها [٧]

---

(١) ماركو بولو Marco Polo يحدثنا عن « مراكب الفلفل الآتية من الهند الى الاسكندرية » (Le Livre de Marco Polo, p. LXIII, LXXIV (٢) المقدسي ص ٣٤

(٣) قارن هايد Heyd جـ ٢ ص ٥٩

(٤) قارن مسالك الابصار طبعة Quatremère ص ٢١٤ — ٣١٥ ، تراجم المنهل الصافي لفييت Hautecœur et Wiet ، ٢٧٦٠ و ٢٤١٠ و ١٥٩٢ و ١٤٣٠ رقم ١٩ جـ Mém Inst. d'Egypte Mosquées ص ٨٥ ، Amari, Diplomi arabi, p. LXIII فرضت الحكومة المصرية مرة غرامة فادحة على اعيان من دمشق استدعوا الى مصر وكانوا لايحملون في تلك الساعة مالا ، فطلبت الحكومة الى (الكريمي Karimis) أن يدفعوا فوراً قيمة الغرامة ، وحصلتها الحكومه بدون تأخير وكانت نقابة التجار من القوة حيث استطاعت ان تعوض ما صرفته (Quatremère, Sultans Mamlouks جـ ٢ حرف a ص ٩٢ — ٩٣)

(٥) قارن هايد Heyd جـ ٢ ص ١٣ و١٦ و٩١ و٣٢ ورقم ٣ و٣٤ —٣٧ و٤٠

(٦) Nasir-i-Khusrau ص ١١٤ و١٢٢ كانت الملاحة احياناً مستحيلة في بعض شهور الشتاء على سواحل مصر وسوريا (نفس المرجع ص ١٠٩ ، Corpus inscr. ar. Egypte جـ ٢ ص ١٤٠ رقم ٥)

(٧) Heyd جـ ٢ ص ١٢٥ من المدهش ان الرسوم التي كانت مفروضة على المركب الواحدة في سنة ٧٠٣ (١٣٠٤) بلغت ٤٠٠٠٠ ديناراً اي ما يقرب من نصف مليون فرنك ذهب(Quatremère, Sultans Mamluks جـ ٢ حرف ب ص ٢٣٣ ، Amari, Diplomi arabi, p. LXIV)

وربما كانت هذه هي القاعدة المرعية غير ان المعاهدات التجارية خففت من وطأتها[١]

واذا كان تقدم البلاد المادي يعزى الى تجار اوربا أفليس عجباً ان نرى الحكومة المصرية تفرض عليهم الرسوم الباهظة؟ هي حالة تجلت عندما تحول سوق البهار من الاسكندرية الى لشبونة وهاهو فريسكوبالدي يورد حقائق ملموسة بصرف النظر عن تحامله. قال:

« وصعد في النهار على السفينة نحو عشرين ضابطاً عربيًّا من السود والبيض وفحصوا البضائع والركاب فحصاً دقيقاً ولم يثبتوا شيئاً غير انهم حملوا معهم شراع السفينة وصاريها كما اعتادوا ثم جاء خبراء السلطان فانزلونا وقادونا الى ميناء الاسكندرية فاستلمنا بعض الضباط واخذوا في عدنا كالبهائم. ثم اثبتوا العدد في دفاترهم ولم يلبثوا ان فتشونا تفتيشاً دقيقاً وركونا في حراسة قنصل فرنسا. ثم حملت امتعتنا الى الديوان واعيدت وفحصت فحصاً دقيقاً[٢] ». ولم يكن هذا التفتيش الجمركي في عهد المماليك فقط وانما كان سابقاً عليه فالحكومة المصرية اثناء حروبها مع الصليبيين كانت مراقبتها شديدة صارمة. وسنرى كيف كان عمال الجمارك في القرن الرابع عشر يتبعون التقاليد القديمة. فقد روى ابن جبير ذلك الرحالة المسلم الذى انطبقت روايته هذه بطابع مرير مستساغ كيف كانت المعاملة عند ما نزل بالاسكندرية في آخر شهر مارس سنة ١١٨٣

« طلع امناء الى المركب من قبل السلطان لتقييد جميع ماجلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت اسماؤهم وصفاتهم واسماء بلادهم وسئل كل واحد منهم عما لديه من سلع او مال ليؤدي زكاة ذلك كله دون ان يبحث عما حال عليه الحول من ذلك او مالم يحل وكان اكثرهم ليس معه سوى زاد الطريق فلزموا اداء زكاة ذلك دون ان يسأل هل حال الحول عليه ام لا وامر المسلمين بتنزيل اسبابهم وما فضل من ازودتهم وعلى ساحل البحر اعوان يتوكلون بهم ويحمل جميع ما انزلوه الى الديوان فاستدعوا واحداً واحداً واحضر ما لكل واحد من الاسباب والديوان قد غص بالزحام فوقع التفتيش لجميع الاسباب ما دق منها وما جل واختلط بعضها ببعض وادخلت الايدي الى اوساطهم بحثاً عما عسى ان يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم ام لا وفي اثناء ذلك ذهب كثير من اسباب الناس لاختلاط الايدي وتكاثر الزحام »[٣]

ومع ذلك لماذا نرى خذل تجار اوربا كثيراً. فاذا كانوا يتعرضون الى نهب بضاعتهم على

(١) قارن Heyd ج ٢ ص ٣٨ و ٤٥ و ٤٨

(٢) قارن كتبه دفريمري وسانجونتي Defremery, Sanguinetti في مقدمتهما لرحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٣٧

(٣) ابن جبير ص ٣٦ — ٤٠. هذه الفقرة مدهشة اذا علمنا ان الرحالة عينه تحدث عن رجال الجمارك الفرنج بعكا حديث مدح وثناء (ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، Lammens, La Syrie ج ١ ص ٢٨٣)

يد القرصان ، ويدفعون الى الخزينة المصرية ضرائب فادحة ، ويحتملون دون تذمر شديد بعض المضايقات فذلك لأنهم كانوا يكتنزون الثروة ويغتنون رغم ذلك كله . غير ان هـذه التجارة التي ازدهرت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ضربت ضربة قاضية باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ولم يكن الفتح العثماني ليدخل اي تحسين على هذه الحالة . وقد لاحظ مؤرخ عربي في اواخر سنة ٩١٢ (١٥٠٧) ان السفن الاوروبية اخذت تتوغل في البحر الاحمر وكان عددها يتجاوز العشرين وكانت تطارد السفن التجارية الآتية من الهند فاذا استولت عليها صادرت بضائعها فنشأ عن ذلك بالنسبة الى مصر خسارة فادحة اذ انعدم فيها بعض البضائع كالاقمشة[1] على وجه الخصوص وكان ظهور السفن البرتغالية في البحر الاحمر حادثاً لم يكن في مكنة المصريين حتى المتعلمين منهم ان يدركوا سببه ولكن ما اثبتهُ مؤرخنا من شرح غير منتظر لفت انظارنا واسترعى انتباهنا « ان الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذي صنعهُ الاسكندر ابن فلبش الرومي وكان هذا نقباً في جبل بين بحر الصين[2] وبحر الروم[3] (كذا) فلا زال الفرنج يعبثون في ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح وصارت تدخل منهُ المراكب الى بحر الحجاز وكان هذا من اكبر اسباب الفساد[4] »

ويكفي هذا الحادث للتحقق من صحة ما ادلى به ريمون لال عقب الحروب الصليبية اذ قال انهُ اذا امتنع المسيحيون مدة ستة اشهر فقط عن شراء البهار من المصريين لحدثت في مصر نكبة اقتصادية لا علاج لها[5]

---

(١) هذه الرواية تسمح لنا أن نقيس مدى انحطاط الصناعات في مصر في القرن الخامس عشر . كانت الثروة في ذلك الزمن ناشئة على الاخص من الوساطة في نقل التجارة لا من الانتاج المحلي، الا في حدود ضيقة جداً

اما فيما يختص بالاقمشة فالبون شاسع اذا قارنا القرن الخامس عشر بالقرن الرابع عشر فقد كانت الاقمشة في هذا القرن تصدر من الاسكندرية الى الهند حيث كانت « ملابس الربيع معظمها من المنسوجات المصنوعة بالاسكندرية» . وكانت هذه المنسوجات محل تقدير كبير اذ ان «محل الملابس الكتابية الواردة من الاسكندرية ما كان يلبسها الا أولئك الذين خلعها عليهم السلطان» (مسالك الابصار طبعة Quatremère ص ١٨٣ و ٢٠٠) ومن جهة اخرى كان البلاط المصري نفسه يقدم الهدايا من اقمشة الاسكندرية (المرجع السابق ص ٢٧١ ، Quatremère, Sultans Mamlouks ج ٢ حرف ص ٩) ، قارن ما كتبه فييت عن ابي المحاسن في Bull. Inst. d'Egypte ج ١٢ ص ٩٩ ، Précis ج ٢ ص ٢٦٢

(٢) ولمعرفة مدى هذه التسمية قارن . Lammens. La Mecque à la veille de l'hégire

(٣) هذا الاسم يطلق عادة على البحر الابيض المتوسط غير ان المقصود هو المحيط

(٤) ابن اياس طبعة كاله Kahle ص ١٠٩

(٥) Heyd ج ٢ ص ٢٧

ان ما قدمنا يدل على مبلغ اهتمام الحكومة المصرية بالمحافظة على طرق النقل بالنيل والترع غير أنهُ في الجنوب كان لا بد من انشاء طرق للقوافل عبر الصحراء للوصول الى البحر الاحمر . ومن جهة اخرى فان طريق الحجاج من القاهرة الى مكة حتى زمن الحروب الصليبية وما بعدها كان يقطع كذلك مسافات طويلة صحراوية فكان من المحتم الالتجاء الى الاختصاصيين وادلاء القوافل الذين لا يضلون والذين يعرفون الطريق الصحيح بعلامات لا يفقهها غيرهم كما يعرفون موارد الماء وأنواعها [١]

هذا فضلاً عن ان الحكومات المختلفة كانت تحافظ على طرق المواصلات البريدية في جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية . وكان البريد لا مندوحة عنه ابداً وظل يؤدي الخدمة بانتظام وبدون انقطاع فمن العبث اذن ان نبحث مع المؤرخين العرب عن أصل البريد وتاريخ نشأته [٢] كما انهُ من السخف أن نجاريهم في ان تيمورلنك هدم شبكة المواصلات السورية [٣] فطرق البريد التي اتلفتها جموع الفاتح المغولي تم اصلاحها بدون شك في القرن الخامس عشر . ولندون هنا حادثين كبيرين : حملة السلطان بيبرس على ديار بكر [٤] ورحلة التفتيش التي قام بها قايتباي [٥]

ان ادارة البوستة تسمى بالعربية البريد وهذه التسمية تدلنا وحدها على انها ليست اصيلة في الامبراطورية الاسلامية وانما هي في الحقيقة من أصل لاتيني تذكرنا بكلمة Veredus [٦] وكان صاحب البريد موظفاً يخشاه رجال السلك السياسي اذ كان في الحقيقة ينتمي الى ادارة الجاسوسية التي نطلق عليها اليوم ادارة الامن العام [٧] وكانت الحكومات الاسلامية المختلفة تراقب الولاة مراقبة شديدة كما كان يفعل الساسانيون وقد برهنت الحوادث على انهم كانوا على حق [٨] ففي

---

(١) قارن Lammens, La Mecque à la veille de l'hégire ص ١٢٣

(٢) قارن المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨ والتعليقات . انظر Le Livre de Marco Polo ص ٥٠٣ وما يليها . اذا أردنا أن نختار تاريخاً فاننا نؤثر ان نتخذ حكم عبد الملك بن مروان فأربعة معالم للبريد معروفة لدينا من عصره (Répertoire d'épigr. ar. ج ١ رقم ١٤ — ١٧)

(٣) المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨٨ ، Hautecœur et Wiet, Mosquées ص ٨٣

(٤) قارن ما كتبه فييت عن المؤرخ ابي المحاسن في Bull. Inst. d'Egypte ج ١٢ ص ١٠٤

(٥) Voy. du Sultan Qaitbay. Bull. Inst. ꞌr. ج ٢٠ ص ١ وما يليها

(٦) انظر ما كتبه Quatremère تعليقاً على هذا في Sultans Mamlouks ج ٢ حرف ب ص ٨٧ وما يليها

(٧) قارن ما كتبه لامنس Lammens عن معاوية في Mél. Faculté or. de Beyrouth ج ١ ص ٦٤

(٨) قارن Précis ج ٢ ص ٢٤٦

القرون الاولى تطلبت الاقاليم الشاسعة الفسيحة الخاضعة للادارة المركزية بدمشق ثم ببغداد ان يكون هناك في خدمتها عديد من الموظفين الذين منحوا السلطة التي تستدعي الانتقال السريع . وقد لقبوا بالقاب لائقة تتفق اتفاقاً تاماً مع مسئولياتهم الظاهرة وهي صيانة الطرق والبريد صيانة طيبة ولكن من مهامهم الاصلية ما يحملنا على مقارنتهم برسل ملوك فرنسا عند الكاورلنجيين [١] missi domimici

وليس علينا ان نتكلم عنهم هنا أكثر من ذلك فحسبنا ان نعرف الطرق التي كانوا يسلكونها في دخول الاراضي المصرية وانا نرى ان اولها هو هو الطريق الذي اجتازته جنود قمبيز [٢] وكان يبتدىء من دمشق ثم يغادر الاقليم السوري الفلسطيني عند غزة وهي «دهليز مصر» [٣] ويمر بالعريش والفرما Péluse وبلبيس . وكانت المسافة ٢٣٧ ميلاً عربياً وهي تساوي بالتقريب ٤٦٨ كيلومتراً [٤] . كان هناك طريق ينتهي الى بلاد المغرب وهو يهمنا اذ يمر بالاسكندرية فهو يسير على حدود الصحراء متبعاً خطاً يكاد يكون مستقيماً ماراً بالطرانة وقرطسا ودمنهور . وكانت المسافة التي تفصل الفسطاط عن الاسكندرية ١٧٨ ميلاً أي ٣٥١ كيلومتر تقريباً [٥]

ان طرق البريد اذا نظرنا اليها من وجهة نظر الخلافة لا محل لها في الوجه القبلي غير انه كان هناك طريق رئيسي يربط العاصمة باسوان . ففي العصر الفاطمي كان هناك « مرتفع من الارض مواز للنيل ممتد من اقصاه الى اقصاه يتخذ طريقاً. وكانت الخزينة العامة تدفع سنوياً مبلغ عشرة آلاف دينار لتنفيذ الترميمات التي يتطلبها ذلك الطريق » [٦]

لاشك ان التقدم العظيم الذي رأته مصر وسوريا في القرن الرابع عشر كان مرده الى الأمن السياسي غير أن طرق المواصلات كانت عاملاً من عوامل هذا التقدم أيضاً ففي ذلك العصر كانت

---

(١) لم يكن تلقيب الشعب اياهم بهذا اللقب « شياطين السلاطين » اشارة ساذجة الى ما امتازوا به من السرعة وانما كانت اشارة تنطوي على حقيقة اسرهم (مطالع البدور للغزولي حـ ٢ ص ٢٦٤)

(٢) J. Maspero et G. Wiet, Matériaux pour servir à la géogr. de l'Egypte ص ٤٥ ، Précis حـ ٢ ص ١٠٩

(٣) Arch. de l'Or latin جـ ٢ وص ٩٣

(٤) ابن خرداذبه ص ٨٠ ، المقريزي طبعة فييت جـ ٤ ص ٨٥ بخصوص مقياس البريد قارن Corpus inscr. ar., Jerusalem جـ ١ ص ٢٧ — ٢٨

(٥) ابن خرداذبه ص ٨٤ . هذه المسافة مبالغ فيها رغم ما يمكن ان يكون فيها من منعطفات ولذا يلزم فرض وجود اخطاء في المخطوطات

(٦) Nasir-i-Kkusrau ص ١١٨

القوافل التجارية منظمة تنظيماً دقيقاً وكانت تتلاحق في فترات منتظمة وكان للافراد أن يلحقوا بها فاذا نظرنا الى تنقلات الموظفين الكثيرة وحدها أمكننا ان نقدر كيف كان السفر بالبر أمراً مألوفاً

وسندرس الآن أهم الطرق التي حسنها السلطان بيبرس الاول ان لم يكن قد أنشأها . كان ذلك السلطان مهتمًّا بأن يكون السفر آمناً هيناً ،وكانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج اليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولاستتباب الامن قال فيها المقريزي « ان المرأة تسافر من القاهرة الى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لاتحمل زاداً ولا ماء»[(١)]

وابن بطوطة رحالة القرن الرابع عشر الكبير يتكلم عن وجود فندق في كل منزل:« وبكل منزل منها فندق يسمونهُ الخان ينزله المسافرون بدوابهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته»[(٢)]

وقد يكون من السخف أن نعزو الى السلاطين المماليك تأسيس هذه الفنادق فانهم انما هم أشاعوا استعمالها والحق أننا نعرف انهُ كان في سوريا خانات أو فنادق من أواخر القرن الثاني عشر[(٣)] والنصف الاول من القرن الثالث عشر[(٤)] بل قبل ذلك ابدى ناصر خسرو اعجابه بعظم اتساع مائتي فندق بمصر القديمة[(٥)] . والسلاجقة كانوا أسبق الى بناء نوعين من المباني على جانبي الطرق بأسيا الصغرى : نوع يسمى الرباط[(٦)] وهو فندق المسافرين .

---

(١) Précis ج ٢ ص ٢٥٨

٢ ابن بطوطة ج ١ ص ١١٢

٣ قارن [illegible] Creswell, [illegible] ج ٤ ص ١٣٤ وما يليها ، Voy. de Oaithay ص ٢٠ رقم ٢ ، [illegible] ج ٣ ص ٢٧٣

٤) VanBerchem, Inschr. aus d. Ostjordanlande. Zeitschr. d. deutsch Palas [illegible] ١٦ ص ٨٥ ، [illegible] Dussaud et Macler, Mission en Syrie [illegible] ص ٧٣٠ ، Clermont [illegible] Ganneau, Rec. d'arch. orientale ج ١ ص ٢٤٢ ، Littmann, Sem. Inscription ص ٢٠٤

٥) [illegible] Nama [illegible] ص ١٥٦

٦ قارن [illegible] Rév. sém [illegible] Huart, Epigr. ar. d'Asie mineure ج ٢ رقم ٢٢ Riefstahl, Southwest. Anatolia, p. 5[illegible]

للوقوف على ما للفظه رباط من معان مختلفه قارن Précis ج ٢ ص ٢٧٠ — ٢٧١

والثاني يسمى الخان [1] وهو الذي ينزل فيه التجار ببضائعهم . وكانت طرق البريد سواء في سوريا أم في مصر مجهزة بالخانات وقد بقي بعضها حتى يومنا هذا ويسمى أحياناً بعض القرى باسمائها [2] فخان الاحمر بفلسطين أوقفه بانيه «وحبسه وسبله على الصادرين والواردين من الناس اجمعين [3]» وتأسس على ابواب مصر خان يونس ، في أواخر القرن الرابع عشر ، أسسه عامل للسلطان برقوق مشهور باهتمامه الفائق بالفقراء والمعوزين كما جاء في كتابة تأسيس الخان التي ورد فيها فضلاً عن ذلك ان الانتفاع به كان بالمجان

ولا شك ان المراكز الكبرى كانت مجهزة بابنية تسمى بحسب العصر والمكان والغرض الذي شيدت من أجله خانات أو فنادق او وكالات. وقد انتقلت لفظة الوكالة الى اللغة الفرنسية في العصور الوسطى بهذا الشكل okel أو okelle [4] والمقريزي المؤرخ الكبير يبدأ بيانه عن خانات القاهرة [5] بخان مسرور المعروف لقراء الف ليلة وليلة. وكان ذلك الخان مركزاً كبيراً لتجارة الرقيق كان الناس يباعون فيه كما تباع الحيوانات [6] وكان خان آخر يؤدي عملية من

(١) قارن المرجع السابق للمؤلف هيار Huart رقم ٩ و ١٢ و ٢١ ، المرجع السابق للمؤلف Riefstahl ص ٩٠ و ١٠١ ، Ismail Hakki, Tokat Kitabéler ص٦٧ و ٧٤ و ٧٥ و ٨٧ ، Gabriel, Mon. turcs d'Anatolie ص ٨٥ — ٨٨ و ١٥٩ ، Sarre, Reise in Kleinasien de Jerphanion, Mél. d'archéol. anatolienne, Mél. de l'Univers ج ١ ص ٩٨ — ١٠٠ de Beyrouth ج ١٣ ص ٥٦ — ٧٠

وعن الاقاليم الاخرى في الامبراطورية الاسلامية قارن Quatrmère ومسالك الابصار ص٢٠٩ و٢١١

وقد أساء الرحالة فرسكو بالدي فهم تلك الكلمة فحملها معنى سخيفاً مطبوعاً بطابع التحيز والجهل اذ قال « وكان المسيحيون الفرنجة يحبسون في بناء يسمى il cane وكان القائم على حبسهم اسمه Canattiere ومعنى هذا انا كلاب » ابن بطوطه ج ١ ص XXVIII من مقدمة Defremery et Sanguinetti لهذا الكتاب)

(٢) قارن Corpus inscr. ar., Jérusalem ج ١ رقم ٨١ و ٩٦ ، Bischof. Hist. d'Alep ص١٥٥ ، Voy. de Qaitbay ص ٧ و ٢١ و ٢٣ و ٢٨ و ٣٢ ، Dussaud, Topogr. historique de la Syrie ص ١٠١ ، Van Berchen et Fatio, Voy. en Syrie ج ١ ص ٦٣ و ٢٠٦ و ٢٦٦

شرع صديقي J. Sauvaget في كتابة بحث عن Les routes et les monuments du barid Mamelouk dans les provinces Syrienne.

(٣) Wiet, Cat. des objets en Cuivre ص ٩٣

(٤) Dozy, Dictionnaire ج ٢ ص ٨٣٥ ، [illegible] ج ٢ ص ٤

Hautecœur et Wiet, Mosquée ص١٠٨

٥ المقريزي ج ٢ ص ٩٢

(٦) Les pérégrinations de Breydenbach ص ٥٠

عمليات البنوك فقد كان التجار يودعونهُ مايمتلكون من ذهب وفضة[١] . وعند مدخل المدينة شمالي باب الفتوح كان خان مخصص لايواء المسافرين بالمجان[٢] ثم خصص فيما بعد بالنظر الى موقعهِ خارج السور لايواء المصابين بالامراض المعدية[٣] . وكان خان قوصون لايزال موجوداً في نفس الحي للتجار الوافدين من سوريا فكانوا يودعونهُ الزيت والسمن والصابون والمشروبات[٤] والفستق والجوز واللوز والخروب[٥] . وفي خان التفاح بالقرب من مسجد المؤيد كان يعرض مختلف انواع الفاكهة . وخان الخليل الذي احتفظ حتى ايامنا هذه بطابعهِ التجاري معروف تمام المعرفة لدى السياح[٦]

وهذه الوكالات بقيت الى اليوم ولكنها في حالة يرثى لها حتى ما نراه من الوكالات الباقية من العصر التركي في حي بولاق[٧] لا تقل حالتها سوءاً بينما كان الاوربيون في القرن الرابع عشر يعجبون بفنادق القاهرة ذات الحيطان المغشاة بالمرمر والفسيفساء[٨]

وكانت خانات البريد أبسط بناء ولكنها على اتساع كاف لتخصيص محل لاقامة الصلاة ونافورة واحواض الماء الصالح للشرب وسوق صغيرة يعرض فيها ما يحتاج اليهِ المسافر فضلاً عما يلزم للموظفين والدواب من الغذاء . ولذا كان في الامكان تقليل ما يحمل من الزاد والماء الى ادنى حد . ولم تكن الحاجة ماسة الى نقل الادوات اللازمة لنصب الخيام . وكان من صالح التجار انفسهم ان يؤسسوا الخانات ولو في أبسط اشكالها كأن يبنوا قاعة مسقوفة . وقد روى سائح في أواخر القرن الرابع عشر ان التجار الذين كانوا يحملون القمح الى أيلة لبيعهِ الى الحجاج كانوا

---

(١) صادرت الحكومة ما كان مودعاً عند غارة تيمورلنك

(٢) المقريزي ج ٢ ص ٩٣

(٣) Quatrmère, Sultans Mamlouks ج ١ حرف ب ص ٣٦

(٤) Dibs et rubb (قارن ابن بطوطة ج ١ ص ١٨٦)

(٥) المقريزي ج ٢ ص ٩٣ ، Corpus inscr. ar., Egypte ج ١ رقم ١٢٣

(٦) انظر ايضاً وكالات قايتباي بباب النصر وبالقرب من الازهر ووكالة قنصوه الغوري بالقرب من الازهر كذلك (Corpus inscr. ar., Egypte ج ١ رقم ٣١٢ و٣٢٤ و٣٢٥ ، Hautecœur et Wiet, Mosquées ص ٣٢٥ ، Pauty, La défense de l'anc. Ville du Caire. Bull. Inst. Fr. ج ٣١ ص ١٥٣ و١٦٠ . قارن Combe, Alexandrie musulmane. Bull. Soc. Roy. de Géogr. d'Egypte ج ١٦ ص ١٢٩ و١٣١ و١٣٢ و١٣٤ و١٣٧ و ١٤١ و ١٤٣

(٧) قارن المرجع السابق المؤلف Pauty ص ١٧٢

(٨) Voy. de Jean Thenaud, p. V.

مضطرين الى بيعه بأي سعر كان . والحق انهُ لم يكن على الطريق بين القاهرة ومكة من مأوى الاّ بيدر وينبع اي في نهاية الطريق (١)

وفي القرن التاسع عشر عند ما نشأت الملكية الخاصة تعطل نظام هذه الفنادق كأبنية مخصصة لخدمة الجمهور. ولكننا نجد في الوقت الحاضر في القرى الواقعة في المناطق التي تصعب المواصلات فيها بيوتاً للضيوف يقيمها العمد ويخصصونها الموظفين عند مرورهم وللضيوف ذوي الحيثية (٢) .

***

نعود الى البريد الذي نظمهُ السلطان بيبرس الاول فقد حدد مراكز فيها خيول مجهزة في جميع الاوقات لتغيير خيل البريدية . وكان على البريديين ألاّ ينهكوا قواها (٣). وكان في كل مركز من الزاد والعلف مايكفي وكانت الخيل لا تسلم الاّ الى البريدي الذي يحمل تذكرة بصفته (٤) . وكان يحمل فوق هذا لوحاً من الفضة يجعله في عنقه وفيه ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر تتدلى خلف ظهره (٥) وكانوا يوصون بالكتمان الشديد (٦) . وكان هذا البريد مخصصاً لاعمال الدولة الهامة وحدها ومع ذلك كان هناك سوء استعمال لهذه الوظائف . ويروي لنا الفقهاء من القرن الرابع عشر ان البريد كان يستخدم لاحضار مغن مشهور الى البلاط أو مملوك أمرد (٧)

---

(١) Dozy, Dictionnaire ج ٢ ص ٩٣

(٢) Lozach et Hug L'habitat rural ص ١٤٩

(٣) معيد النعم للسبكي ص٤٧ ، Gaudefroy-Demombynes, La Syrie, p. LXXVIII n. 4

(٤) سافر السلطان بيبرس متخفياً فمر اذ لم يستطع ان يستلم خيل البريد (Quatremère, Sultans Mamlouks ج ١ حرف ب ، ٦٢ — ٦٤)

(٥) قارن القلقشندي ج ١٤ ص ٣٧١ ، Gaudefroy-Demombynes, La Syrie, p. CXIII.240 المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨٧ ; Précis، ج ٢ ص ٢٥٣ في الامبراطورية المغولية « يلبس كل واحد حزاماً كبيراً وعريضاً معلقاً به أجراس حتى اذا مشى أمكن رؤيته على بعد » (Le Livre de Marco Polo ص٣٣٨)

(٦) كانت اسرار الدولة موكولة الى الضباط المتعطشين دائماً الى تدبير المؤامرات ، فانتزعت ادارة البريد في عصر المماليك الشراكسة من الداوادار وهو ضابط مملوكي وسلمت مقاليدها الى كاتم السر وهو موظف مدني (Mél. Henri; Basset) Wiet, Secrétaires de la chancellerie; رقم ١١ Précis رقم ٢ ص ٢٤٦ و ٢٤٧

(٧) المرجع السابق تأليف السبكي ص ٤٦ — ٤٧

وكان الطريق الى غزة[١] ثابتاً لم يتغير غير انهُ يتفرع عند بلبيس فيخرج طريق الى دمياط وتأسس مكتب للمراقبة على الحدود السورية المصرية بقطيا ولم يكن في الامكان لكائن من كان أن يجتاز هذا المركز في أي اتجاه الاَّ اذا ابرز جوازاً وكانت تفحص البضائع بقطيا فحصاً دقيقاً وتؤخذ المرتبات السلطانية من التجار[٢]. وكان الطريق من غزة يستمر الى دمشق ومنها الى مدن سوريا الهامة حتى ينتهي عند مدينة حلب ولكننا لا نريد ان نفصل الموضوع فيما يختص بالاقاليم السورية وان كانت سوريا في ذلك الوقت جزءًا من الامبراطورية المصرية . فلنقتصر اذن على القول أن رسائل البريد كانت تقطع طريق سوريا — القاهرة في اربعة أيام[٣]. وتمكن بعض الفرسان من قطعها في يومين وسبع ساعات[٤] ثم في يومين فقط[٥] بل هناك حالة غير عادية لبريد قطع المسافة بين القاهرة وحلب في خمسة أيام[٦] بينما البريد المتوسط السرعة كان يستغرق اربعة وثلاثين يوماً منها تسعة أيام بين غزة والقاهرة[٧]

أما البريد إلى الاسكندرية فكان هناك طريقان أحدهما عبر الصحراء وقد تقدم وصفه والثاني يسير بين فرعي النيل ماراً بقليوب ومنوف. وقد تمكن الرحالة ابن جبير أن يقطع الطريق الثاني في ثلاثة أيام ونصف يوم[٨]

ثم الطريق المحاذي للنيل الى قوص وهي مركز تجاري غاية في عظم الشأن وملتقى الطرق فمنهُ يبتدىء طريق الى أسوان ثم بلاد النوبة ومنهُ يبتدىء الطريق الى عيذاب وهي ميناء على البحر الاحمر ، اتخذه التجار والحجاج على السواء ، وكلا الطريقين يوصل الى مراكز للتعدين ومناجم

(١) انظر القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٧٣ — ٣٧٦ ، Précis جـ ٢ ص ٢٥٨ — ٢٥٩

لدينا وثيقة عجيبة وحافلة بالمعلومات من بداية عصر المماليك وموضوع هذه الوثيقة مشروع لغزو مصر وضعه ضابط صليبي قبل سقوط عكا بقليل (١٢٩١) . وهذه المذكرة المعنونة La devise des Chemins de B... تحتوي على معلومات وافية عن طرق الدلتا Michelant et Raynaud. ... Arch. de l'Or. ... جـ ٢ ص ٨٩ — ١٠١

Itinéraires à Jérusalem, P. XXXI-XXXII. 232-252

(٢) ابن بطوطة جـ ١ ص ١١٢ ، القلقشندي جـ ١٤ ، ص ٣٧٧

(٣) المقريزي طبعة فييت جـ ٤ ص ٨٧

(٤) Quatremère, Sultans Mamlouks جـ ٢ ، ص ٤

(٥) المقريزي طبعة فييت ص ٨٧ رقم ٥

(٦) ابن بطوطة جـ ١ ص ١٦٤

(٧) Quatremère. Sultans Mamlouks جـ ٢ جزء ١ ص ٤٤ — ٤٥ و ٥٣ قطعها السلطان قايتباي في عشرة أيام وسط عاصفة شديدة من الريح والمطر بين غزة والعريش Voy. de Qaitbay ص ٣١ — ٣٣ (٨) ابن جبير ص ٤٤

من الذهب فيما بعد اسوان (١) ومناجم من الزمرد في صحراء العرب (٢)

اما طريق عيذاب فذو شأن خطير في نظرنا لانهُ كان موجوداً منذ العصور القديمة فكان الطريق الذي يوصل بين قبطوس Coptos وبيرينيس Bérénice غير ان بداية هـذا الطريق لم تكن ثابتة في العصر الاسلامي بل تراوحت أحياناً بين قفط وقوص واحياناً كانت عند ادفو بل عند أسوان حتى ثبتت عند قنا حوالي القرن السادس عشر. وقد قدرت المدة اللازمة لقطع الطريق بعشرة ايام غير ان هذه المدة في الحقيقة كانت محض استثناء فكان الزمن اللازم اطول منها بكثير (٣). وسنصف هذا الطريق عندما نتكلم عن الحج

وكان ثم طريق آخر عبر الصحراء من قوص الى القصير التي لم تكن لها مطلقاً من الاهمية ما كان لميناء ليكوس ليمان Leukos Limen التي حلت القصير محلها (٤)

وفضلا عن طرق البريد هذه كان هناك طريق خاص يتبعهُ المسلمون الذين يؤدون فريضة الحج الى الكعبة بمكة. هذا الطريق يسير عبر الصحراء في اتجاه يكاد يكون رأسيًّا الى القلزم التي يصل اليها الحاج في ثلاثة أيام (٥). فكان في امكانهِ لهذا السبب ان يصل بعد عبور البحر في عشرين يوماً (٦) الى ميناء الجار وهي ثغر المدينة

ولـكن لم يكن هذا الطريق مألوفاً او على الاصح لم يكن طريقاً رسميًّا كالطريق البري الذي يقطعهُ الحجيج في ستة ايام للوصول الى الحدود المصرية عند أيلة (٧). وليس يستطاع معرفة الزمن الحقيقي للرحلة كلها ابتداء من عاصمة الديار المصرية لاختلاف التقدير فهو يتراوح بين خمسة وعشرين وبين اربعين يوماً (٨)

وفي هذا الطريق توجه فريسكوبالدي الى فلسطين سنة ١٣٨٤ مستخدماً اربعة عشر جملاً عربيًّا وقال في ذلك «ان الجمال الاخرى لا تستطيع تأدية هذا الغرض لتعودها على المعيشة الطيبة فليس

(١) Précis ج ٢ ص ٢١٦ ، Grohmann, Papyr. ar. ص ٢٨

(٢) المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ١٠٩ — ١١١ ، Précis ج ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٥

(٣) Heyd ج٢ ص ٥٨ — ٨٩ ، Maspero et Wiet, Matériaux ص ١٣١ ، Encycl. de l'Islam ج ٢ ص ٩٠٤ — ٩٠٥

(٤) تارن J. Maspero et G. Wiet, Matériaux ص ١٤٧ — ١٤٨

(٥) ابن بطوطة ج ١ ص ٢٧٧ ، المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٣٤

(٦) Nasir-i-Khusrau ص ١٢٣ و ١٦٣

(٧) المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٣٥ ، Wiet. Inv. de la Qalch Guindi. Syria ج ٣ ص ١٤٨ — ١٥٠

(٨) Nasir-i-Khusrau ص ١٢٣ و ١٦٢

بالصحراء علف والماء لا يتيسر وجوده قبل يومين أو ثلاثة أيام[1]. غادرت القافلة القاهرة في اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر صوب المطرية ومنها ضربت في الصحراء أربعة ايام دون أن تجد ماء وعلى ذلك لم تشرب الجمال غير ان الحمير الخمسة التي كانت مطايانا سقيناها من ماء القرب التي كنا نحملها . كنا اشترينا هذه الدواب من مصر وهي تمشي مشية الخيل الصغيرة المسروجة. وفي المساء بلغنا عين موسى فسقينا جمالنا وحميرنا ورأينا قافلة كبيرة من العرب والجمال المحملة ببهار الهند مقبلة نحونا[2] »

فهذا الطريق البري كان لا يمكن استعماله طول مدة الحروب الصليبية لانهُ كانت تهدده جنود أمارتي الكرك والشوبك . واحتلال الفرنجة هذا لم يمنع النقل التجاري بين الشرق والغرب عن طريق مصر ، ذلك النقل الذي حاول الصليبيون الانتفاع به ، ولكنهُ أجبر الحجاج المصريين على اتخاذ وادي النيل طريقاً للذهاب الى البلاد المقدسة[3]. ولا مجال هنا للدخول في تفاصيل معارك صلاح الدين ورينو دي شاتيون وهي على كل حال معروفة جيداً وغاية ما يمكن ان نقول بهذا الصدد ان رينو هذا حاول الغارة على بلاد العرب وتوغلت مراكبهُ في البحر الاحمر لتساعده على تحقيق بغيته اذ نقل اسطوله الصغير على ظهور الجمال الى أيلة وكذلك نقل صلاح الدين مراكب مفككة من القاهرة لتركيبها بالقلزم[4]. واستطاع بحارته وعلى رأسهم رجل نشيط أن يستولوا على أسطول الفرنجة وان يستعيدوا سيطرتهم على البحر الاحمر[5]

اما طريق الجنوب الذي كان يسلكهُ الافراد والتجار قبل الحروب الصليبية فهو منذ بدئه من وادي النيل يهمنا بنوع خاص فناصر خسرو سافر من اسوان واستغرق خمسة عشر يوماً للوصول الى عيذاب على جمل استأجره بدينار ونصف دينار وهو مبلغ زهيد جداً . وصبرت الدواب سبعة ايام دون أكل ولا شرب وقد كتب في هذا الصدد : « كنا ننصب الخيام كل اربع وعشرين ساعة مرة عندما تصير أشعة الشمس شديدة جداً ونظل مقيمين حتى ساعة صلاة العصر . والمحطات التي نحط رحالنا بها محدودة معروفة لدينا اذ لا يمكن أن نقف حيثما نشاء فليس ما يصلح للوقود في كل مكان وانما نجمع في المحطات بعر الجمال وقوداً لطبخ طعامنا وكأن الجمال وهي تسرع الخطى كانت تحس

---

(١) Nasir-i-Khusrau ص ١١٩

(٢) ابن بطوطة ج ١ ص XL—XLI من المقدمة التي كتبها دفريمري وسانجونيتي Defremery et Sanguinetti

(٣) المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨٦

(٤) الظاهر ان صلاح الدين هو الذي ادخل طريقة الصنع هذه (المقريزي طبعة فييت ج ٣ ص ٣٠١ — ٣٠٢، Wiet, Inscr. de la Qalah Guindi ص ١٤٥) وظلت مستعملة بعده (المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٦٦)

(٥) راجع Wiet, Qalah Guindi ص ١٥١، Lammens, La Syrie ج ١ ص ٢٢٥—٢٢٦ Précis Gaudefroy-Demombynes, La Syrie, p. CIV ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١

بغريزتها انها اذا أبطأت تعرضت للهلاك عطشاً . وتتجلى هذه الحالة في مظهرها فلم تكن ثمة حاجة الى حثها على المسير وهي من تلقاء نفسها تتجه الاتجاه الصحيح في الصحراء، فهي وان لم يبد في الافق ما يدل على الطريق تسير متجهة نحو الشرق » [١] . وفي عيذاب يدفع التجار رسوم الجمارك المفروضة ونترقب ريح الجنوب للابحار الى جدة [٢]

وقد سافر ابن جبير سالكاً نفس الطريق غير انهُ كان أقل حظاً من الرحالة الفارسي اذ استغرق ثمانية عشر يوماً لقطع طريق قوص — عيذاب واضطر هذا الحاج الاندلسي ان يقيم ثلاثة وعشرين يوماً في تلك « البلدة الملعونة » مترقباً الرياح الصالحة غير انهُ ذكر ان هذه الميناء من أكثر المواني ازدحاماً « بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة »

وقد امدنا ابن جبير بتفاصيل مؤلمة عن عبور البحر الاحمر من عيذاب الى جدة . وقد كانت هذه الرحلة ، تعد بالنسبة للحاج كارثة حقيقية ثم وصف كيفية صنع المراكب فقال : « والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الانشاء لايستعمل فيها مسمار البتة [٣] انما هي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونهُ الى ان يتخيط ويفتلون منهُ امراساً يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن او بدهن الخروع او بدهن القرش وهو أحسنها » [٤]

وإذا ما عدنا الى الاقاليم الداخلية لاحظنا أن بعض الطرق يعترضها النيل أو الترع . وعلى كل حال يجب عبور النيل خصوصاً في الصعيد للانتقال من ضفة الى أخرى . وكان عبور النيل في مواضع معينة بواسطة معديات [٥] كانت ولا تزال تؤدي مصلحة عامة ويصرف من ايرادات الضرائب الخاصة بها في وجوه صيانتها . ولفظة معدية صارت علماً على بعض الامكنة [٦] كما كان

---

(١) Nasir-i-Khusrau ص ١٧٥ ١٧٧

(٢) Nasir-i-Khusrau ص ١٧٨ — ١٧٩

(٣) انظر في موضوع المراكب المخيطة Le Livre des merveilles de l'Inde, p. XIII والصورة المنشورة المأخوذة عن اللوحة الثالثة من الكتاب المذكور، Tavernier, Voy. en Perse طبعة كارفور Carrefour ص٦ — ٧ . كانت أبله في الامبراطورية الاسلامية مركز الصناعة الرئيسي لهذه المراكب ، وأبله هي ابولوجوس القديمة Apologos (اليعقوبي ص ٣٦٠)

(٤) ابن جبير ص ٦٥ — ٧٣ Nasir-i-Khusrau ص ٢٨٦ - ٢٩٠، المقريزي طبعة فييت ج ٣ ص ٣٠١ ٣٠٢

(٥) ابن جبير ص ٤٤ من طبعة رايت وص ٤٠ من المصطلحات التي شرحها هذا الاستاذ والمقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ١٣ و ٢٣ و ٣٢١

(٦) Combe, Alexandrie musulmane ص ١١٢ و ١٣٠ ١٣٢

الحال في فرنسا اذ لا يزال اسم Berry-au-Bac يذكرنا بدلالته القديمة

وكانت مصر القديمة مرتبطة بجزيرة الروضة بقنطرة وجزيرة الروضة بشاطىء الجيزة بقنطرة أخرى والقنطرتان مشيدتان بالقوارب وصغراها مكونة من ستة وثلاثين قارباً [١]

أما الترع فكان عليها قناطر مبنية بالواح خشبية متحركة ترفع في ساعات معينة من النهار للسماح للقوارب بالمرور [٢] . أما القناطر المبنية بالحجر فقد كانت في مصر نادرة وكانت تشيد على مواضع في النهر أو الترع غير صالحة للملاحة [٣] وقد نشرنا صورة قناطر ابي المنجا وهي تقع شمالي القاهرة على بعد عشرة كيلومترات وان صور السباع التي تتوج شرفتها تسمح لنا بأن نعزو بناءها الى بيبرس الأول [٤] الذي انشأ أو رمم بعض القناطر الحجرية [٥] في سوريا وقد عني بها من جاء بعده من السلاطين [٦]

وكان استعمال المعديات أو القناطر يستلزم في الغالب دفع ضريبة المرور وكذلك كان على القوافل التجارية تأدية عوائد المكس قبل دخول المدن الكبرى وليس لدينا في هذا الموضوع الاقتصادي ولا فيما يماثله من الموضوعات بيانات الا قليلاً مما جاء في كتب المؤرخين واذن لا يسعنا الا الرجوع الى المراسيم النادرة التي بقيت حتى اليوم وهي مراسيم تتعلق بالاعفاء من الضرائب السالفة الذكر فيمكننا ان نقرأ على أحد ابواب دمشق مرسوماً بالغاء رسم سابق تحصيله من القوافل التي اتخذت طريق العراق [٧] كما انا نرى على باب النصر في القاهرة نفسها كتابة تنص على ان الضريبة الواجب جمعها هي خمسة دراهم على كل بعير . ولكن نص الكتابة وما فيها

(١) Nasir-i-Khusrau ص ١٥٣ ، المقريزي ج ١ ص ٣٤٢

(٢) ابن بطوطة ج ١ ص ٦٦

(٣) قارن J. Maspero et Wiet Matériaux ص ٨٦

(٤) وشيدت [illegible] القنطرة وهي من أكبر القناطر المعروفة في سنة ٦٦٥—٦٦٦ (Quatremère, [illegible] ج ١ ب ص ٤٤ ، J. Maspero et Wiet, Matériaux ص ٣٤)

(٥) [illegible] Clermont-Ganneau [illegible] ج ١ ص ٢٦٢ و ٢٦٤ واللوحتين ١٩ و ٢٠ [illegible] Quatremère [illegible] ج ١ ص ٢٥—٢٦ Hautecoeur et Wiet, Mosquée ص ٧٩ [illegible] Voy. du Sult. [illegible] ص ١٤ ، Littmann, Sem. Inscriptions ص ٢١٢ ، [illegible] Von Oppenheim et Van Berchem [illegible] رقم ٣١ ، Van Berchem et [illegible] ج ١ ص ١٠ [illegible] ١٠١ و ٢٦٠ وما يليها ، Hautecœur et Wiet [illegible] ص ١٢٧

(٧) [illegible] Van Berchem, Inscr. ar. de Syrie, Mém. [illegible] ج ٣ ص ٤٥٣

من لغنة المستخدمين الذين يجمعون أكثر من هذا المبلغ يفهم منهُ اننا لسنا أمام تعديل في قيمة الضرائب وانما المقصود هو التذكير بقانون قديم وتفسيره لمنع الحيف عن دافعي الضرائب [١]

ومن الخدمات التي كان يؤديها بريد المماليك وليست اقل اثارة للاهتمام والعجب ، ماكان متعلقاً بنقل الثلج من سوريا الى مصر لسد حاجة البلاط . وابتكار المماليك في هذه الناحية ينحصر على الاخص في ذلك النظام الاداري الدقيق غاية الدقة . غير ان المماليك لم يبتكروا بذلك نوعاً جديداً من الرفاهية فالخليفة الاموي أمر بتصدير الثلج في كل مرة يقوم فيها البريد [٢] الى الجيش السوري الذي بعث بهِ الى بلاد العرب لاخماد ثورة المدينة لالشيء سوى اذكاء روح الشجاعة في نفوس الجند . وفي عصر الفواطم كان بلاط الخليفة يستلم كل يوم اربعة عشر حملاً من احمال الجمال كما كان لاغلب الضباط وكبار الموظفين رواتب من الثلج . ولم تكن الحكومة لتبخل على من يطالب الثلج من السكان تخفيفاً عن المرضى [٣]

ولكن الصليبيين [٤] كانوا السبب في الغاء هذه الادارة التي بلغت في عهد بيبرس الاول ومحمد بن قلاون من سلاطين المماليك غاية الكمال . فقد كان الثلج يجمع في الجبال المحيطة ببعلبك وطرابلس وبيروت ثم ينقل الى دمياط ومنها في النيل الى ساحل بولاق فينقل منهُ على البغال الى قلعة القاهرة فيخزن في صهريج أعد له

وكان لنقل الثلج مراكب اختلفت عدتها باختلاف الاوقات فقد كانت حيناً ثلاثاً وبلغت حيناً آخر احدى عشرة مركباً . وكانت منتظمة الرحلات فيما بين شهري ابريل ونوفمبر من كل سنة . وكان ينقل من الثلج في البر صنف أنظف وأنقى مما ينقل في البحر يقوم بجمعه ويجهز معهُ ثلاجون خبراء بحمله ومداراته طول الطريق وهو خاص بمشروب السلطان وكانت كل نقلة خمسة احمال على هجن وعدة نقلاته اوان الثلج احدى وسبعين نقلة . وكان للهجن منظراً يثير دهشة السوريين [٥] وكان لها مراكز مثل البريد وتتخذ نفس الطريق فمن دمشق الى القاهرة مارة بغزة وبابيس [٦]

---

(١) Corpus inscr. ar., Egypte ج ١ رقم ٣٥

(٢) Lammens, Yazid Ier, Mél Faculté or de Beyrouth ج ٥ ص ٢٣١

(٣) Nasir-i-Khusrau ص ١٥٨

(٤) كان الصليبيون يستعملون الثلج بنفس الطريقة Rey. Colonies franques de Syr ص ١٠ ولنذكر هنا ان لفظة Sorbet مأخوذة من اللفظة العربية شربات

(٥) Voy. de Qaitbay ص ١٠ (٦) قارن التعريف لابن فضل الله العمري ص ١٩٧—١٩٩ القلقشندي ج ١٤ ص ٣٩٦—٣٩٧ ، Gaudefroy-Demombynes, La Syrie ص ٢٥٥—٢٥٧ ، المقريزي ص ١١٧—١١٨ ، Van Berchem et Strzygowski, Amida ص ١١٩ ، Précis ج ٢ ص ٢٥٧

ومهما كانت سرعة البريد الملكي فانها لم تكن كافية لنقل الاخبار العاجلة جداً وعلى ذلك كانت هناك مطارات للحمام الزاجل منتظمة وقد قال المؤرخون العرب ان بداية استعمالها كانت في أواخر القرن الثامن غير ان المصادر الصينية تدلنا على ان استخدامها يرجع الى سنة ٦٧٣ . والمظنون ان العرب او الهنود هم الذين ادخلوا الحمام الزاجل الى الصين(١)

كان الافراد في مصر يعتنون بتربية هذا الحمام في بداية القرن التاسع وكانت الحكومة تستخدمهُ في أغراضها غير اننا لا نملك من النصوص ما يؤيد ذلك . واهتم الناس بشأنه في عصر الفواطم ايضاً كما استخلصنا من حكاية غريبة مؤداها ان وزير الخليفة العزيز ارسل يوماً رسالة بالحمام الى دمشق يأمر بتسريح بعض الحمائم الى القاهرة بعد تعليق حبات من الكرز فيه فانطلقت مائة وعشرون حمامة صوب العاصمة فوصلت أبراجها الا عشر منها في ثلاثة أيام أو اربعة على اكثر تقدير(٢)

أما المماليك فقد قاموا بتنظيم بريد الحمام تنظيماً دقيقاً فأسسوا مراكز هامة بقلعة القاهرة وغزة ودمشق وحلب ومراكز ثانوية على طول الطريق . وكان الحمام الملكي يحمل برقبته واقدامه علامات مميزة . وأما الرسائل فكانت تكتب على ورق من نوع خاص رقيق جداً ثم توضع تحت ابط الحمامة أو ذيلها (٣)

وفي الجملة فان مركز مصر الجغرافي يعين تمام التعيين دورها الاقتصادي فطرق مواصلاتها تعمل على توكيد تقدمها التجاري فتعقد العلاقات عن طريق البحر الاحمر مع بلاد العرب والشرق الاقصى من جهة ومع حوض البحر الابيض المتوسط عن طريق موانيها من جهة أخرى . وكان قلب الحياة النابض في شمال مصر اذ كان التبادل التجاري في أوسع حدوده قائماً بميناء الاسكندرية

---

(١) Chau-Ju-Kua ص ٢٨ رقم ٢ (٢) وقد آثرت رواية المقريزي على رواية القلقشندي الذي عجل بالحوادث وجمعها في يوم واحد (Wiet, Notes d'épigraphie, في مجلة Syria ج ٦ ص ١٧٠ رقم ٧)

٣) القلقشندي ج ١٤ ص ٣٨٩ — ٣٩٤، Gaudefroy-Demombynes. La Syrie ص LXXXVIII وص ٢٥٠ — ٢٥٤، Quatremère, Sultans Mamlouks ج ٢ ب ص ١١٥ — ١٢٠

تاريخ
العمارة الاسلامية بمصر

نشوؤها - تطورها — وارتقائها

للاستاذ محمود احمد
مدير ادارة الآثار العربية

تاريخ العمارة الاسلامية بمصر

ولد نبينا صلى الله عليه وسلم بمكة سنة ٥٧١م . واذا لم يكن لهذه السنة تأثير معين في الصناعات والفنون فان هناك اجماعاً على انها بداية ظهور قوة سماوية واخرى عالمية بسطت سلطانها على العالم المتمدين وقتذاك في مدة لا تتجاوز المائة عام . وسرعان ما خلقت من نبوغ الامم المقهورة طرازاً عمارياً خاصاً احتفظ بذاتية ظاهرة على الرغم من تعدد أصوله واختلف عن طرز عمارات تلك الامم التي كان صناعها اداة في خلق ذلك الطراز العماري الاسلامي البديع

وليس ببعيد ان كانت « عقيدة الاسلام » هي العامل القوي على تعديل الاساليب العمارية المحلية المختلفة وان كان المسجد هو أهم ما تتمثل فيه تلك الاساليب التي وان تنوعت بتنوع البقاع والمناخ الا انها ظلت دائماً وأبداً محتفظة بمميزاتها الرئيسية

ولقد كان لمصر — وهي موئل الآثار — قسط وافر من النهوض بالعمارة الاسلامية حفظ لها سلسلة من البنايات متصلة الحلقات منذ الفتح العربي لمصر الى الآن . مع تفاوت يسير يلائم كل عصر قامت فيه تلك البنايات . وفيما كشف من آثار الفسطاط - اولى آثار العرب بمصر — دلالة قاطعة على ان طراز العمارات الاسلامية بمصر يفوق من بعض الوجوه نظائره في الاقطار الاخرى كما ان بنايات القاهرة — ولاسيما المساجد — تمدنا بمستندات قيمة متواصلة عن الصناعات التي استخدمت في بنائها وزخرفها أكثرمنها في بنايات أية مدينة اسلامية أخرى . وان الزخارف البسيطة البديعة التي أخرجتها يد الصانع المصري لتظهر جلالة قدر هذا الطراز العماري العجيب وثابتة تبقى شكلاً متميزاً من كل ما عداه لانه مع اقتصاره على عناصره الطبيعية فانه يرغم الفنان على الاعجاب به بينما نرى في معظم الطرز الاسلامية الاخرى استخدام عناصر كثيرة البهرجة ربما كانت شيئاً ومواد البناء مأخوذة من بنايات أخرى

ومع ان بداية تاريخ العمارة الاسلامية يجب ان تكون عقب الهجرة النبوية مباشرة الا ان الزمن لم يحفظ لمصر شيئاً يذكر من آثارها منذ فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ — ٢٠ هـ (٦٣٩ — ٦٤٠ م) في عهد ثاني الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى منتصف القرن الثالث الهجري حيث تعاقب على مصر أكثر من مائة وال لم يترك احد منهم شيئاً يذكر سوى عمرو بن العاص الذي اختط أول عاصمة اسلامية بمصر سماها الفسطاط وانشأ بها جامعه المعروف

(سنة ٢١ هـ ٦٤١—٦٤٢م).وسوى مقياس النيل بجزيرة الروضة الذي بني سنة ٢٤٧هـ(٨٦٢م) بأمر الخليفة المتوكل على الله العباسي

اما بعد ذلك فآلت ولاية مصر سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨—٨٦٩ م) الى احمد بن طولون الذي كان والده من موالي الخليفة العباسي ببغداد . وهو الذي لم يمض على ولايته سنتان حتى اعلن استقلاله وأسس الدولة الطولونية التي حكمت من سنة ٢٥٧ هـ الى ٢٩٢ هـ (٨٧٠—٩٠٥ م) اي زهاء ٣٤ سنة تولى الحكم في خلالها خمسة ملوك هم أحمد ابن طولون فابنهُ خمارويه فابو الجيش ابن خمارويه فهرون بن خمارويه فشيبان بن أحمد بن طولون . غير أن تاريخ العمارة لم يصل الى علمنا الاّ عن احمد بن طولون مؤسس هذه الدولة وعن خلفه خمارويه . اما الاول فلانهُ انشأ عاصمة جديدة سماها (القطائع) وموقعها الآن (حي طولون) وذلك بدلاً من العاصمة التي انشأها الولاة العباسيون وهي (العسكر) التي أسسها شمالي الفسطاط اباعون والي مصر من قبل ابي عباس السفاح سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م)

على أن اهم ما يعنينا من منشآت ابن طولون انما هو جامعه الذي انشأه سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ — ٨٧٩ م) وسط عاصمته الجديدة والذي ربما كان اهم بناية في جميع ادوار العمارة الاسلامية بمصر لأنهُ يمثل انموذج اكبر نوع من جوامع العصور الوسطى وهو مربع الشكل تقريباً تحيط بهِ من جهاته البحرية والقبلية والغربية زيادات ثلاث لم تتواجد في غيره من مساجد مصر . نعم ظهر في جامع عمرو ما يسمى بالزيادات لكنها كانت على صورة اخرى وفي الجهة البحرية وجزء من الجهة الغربية

وميزة ثانية هي الدعائم الحاملة للعقود الحدوية المدببة وبنيت كبقية احزاء الجامع — ما عدا المنارة — من الآجر وقد حلت هذه الدعائم محل الاعمدة التي كانت تجلب من المعابد والبنايات القديمة لهذا لا نرى في الجامع سوى اربعة أعمدة من رخام المحراب وفي وسط الصحن المكشوف المحاط بالايوانات الأربعة فوارة تعلوها قبة حلت محل فوارة الاصلية انشأها السلطان حسام الدين لاجين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦—١٣٠٠ م) وهذه الفوارة اتخذت نموذجاً نسج على منواله منشئو المساجد في عهد دولتي المماليك

واعجب مما تقدم مئذنته المنعزلة ذات السلم الخارجي الحلزوني المقتبسة من مآذن العراق المعروفة (بالملوية) . وهذه المئذنة المبنية بالحجر هي أول وآخر منارة بنيت بمصر على هذا الشكل . على اننا لا ننسى ان الجزء العلوي من المنارة تجدد في وقت ما جدد السلطان حسام الدين لاجين ايضاً كما صنع المنبر الحالي الذي يعد بحق طرفة فنية قليلة النظير

أما سقف الجامع فانهُ تجدد بشكله العربي القديم بعد ما استعيض عن الخشب بالسمنت المسلح

الذي غلف بالخشب ودهن بطلاء اكسبهُ هيئة القديم ولعل هذه اول مرة عمل فيها سقف جامع اثري بمصر من السمنت المسلح

اما المحاريب الجصية المستوية — وهي غير المحراب الاصلى المجوّف — المثبتة في بعض اكتاف ايوان المحراب فجميعها من صنع الخلفاء والفاطميين ماعدا اثنين احدهما انشأه — السلطان لاجين على مثال المحراب المستنصري المجاور له والآخر بجدار القبلة .

ويشتمل الجامع — عدا ما تقدم — على مجموعة عديمة النظير من الشبابيك الجصية المكونة من اشكال هندسية منتظمة يحوطها اطارات محلاة بكتابات كوفية تارةً وباشكال نباتية تارةً أخرى.

هذا هو الجامع الرائع الذي خلفهُ لنا الامير احمد بن طولون

اما ابنهُ وخلفهُ (خمارويه) فشيد قصراً فخماً وسط حديقة غناء قصد بهما صاحبهما ان يكونا اعجوبة الدهر فأمر بطلاء جدران القصر بالذهب الخالص ورسم عليها صور محظياته بحجمهن الطبيعي وكتب الاشعار بالعشب المختلفة الالوان في ارض بستانه وكسا اجسام النخيل نحاساً مذهباً وغير ذلك مما توسع المؤرخون في وصفه[1] وصفاً لا يكاد يصدق

وقد بقي هذا القصر قائماً الى سنة ٢٩٣ هـ (٨٠٥ — ٩٠٦ م) حيث ارسل الخليفة العباسي المتوكل قائده محمد بن سليمان فقضى على دولة الطولونيين فدمر القصر وخرب البستان وحرق أكثر القطائع ليمحو كل أثر طولوني واعاد مصر الى حظيرة العباسيين مرة اخرى فتوارد عليها ولاتهم من بغداد مدة ثلاثين سنة كانت فيها أحوالها في غاية من الارتباك والاضطراب الى ان ولي حكمها محمد بن طغج الاخشيد سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤ — ٩٣٥ م) فقبض على ازمة الحكم ثم ما لبث أن استقل بمصر وأسس الدولة الاخشيدية التي حكمت الى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) حيث سادت مصر الفوضى والفتن فارسل اليها المعز لدين الله الفاطمي جيشاً تحت قيادة جوهر الصقلي فانتزعها من الاخشيديين الذين لم يتركوا خلفهم أثراً فنيًّا يذكر ومن ذلك الحين دخلت مصر في حوزة الفاطميين الذين كانوا على شذوذهم وابتداعهم من اعظم دول الاسلام ملكاً وأشدهم للعلم نشراً وأطولهم على الناس عائدة وفضلاً وأرقاهم حضارة وأنبلهم ادباً وتمتعاً . وهم الذين ابتدعوا عادة الاحتفال بمولد أهل البيت وأحدثوا كثيراً من المواسم والاعياد. وكان شغفهم بجمع التحف والذخائر النفيسة مما لم يسمع بمثله عند غيرهم من الامم الاسلامية . وقد تفوقوا في العلوم الآلية والفنون الجميلة فازدهرت في ايامهم جميع أنواع الصناعات وكانت لهم دور كتب عديدة اشهرها دار الحكمة التي كان مرضها غرف جمع برفوف بالنحاسين . كذلك أنشأوا القصور والبساتين والمناظر في ضفاف النيل وحول القاهرة

---

(١) المقريزي ج ١ ص ٣١٦

وكانت اولى اعمال جوهر لما عبر النيل بجيشهِ من الجيزة الى الفسطاط في يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ٨٧١ م ان سار الى المناخ الذي اختاره مولاه المعز موضعاً للقاهرة فاستقر هناك واختط القصر كما اختطت كل قبيلة من قبائل جيشهِ خطةعرفت بها كزويلة والبرقية والروم وأحاطها بسور منيع يصد عنهُ هجمات القرامطة عليهِ . غير ان هذه البنايات دثرت فلم تترك خلفها الاّ بضع قطع من ابواب واخشاب منقوش عليها صور حياتهم العامة من مناظر صيد ومجالس انس وانشراح ثم مجموعة من الخزف البالغ حد الاتقان وكلها مودعة دار الآثار العربية

اما البنايات الدينية فقد أبقت لها الايام على طرائف عمارية سامية القدر أهمها الجامع الازهر فجامع الحاكم فجامع السلطان الصالح طلائع بن رزيك فغير ذلك من البنايات التي لا يتسع المجال لوصفها

الجامع الازهر

هو أول جامع بني بالقاهرة فرغ القائد جوهر من بنائهِ سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ — ٩٧٢ م) وكان الغرض من بنائه في اول الامر

١ — ان يكون مسجداً جامعاً للعاصمةالفاطمية الجديدة اسوةً بالجامع الطولوني بالقطائع وبجامع عمرو بالفسطاط

٢ — ان يكون معهداً لفئة معينة من الطلاب المتأثرين بالدعاية الفاطمية يتلقون فيهِ اصول المذهب الشيعي — مذهب الفاطميين — على اساتذة شيعيين حتى اذا أتم هؤلاء الطلاب دراستهم كانوا بدورهم اساتذة لسواهم يتعاونون جميعاً على نشر تعليم هذا المذهب بين طبقات الشعب المصري الذي كان حينذاك شديد التمسك بمذهب أهل السنة

هذه هي الغاية الاساسية من تلك الدروس عاشت طوال مدة الحكم الفاطمي وماتت بزوال ذلك الحكم على يد صلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٦٧ هـ (٧١ ١١ م) . وكان نصيب الجامع الأزهر من هذه الحركة ابطال الخطبة والتدريس فيهِ حوالي مائة عام الى ان دالت دولة الايوبيين وقامت دولة المماليك البحرية واعتلى عرش مصر السلطان الظاهر بيبرس فاستقبل الجامع عهداً جديداً عهد انتعاش فنمو فازدهار فثراء ما لبث بعده ان دار أشهر جامع بين جوامع الاسلام بل وأعظم معهد تقصده الوفود من جميع انحاء العالم الاسلامي لتلقي العلم الذي امرهم دينهم الحنيف بتطلبهِ هذا الى انهُ اكبر معهد ديني تقصده الوفود من جميع الاقطار الاسلامية جمع كل طوائف المسلمين في مركزه المبارك فتراهم مؤتلفين جميعاً مع تفرق اجناسهم واختلاف أوطانهم وعلى هذه الصفة أصبح الجامع الازهر مجتمعاً ثانياً للمسلمين يجتمعون فيهِ اعواماً بينما هم يجتمعون في موقف الحج اياماً معدودات من كل عام

وطالما وقف الازهر رابضاً امام الاغرار المتفيقهين من كتاب وأعلام الاعجام فكانت رسالتهُ دائماً رسالة الاسلام. وهاهي صفحات التاريخ ترينا ان أثر الازهر تغلغل في الحياة المصرية واتصل بجميع حركات الفكر التي قامت بمصر واستعانت بسلطانهِ فتصدر زعامتها المصرية في كفاحهِ السياسي والديني والاجتماعي وتزعم شيوخ الأزهر المصريون لان هؤلاء كانوا يستروحونهُ الشعور الديني وكانت تمثل في حلقهم وارشادهم تلك القوى الحية التي نماها الاسلام وقواها وما عهد نابليون ومحمد على الا من أواخر الشواهد على ذلك

نعود الى وصف الجامع الازهر فنقول :- - انهُ أول ما بني كان مسطحهُ يقرب من نصف مسطحه الحالي ثم ما لبث أن اضيفت اليه بنايات اخرى في أزمنة مختلفة حتى وصل الى الحالة التي هو عليها الآن . وأول ما يقابل الداخل اليه من الناحية البحرية — ناحية ميدان الازهر — بابان متجاوران يعرفان بباب المزينين أنشأهما الامير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٦هـ (١٧٥٣ — ١٧٥٤ م) وهما يؤديان الى مجاز محصور بين مدرستين احداهما اليسرى (الشرقية) تعرف باسم « المدرسة الاقبغاوية » نسبةً الى منشئها الامير « اقبغا عبد الواحد » سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩ م) وبها الآن دار كتب الازهر. ومحرابها من أبدع محاريب القاهرة. والمدرسة الثانية هي «المدرسة الطيبرسية » نسبة الى منشئها الامير طيبرس العلائي سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) وهي مستعملة كملحق للمكتبة وبها محراب جميل زخرفه على نظام خاص وقد اصلح وجهتها الامير عبد الرحمن كتخدا السابق الذكر الا انهُ حفظ بشبابيكها المكونة من اشكال هندسية صنعت من النحاس المصبوب الذي لم يستخدم الا في بعض آثار أخرى

وتنتهي المجاز [illegible] ناحية القبلة بباب تجاوره منارة وكلاهما من انشاء السلطان قايتباي سنة ٨٧٣هـ ([illegible]) [illegible] صناعة الزخرف في الحجر غاية الابداع

[illegible] ان هذا الباب حل محل الباب الاصلي للجامع وقتما أنشأه [illegible] محيط به رواقات اربعة محمولة وجهاتها على عقود فارسية [illegible] باب قايتباي قبة محمولة على اعمدة واكتاف [illegible] وكتابات كوفية وفي بعض جوانبها شبابيك جصية مجمعة على أشكال هندسية [illegible] مجاز ([illegible]) سقفهُ مرتفع عن باقي سطح الجامع [illegible] حاملة نعقود على سطحها زخارف وكتابات كوفية [illegible] الزخارف الجصية التي كشفتها ادارة حفظ الآثار العربية [illegible] في [illegible] مدار النبلي الجامع والذي لايزال جزؤه [illegible] بعض نوافذ والزخارف الجصية الاصلية . اما الجزء

المرتفع الكائن خلف هذا الجدار حتى الجدار القبلي الحالي فهو من أنشاء عبد الرحمن كتخدا أيضاً صاحب المدفن الكائن غربي هذا الجزء داخل باب الصعايدة. كذلك توجد في الجهة القبلية الشرقية للجامع المدرسة الجوهرية التي أنشأها جوهر القنقبائي سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠ م) وهي من أظرف عمارات القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) فزاوية العميان المنشأة سنة ١١٤٨هـ (١٧٣٥ م) فمدفن صغير

وإذا ما انتهى الزائر من زيارة داخل الجامع وازمع الخروج الى ميدان الازهر يرى وهو واقف في الصحن منارة عالية على يسار منارة قايتباي تكاد تكون عديمة النظير بين منارات مصر فبدنها العلوي مكون من ست عشرة ضلعاً بينما اضلاع غيرها لا يتجاوز الثماني عدا وهو في الوقت ذاته مطعم بالقيشاني الجميل وتنتهي المنارة برأسين بدل رأس واحدة ولم يسبقها الى ذلك سوى منارة مدرسة السلطان أبي النصر جانبلاط[1] التي أنشأها تجاه باب النصر حوالي سنة ٩٠٥هـ (١٤٩٩ — ١٥٠٠ م). ثم منارتين أخريين بناهما الامير قايتباي السيفي اميراخور سنة ٩٠٨هـ — ٩١١ (١٥٠٢ — ١٥٠٥ م)

هذه المنارة هي منارة السلطان الغوري آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة بناها سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م)

جامع الحاكم

أمر ببنائه العزيز بالله نزار ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر سنة ٣٨٠ هـ (٩٩١م) ولم يكمل الا في عهد ابنه الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣ هـ — (١٠١٢—١٣ م)

والناظر الى هذا الجامع كما بني يرى شبهاً بينه وبين الجامع الطولوني اذ ان كليهما مبني بالآجر ما عدا المآذن فهي من حجر وعقودها المدببة محمولة على اكتاف مستطيلة في اركانها اشباه اعمدة وكل من صحنيهما محاط بأروقة اربعة اكبرها ليوان المحراب وسقفاهما من خشب ورغم هذا التشابه فان الجامع الحاكمي يتفوق على الجامع الطولوني من نواح أخرى فعلى طرفي جدار المحراب أقيمت قبتان تتوسطهما قبة ثالثة فوق المحراب بينما الجامع الطولوني ليس فيه الا قبة واحدة فوق المحراب. كذلك أقيم على الوجهة العربية للجامع منارتان يتوسطهما الباب العمومي بينما الجامع الطولوني ليس فيه الا منارة واحدة منعزلة. اما شرفاته المبنية بالطوب حول الصحن فمفرغة بكيفية لا مثيل لها في جوامع القاهرة. ويتجلى جمال الزخارف الفاطمية في الكتابة الكوفية في الازار الجصي تحت السقف وفي بدني المنارتين وفيما بقي من الشبابيك

(١) الجبرتي ج ٣ — ص١٥٩ وابن اياس — ج٤ ص ١٨ وآصار شذرات الذهب ج٨ ص ٢٨

برقبة القبة التي تعلو المحراب والشبابيك الجصية بجدار المحراب وهذا الجامع ككثير غيره عدا عليهِ الدهر فألحق بهِ اضراراً متعددة في أوقات مختلفة اشدها زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) الذي دمر كثيراً من العقود والاكتاف وأسقط السقف وقمتي المئذنتين. فندب السلطان الناصر محمد بن قلاون الامير بيبرس الجاشنكير لاصلاحهِ فأصلحهُ سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣—١٣٠٤ م) ثم عملت بعد ذلك اصلاحات ثانوية الى ان كانت سنة (١١٢٣هـ ١٨٠٨م) حيث قام السيد عمر مكرم نقيب الاشراف بمصر فجدد أربعة أروقة بالايوان الشرقي وجعلها مسجداً للصلاة ثم كسا القبلة بالرخام ووضع بجوارها منبراً غير أن الجامع ما بث ان تخرب فاستخدمهُ ديوان الاوقاف مخزناً عاماً لادوات المساجد كما بنيت فيهِ عدة حجرات عملت متحفاً للآثار العربية الى ان أنشئت دار الآثار الحالية سنة ١٩٠٣ فنقلت اليها وحلت محلها مدرسة السلحدار الابتدائية

وقد لفتت لجنة حفظ الآثار العربية نظر وزارة الاوقاف الى ضرورة اخلاء الجامع مما فيهِ من أدوات ليتسنى اصلاحه تدريجيا

ابواب القاهرة

لم يبق من أبواب القاهرة سوى ثلاثة أبواب هي:

باب النصر، وباب الفتوح، وباب زويلة. فالباب الاول كان موضعهُ عند زاوية القاصد بشارع باب النصر ثم نقل الى موضعه الحالي عند ما جددهُ بدر الجمالي سنة ٤٨٠ هـ(١٠٨٧م) كما يستدل على ذلك من الكتابات التي تعلو الباب. وفي عهد الاحتلال الفرنسي لمصر سنة ١٢٠٢ — ١٢١٦ هـ (١٧٩٨ — ١٨٠١م) قام الفرنسيون ببعض ابنية في أعلى الباب كما كتبوا أسماء بعض القواد على الأبواب العليا

ويتصل باب النصر بباب الفتوح بطريقين أحدهما على ظهر السور والآخر تحته وهو ممر معقود بالحجر بكيفية تعطي فكرة عن نظام الحصون في ذلك العهد

والباب الثاني باب الفتوح كان موضعهُ عند بناء جوهر الصقلي بالدرب عند رأس حارة بين السيارج ثم جدده بدر الجمالي في موضعه الحالي سنة ٤٨٠هـ(١٠٨٠م) ومما يستدعي النظر في هذا الباب الكوابيل التي في أعلى المدخل على شكل كبش بقرنيهِ وهذا هو النموذج الوحيد في الآثار الاسلامية بمصر

والباب الثالث باب زويلة — أنشأهُ بدر الجمالي سنة ٤٨٤ هـ(١٠٩١م)

ولما شرع الملك المؤيد شيخ المحمودي في انشاء جامعه المجاور لهذا الباب سنة ٨١٨هـ(١٤١٦م) انتهز مهندسهُ فرصة وجود برجي الباب فهدم أعلاهما وأقام منارتي الجامع عليهما. وعلى ذكر اعمال

بدر الجمالي نشير الى ظهور عنصر جديد في العمارة الاسلامية هو العقد المسمى (بالفارسي) الذي يرى في الجامع الاقمر بشارع النحاسين وفي العقود المحيطة بصحن الجامع الازهر وغيره . أي بعد ظهوره اولاً في تربة بدر الجمالي حوالي سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧م)

وتلا ظهور العقد الفارسي ظهور عنصر جديد آخر هو طراز كامل للمآذن التي احتفظت بشكلها الاصلي الى الآن . وأول مئذنة من هـذا القبيل هي مئذنة الجامع العمري باسنا الذي أنشأه بدر الجمالي سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) فمئذنة جامع الجيوشي الذي أنشأه الافضـل شاهنشاه سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤م)

نعم ان منارة الجامع الطولوني أقدم عهداً من هاتين المئذنتين إلاَّ انهُ علاوة على وجود نزاع حول طرازها وهل هي المئذنة الاصلية للجامع فان جزءها العلوي جدده السلطـان لاجين المنصوري سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) كذلك مئذنتا الجامع الحاكمي وان بنيتا بالحجر سنة ٣٨٠ هـ ٤٠٣ (٩٩٠—١٠١٢م) الاَّ ان جزئيهما العلويين جددهما الامير بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٢ م)

وفي أوائل القرن السادس الهجري (الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي) حدث تطور عماري آخر بأن بدىء باحلال الحجر مكان الآجر في وجهات المساجد . فكان الجامع الأقمر الـكائن بشارع النحاسين والذي أمر بانشائه الخليفة الآمر الفاطمي سنة ٥١٩ هـ (١١٩٥ م) أول جامع بنيت وجهاته بالحجر المنحوت وفي هـذه الوجهات استعمل المفرنص لأول مرة أيضاً ، أما قبل الجامع الأقمر فلم يستعمل الحجر الاَّ في مدخل الجامع الحاكمي مع كونه استعمل في مئذنتيه وفي مئذنة الجامع الطولوني وفي بئر مقياس النيل بجزيرة الروضة

جامع الصالح طلائع بن رزيك

هذا الجامع كائن على رأس تقاطع شارع الدرب الاحمر بقصبة رضوان وتجاه زاوية السلطان فرج بن برقوق المنشأة سنة ٨١١ هـ . (١٤٠٨ م .) أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفاطمي الفائز بنصر الله فكان آخر وأجمل جامع أنشىء في عهد الدولة الفاطمية . ووجهتهُ الغربية الفاطمية لا نظير لها في جمع مساجد القاهرة من حيث تصميمها . ويزيد في جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية مشحونة بالـكتابات الـكوفية واخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل اليه فن الزخرفة من الرقي في ذلك العهد . أما منبر الجامع الاصلي فغير موجود وأما منبره الحالي فهو الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ— (١٢٩٩ م) وهو كرميله منبر الجامع الطولوني تحفة فنية قليلة النظير

على ان عدم وجود المنبر الاصلي لا يحول دون شعورنا بقيمتهِ الفنية اذا نحن استعرضنا منبراً آخر بالجامع العمري الذي أنشأه هذا الوزير بمدينة قوص

ذلك المنبر يعد مفخرة من مفاخر صناعة النجارة في العهد الفاطمي مع انهُ لمسجد في مدينة لا تكاد تذكر بجانب القاهرة . فما بالنا بمنبر صنع لأظرف جامع بالعاصمة وفي دار الآثار العربية شاهد يؤيد رأينا هذا هو باب ذو مصراعين وجههُ مصفح بألواح من نحاس مثبت فوقه قطع مخرمة ومرتبة على هيئة أشكال هندسية يغلب على الظن انها عملت في عهد الجوكندار صاحب المنبر الحالي

اما ظهره فعبارة عن حشوات من خشب مجمعة ومحلاة بزخارف نباتية حسنة التنسيق يرجع عهدها الى زمن انشاء الجامع وهذا الباب كان مركباً على احد أبواب الجامع

هذا والمعروف في تاريخ العمارة الاسلامية بمصر ان هذا الباب أقدم ما وجد من نوعهِ من الابواب المصفحة بالنحاس

وليس هذا كل ما خلفهُ الفاطميون من بنايات القاهرة بل هناك آثار أخرى لا تخلو من أهمية فنية لا يسع المقام وصفها . واتماماً للفائدة نأتي هنا على أسماء الخلفاء الفاطميين بمصر

اسماء الخلفاء	تاريخ هجري	تاريخ ميلادي
المعز لدين الله بن المنصور	٣٥٨	٨٦٨—٩
العزيز بالله بن المعز	٣٦٥	٩٧٥—٦
الحاكم بأمر الله	٣٨٦	٩٩٦
الظاهر لاعزاز دين الله	٤١١	١ ٢٠
المستنصر بالله	٤٢٧	١٠٣٥
المستعلي	٤٨٧	١٠٩٤
الآمر بأحكام الله	٤٩٥	١١٠١—٢
الحافظ لدن الله	٥٢٤	١١٢٩—٣٠
الظافر	٥٤:	١٤٤٩
الفائز	٥٤٩	١١٥٤
العاضد	٥٥٥	١١٦٠

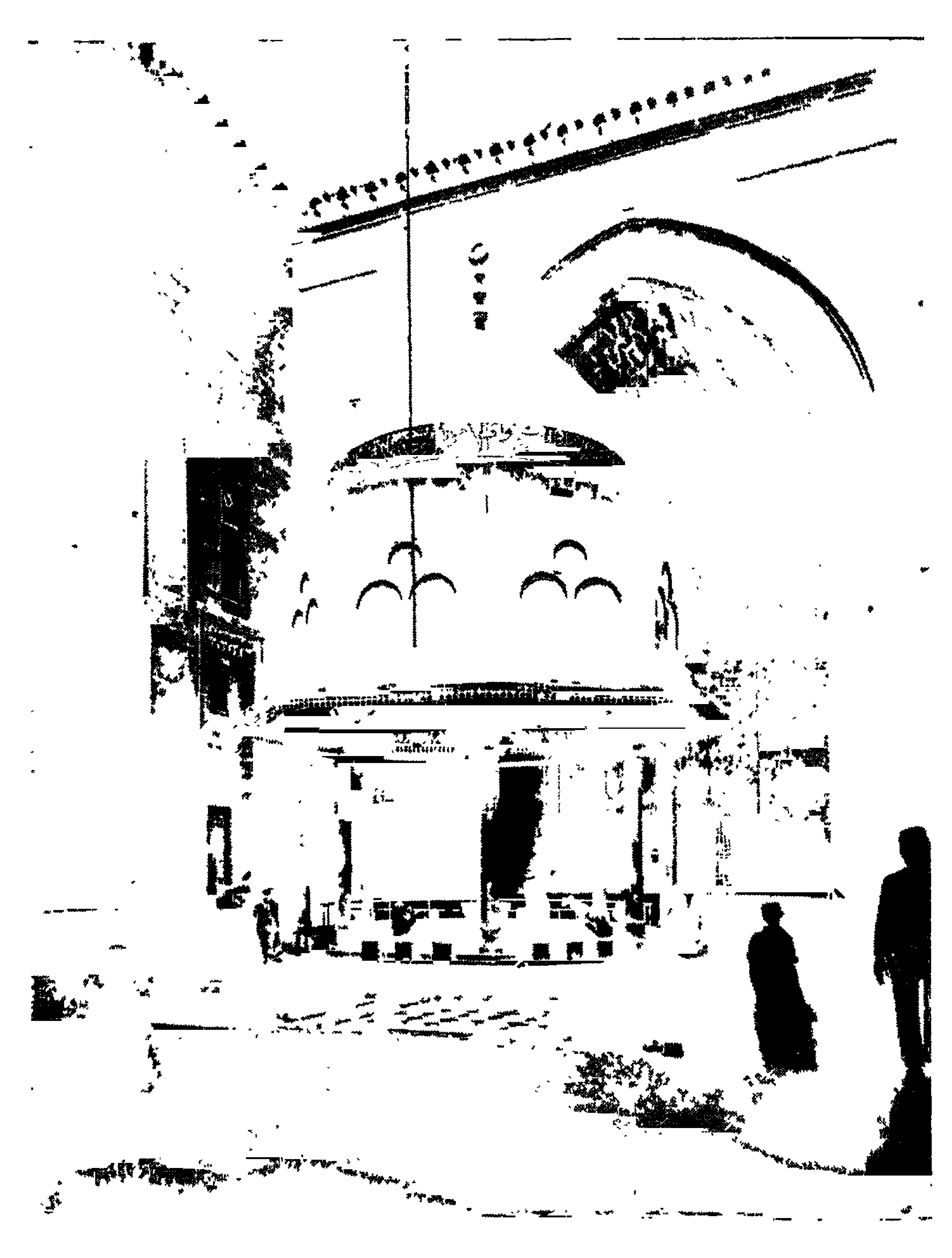
وبقي الخليفة الأخير في دست الخلافة الى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) حيث قامت دولة بني أيوب

الدولة الايوبية

(٥٦٧ — ٦٤٨ هـ) (١١٧١ — ١٢٥٠ م)

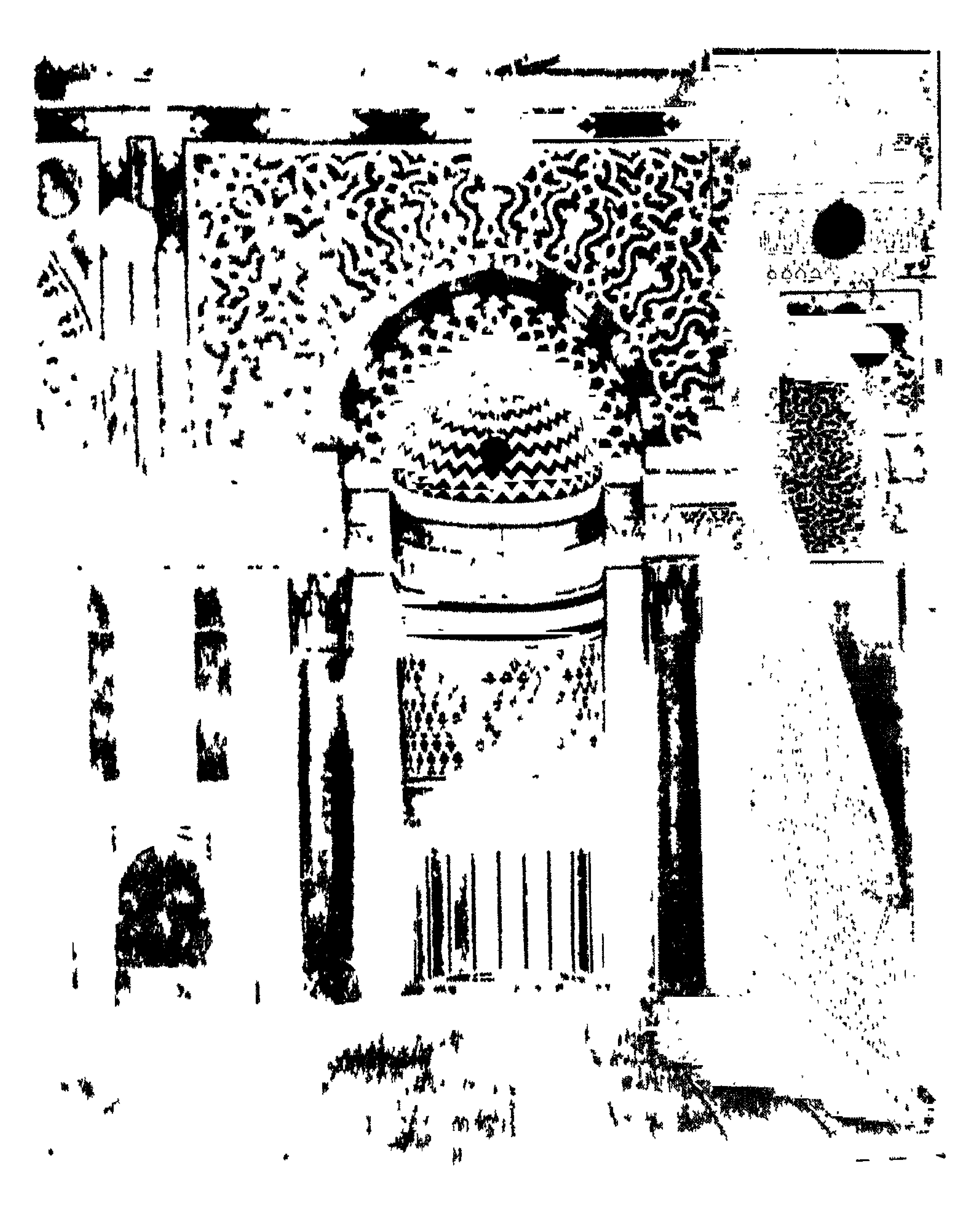
زالت دولة الفاطميين بموت الخليفة العاضد . فدخلت مصر في حيازة الدولة الايوبية التي أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان أول من تلقب (بالسلطان) في مصر

قضت أيامه في حروب كلها جهاد وفتح كللا غالباً بالانتصار الباهر على الصليبيين فكان



الفسقية بصحن مسجد السلطان حسن

[illegible]



محراب مسجد [illegible]

هذه الدولة وجدت لتكون عقبة في سبيل تغلب أوربا على الشرق أو لتأخير ذلك اكثر من سمائة سنة وعودها بشكل آخر . ولولا وقوف الدولة الايوبية في وجه أوربا المسيحية (المتعصبة في ذلك الوقت) لانقرض الاسلام في جميع بقاع الشام والجزيرة ومصر وشمال افريقية كما انقرض من الاندلس

هذا من جهة ومن جهة أخرى فأن هذه الحروب الصليبية ادت فيما بعد الى ايجاد صلة بين الشرق وبين الغرب احدثت أثراً واضحاً في الأبنية الاسلامية لم يظهر دفعة واحدة بل كان بدء ظهوره بالشام ذلك أن الصليبين حيث حلت أقدامهم كانوا يشيدون البنايات العظيمة على طريقهم الغربية فتعلم مهندسو الشرق اشكالا جديدة وهم وان لم يقلدوا تماماً هذا الطرز المغاير لطرزهم إلاَّ انهم قدروه قدره حين رأوها قريبه الانطباق والاتفاق مع طرقهم العمارية

ولما كان عهد هذه الدوله — كما ذكرنا عهد حروب متواصلة مع الصليبيين فان سلاطينهم لم يتركوا مساجد بمصر بل حصروا هممهم في البنايات العسكرية فانشأوا القلعة والسور حولها وفي سبيل ذلك اكملوا سور القاهرة الذي بناه بدر الجمالي اما فيما عدا ذلك فقد انشأوا عدة مدارس بمصر والقاهرة لم يبق منها الآن سوى جزء من المدرسة الكاملية المنشأة سنة ٦٢٢ﻫ (١٢٢٥ م) والمدارس الصالحية التي بناها الصالح نجم الدين سنة ٦٤١ ﻫ (١٢٤٣ م) وخصصها لتدريس المذاهب الاربعة . ومن تخطيط هذه المدارس اقتبس المماليك تخطيط مدارسهم ذات الايوانات الاربعة . كذلك لا يفوتنا ان نذكر ان ضريح الامام الشافعي انما تجدد في عهد السلطان الكامل . وها نحن آتون على موجز تاريخ هذه الآثار الايوبية مبتدئين بقلعة الجبل

قلعة الجبل

لما اعتزم السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب بناء هذه القلعة لاتخاذها معقلاً له من مكايد مشايعي الفاطميين . عهد في بنائها الى وزيره الطواشي بهاء الدين قراقوش (صاحب المثل المشهور) فبدأ العمل فيها سنة ٥٧٢ ﻫ (١١٧٦ م) كذلك امر صلاح الدين ببناء سور يحيط بالقاهرة والقلعة والفسطاط (مصر القديمة الآن) الا انه مات قبل ان يكمل بناء القلعة والسور فأوقف العمل فيهما الى ان تولى حكم مصر الملك الكامل بن الملك العادل فأكمل بناء القلعة سنة ٦٠٤ ﻫ (١٢٠٧ — ١٢٠٨ م)[1] وانشأ بها قصوراً وزاد مساحتها واحاط الزيادة بسور اقل مقاساً من سورها الاول ثم اتخذها مقراً لملكه الى ان توفى فاستمرت من بعده مركزاً للحكم ومقراً للسلطنة

(١) اما المقريزي ج ٢ — ص ٢٠٣ فيقول ان الذي اتم بناء القلعة سنة ٦٠٤ ﻫ هو الملك الكامل محمد بن الملك العادل وهو غير صحيح لان الملك الكامل لم يتول ملك مصر الا ابتداء من سنة ٦١٥ﻫ (١٢١٨ م)

ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ملك مصر انشأ بها برجاً كبيراً وقصراً فخماً لولده السعيد. كذلك انشأ بها السلطان الاشرف خليل بن قلاون مقعداً عظيماً بقي الى سنة ٧١١هـ (١٣١٢ م) حيث امر أخوه السلطان الناصر محمد بهدم بعض اجزائه كما امر ببناء برج كبير لا تزال آثاره باقية خلف جامع محمد علي باشا. وفي سنة ٧٦١ هـ — (١٣٥٩ — ١٣٦٠م) انشأ السلطان حسن قصراً اسماه البيسرية. وفي سنة ٧٩١ هـ — (١٣٨٨ —١٣٠٩م) جدد السلطان الظاهر برقوق سور القلعة . وهناك الآن بقايا مقعد بناه السلطان قايتباي . وحوالي سنة ١١٦٠هـ (١٧٤٧ م) انشأ الامير رضوان كتخدا الألفي باب العزب المشرف على ميدان صلاح الدين . ولما تولى المغفور له محمد علي باشا حكم مصر اصلح جانباً كبيراً من سورها وابراجها وابوابها وانشأ الجامع وسراي الجوهرة والعدل ودار الضرب ودار المحفوظات. وفي سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) جدد الخديو اسماعيل باشا الاسوار .

بئر يوسف (الحلزونه)

هذه البئر كائنة في الجهة القبلية الشرقية لجامع الناصر محمد بن قلاون بالقلعة ويرجع تاريخ بنائها الى وقت بناء القلعة . وهي مكونة من طبقتين احدها فوق الاخرى لكل منها ساقية ترفع المياه بواسطة الدواب . أما عمق الطابق الاول من مستوى ارض القلعة الى قاعه فهو ٥٠ر٣٠ متراً. واما عمق الطابق الثاني وهو البئر فهو ٤٠ر٣٠ متراً هذا ولا تزال السواقي بعمداتها باقية الى الآن

ضريح الامام الشافعي

لما تعطلت شعائر المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الامام الشافعي هدمها الامير عبد الرحمن كتخدا وانشأ مكانها مسجداً عظيماً سنة ١١٧٦هـ (١٧٦٢ — ١٧٦٣م) وبقي على حاله الى ان جدده الخديوي توفيق باشا سنة ١٨٩١ — ١٨٩٢م

اما القبة فقد انشأها السلطان صلاح الدين هي والمدرسة الصلاحية سنة ٥٧٢هـ — (١١٧٦م)

وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨م) أي في عهد صلاح الدين أيضاً كان الفراغ من عمل التابوت الخشب فوق تربة الشافعي وهذا التابوت من خشب الساج الهندي مقسم الى حشوات هندسية منقوشة نقشاً غاية في الابداع والاتقان ولا نظير له بين التوابيت الاخرى ومكتوب عليه اسم صانعه (عبيد النجار المعروف بابن معالي). وفي سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) توفيت والدة الملك الكامل فدفنت بالقبة التي بجوار جدها الملك المذكور ووضع على قبر والدته تابوتاً آخر من خشب بديع الصنع وركب على باب القبة مصراعان من خشب غاية في الابداع . وهناك ايضاً بمسجد الامام

الليث مصراعان اصلهما من قبة الشافعي وعليهما اسمه . ثم عملت بعد ذلك اصلاحات بالقبة اهمها عمارة السلطان قايتباي سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) وتلاه السلطان الغوري فالامير علي بك الكبير سنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢م) فالمغفور له محمد علي باشا سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٤ م — ١٨١٥م). وبعد ذلك عملت بها ترميمات مختلفة الى ان تولت اصلاحها ادارة حفظ الآثار العربية

المدارس الصالحية وتربة الصالح نجم الدين بشارع بين القصرين

أقام الملك الصالح نجم الدين هذه البنايات على جزء من ارض القصر الشرقي الفاطمي . وكان البدء في بناء المدارس سنة ٦٤٠ هـ(١٢٤٢م) والفراغ منهُ في سنة ٦٤١هـ. وقد خصصت لتدريس المذاهب الاربعة. وهذه أول مرة يتقرر فيها ذلك في مدرسة واحدة. ومنذ سنة ٦٤٨هـ(١٢٥٠م) اتخذت المدرسة مقرًّا لنواب العدل (محكمة شرعية) للفصل في القضايا والمظالم

وتبلغ مساحة هذه المدارس نحو ستة آلاف متر وطول وجهها حوالي مائة متر يتوسطها الباب العمومي الذي تعلوه المنارة ويتوصل منهُ الى مجاز يشق المدارس شطرين احدهما قبلي والآخر بحري تخلف منهُ الآن الليوان الغربي الملاصق للتربة . أما الشطر القبلي فلم يبق منهُ سوى وجهته — وقد كان للدهليز باب من خشب نقل الى دار الآثار العربية وهناك سقف عربي جميل اسفل قاعدة المنارة ينبيء هو والباب عما كانت عليهِ نجارة المدرسة من رقي عظيم

أما التربة فقد انشأتها الملكة شجرة الدر ليدفن فيها سيدها وزوجها الملك الصالح نجم الدين لأنهُ لما توفي وهو في حصار المنصورة في شعبان سنة ٦٤٧ هـ (نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) اخفت موته وحملت جثته في سفينة الى النيل وبقيت في احدى حجر قلعة الروضة الى ان اتمت بناء هذه القبة ونقلت الجثة اليها سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) وبهذه التربة مميزات عمارية كثيرة اهمها النجارة بالابواب والشبابيك النحاسية المفرغة وهي اقدم نموذج من نوعها والتابوت الخشب يدلُّ على جمال الصناعة ودقتها وكذلك رخام المحراب فانهُ اقدم نموذج بقي بمحاريب القاهرة وبطاقية المحراب بقايا فسيفساء مذهبة تعتبر اقدم ما عثر عليهِ في الآثار العربية بمصر . وفيما يلي بيان عن سلاطين هذه الدولة

الاسم	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	الاسم	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
صلاح الدين يوسف بن ايوب	٥٦٧	١١٧٠—٢	العادل بن الكامل	٦٣٥	١٢٣٧—٨
العزيز عثمان بن صلاح الدين	٥٨٩	١١٩٣	الصالح ايوب بن الكامل	٦٣٨	١٢٤٠—١
العادل بن ايوب	٥٩٥	١١٩٨—٩	المعظم توران شاه	٦٤٧	١٢٤٩
الكامل بن العادل	٦١٥	١٢١٨			

دولة المماليك البحرية

من سنة ٦٤٨ الى ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ — ١٣٨٢ م)

سقطت دولة بني ايوب لاسباب عدة اهمها :

١ — تقسيم صلاح الدين المملكة العظيمة التي افتتحها بين اولاده واخوته وأقاربه فأوجب تنافسهم وتحاسدهم وتعدي بعضهم على بعض فتفككت عصبتهم

٢ — العهد بالملك الى الصغار منهم مما أوجب اقامة اوصياء عليهم من اقوياء رؤساء الجند والوزراء

٣ — الاستكثار من اتخاذ المماليك التركية انصاراً وأعواناً ونزولهم عن كل شيء في الدولة حتى تدبير القصر وتغاليهم في جلب هؤلاء وهجر الاكراد اصول الدولة والعرب اهل البلاد . وكانت النتيجة ان وصل هؤلاء المماليك في آخر ايام الدولة الايوبية الى درجة عظيمة من البأس فلما اغضبهم توران شاه آخر السلاطين الايوبيين قتلوه واستولوا هم على الملك فبقي في أيديهم نحو مائة وثلاثين عاماً وعددهم ٢٤ سلطاناً أولهم شجرة الدر فالسلطان عز الدين أيبك التركماني وآخرهم الصالح حاجي بن شعبان . وهؤلاء السلاطين كانوا ارقاء يجلبون من اسواق الجركس ومغوليا والقوقاز الى مصر ليباعوا الى الحكام والأمراء الذين كانوا يدربونهم على القتال ويتخذونهم حرساً لهم . وكان المماليك ينالون في الغالب قسطاً كبيراً من التعليم فكانوا يربون في مدارس الحرب ومعاهد العلم . وكانوا في حداثة سنهم ينبغون احياناً في الفلسفة والفقه والعلوم وفي الفروسية واستعمال الاسلحة فيصيرون جديرين بالمناصب السامية وولاية الامور على أن الحال لم تكن دائماً كما ذكرنا فقد ظهر من بين السلاطين من لم يستطع كتابة اسمه ومن بين هؤلاء من استمسك باستعمال لغته التركية او الجركسية

وهناك صفة أخرى اختص بها المماليك وهي عدم عنايتهم بالوراثة فكان المملوك المحبوب يخلف سيده على العرش واحياناً يسمي نفسه (ابن سيده) وفي أغلب الاحيان كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم فلا يلبث ان يخلعه اتابكه او امير آخر يكون قد تآمر عليه ولم نر واحداً منهم استمر التاج في بيته سوى المنصور قلاون اذ حكم بعده ابناؤه وأحفاده سنين عدة . وكان التاج في غالب الامر يؤول لاقوى الامراء نفوذاً واسوئهم مكراً بل احيانا الى اقساهم واكثرهم خروجاً على النظام . ومن اكبر اسباب تنازعهم على الملك الثروات الكبيرة التي استحوذ عليها الامراء انتزاعاً من ايدي الناس والاقطاعات العظيمة التي وهبتها اياهم الحكومة والقصور الباذخة التي قد رصدوها لانفسهم وان بقيت هذه الاشياء كلها في ايديهم مدة فهو ربما ليس له ثبوت اذ ربما عصفت بها عواصف ثورات تلك الايام فأخرجتها من ايدي مالكيها

وباعتبار طائفة المماليك طائفة نجد ان ما كمن في نفوسها من الخيانة لا يحتاج الى استدلال وإن ظهر من بينها حكام معتدلون يقدرون الشرف ويعظمون الدين ويعملون على تثبيته اذ نجد منهم من حبس الاموال على الخيرات ومبنى المدارس والـكليات والملاجيء للأيتام ومنهم من خلف وراءه آثاراً من عصرهم في المباني الجميلة التي لا تزال تزدان بها مدينة القاهرة والتي سنأتي على وصف موجز لها . ولـكن اكثرية المماليك وخاصة في ايامهم الاخيرة كانت متعسفة عظيمة الخيانة وكثيرة المظالم يعذبون الناس بالجلد والـكي ولا يرعون في اراقه دمائهم رغبة في التخلص من شرورهم او للحصول على اموالهم بدون جرم اتوه

هذا هو حال المماليك وهذه عاداتهم بسطناها بايجاز . اما سلاطينهم الاربعة والعشرون فهم :

الاسم	التاريخ هجري	التاريخ ميلادي
شجرة الدر امرأة الصالح أيوب	٦٤٨	١٢٥٠
المعز أيبك	٦٤٨	١٢٥٠
المنصور علي بن أيبك	٦٥٥	١٢٥٧
المظفر قطز	٦٥٧	١٢٥٨
بيبرس الاول البندقداري	٦٥٨	١٢٤٩ـ٦٠
السعيد بركة بن بيبرس	٦٧٦	١٢٧٧
العادل سلامش بن بيبرس	٦٧٨	١٢٧٩
المنصور قلاون	٦٧٨	١٢٧٩
الاشرف خليل بن قلاون	٦٨٠	١٢٩٠
الناصر محمد بن قلاون	٦٩٣	١٢٩٣ـ٤
العادل كتبغا	٦٩٤	١٢٩٤ـ٥
المنصور لاجين	٦٩٦	١٢٩٦ـ٧
الناصر محمد (للمرة الثانية)	٦٩٨	١٢٩٨ـ٩
بيبرس الثاني (الجاشنكير)	٧٠٨	١٣٠٨
الناصر محمد بن قلاون (للثالثة)	٧٠٩	١٣٠٩
المنصور ابو بكر بن الناصر محمد	٧٤١	١٣٤٠
الاشرف كوجه » »	٧٤٢	١٣٤١
الناصر احمد بن الناصر محمد	٧٤٢	١٣٤١
الصالح اسماعيل » »	٧٤٣	١٣٤٢
الـكامل شعبان » »	٧٤٦	١٣٤٥
المظفر حاجي » »	٧٤٧	١٣٤٦
الناصر حسن » »	٧٤٨	١٣٤٧
الصالح صالح » »	٧٥٢	١٣٥٠
الناصر حسن للمرة الثانية	٧٥٥	١٣٥٤
المنصور محمد بن الحاجي	٧٦٢	١٣٦٠ـ ٦١
الأشرف شعبان بن حسين	٧٦٤	١٣٦٢ ـ ٦٣
الصالح حاجي بن شعبان	٧٨٣	١٣٨١

وبين هؤلاء الاربعة والعشرون سلطاناً اربعة نالوا بجدارة واستحقاق لقب (سلاطين البناء العظام) وسطر لهم تاريخ العمارة هذا اللقب بحروف بارزة من ذهب مصفى وكان آخر هؤلاء الاربعة شاب لا بد وان يكون بناء مدرسته العظيمة تحت القلعة راجعاً لى علو همة امرائه الذين تعاونوا هم وغيرهم من بعض أمراء السلاطين الآخرين مع أسيادهم على النهوض بفن العمارة فظهرت في عهدهم

بنايات قيمة واستقر طراز وجهات المساجد والمدارس في عهد الناصر محمد بن قلاون على نظام ثابت

ومن اواخر حكم الايوبيين الى منتصف حكم المماليك البحرية ازدادت صناعة الجص ازدهاراً يشهد بذلك الطرز المختلف من المدرسة الكاملية والمحفوظ الآن بدار الآثار العربية . وما يشاهد في مدفن مصطفى باشا المنشأ قبل سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣ م) والخانقاه البندقدارية المنشأة سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤م) ورباط احمد بن سليمان المنشأ سنة ٦٩٠ هـ — (١٢٩١م) وضريح زين الدين يوسف سنة ٦٩٧—٧٢٥ هـ (١٢٩٧ — ١٣٢٤م) ومدرسة الناصر محمد بن قلاون ٦٩٥—٧٠٣هـ (١٢٩٥— ١٣٠٣ م) وطراز مدرسة السلطان حسن ٧٥٧ — ٧٦٤هـ (١٣٥٦ — ١٣٦٢ م)

كذلك الرخام فان صناعته مشت في الرقي مع الجص جنباً الى جنب ولا سيما في المحاريب حيث حل الرخام محل الجص

ومثلهما النجارة ولا سيما الابواب المكسية بالنحاس المزخرف والمطعم بالذهب والفضة والسقوف بنقوشها الجميلة المموهة بالذهب

اما القبة فقد تغير شكلها حيث ارتفعت رقبتها واتخذ انحناؤها شكلاً خاصًّا ادى الى تسميتها بالقبة القاهرية . كما تحولت مادة بنائها من الآجر الى الحجر ابتداء من سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م) حيث بنيت بالمدرسة الجاولية قبة صغيرة . ثم تلتها قبة المظفر التي بنيت سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢م) واكثر من هذا ظهور رقاب بعض قباب هذا العصر مغلفاً بالقاشاني الملون المكتوب واول ما ظهر من هذا النوع قبة طغاي ام انوك المنشأة حوالي سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ — ٤٠ م) ثم قبة اصلم السلحدار المنشأة سنة ٧٤٦ هـ (١٣٤٥ م)

وأما المآذن فكان لها نصيب من هذا التطور فمن منارة قلاون التي انحرفت قليلاً عن المنارات الايوبية الى مئذنة علي البقلي المنشأة قبل سنة ٦٩٦ هـ (١٣٩٦ م) ثم الى مئذنة بيبرس الجاشنكير المنشأة سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦م — ١٣٠٩ م) والتي كانت اول مئذنة كسيت قمتها بالقاشاني

نعود الى سلاطين البناء الاربعة العظام فنقول :

كان أولهم السلطان الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس البندقداري الصالحي المعروف اليوم باسم (الظاهر) او (بيبرس) فقط او (بيبرس الاول) واليه ينسب احد احياء القاهرة المعروف (بحي الظاهر) الآن. كان موطن اجداد هذا البطل العظيم بالقرب من جبال الاورال وكان هو مملوكاً للصالح نجم الدين الايوبي ترقى حتى اعتلى عرش مصر فكان في حروب مستمرة مع المغول الذين بلغوا في وقت ما ضواحي مدينة غزة ثم مع الفرنج الذين تخطوا شواطىء فلسطين ومع بلاد النوبة . وفي اوج مجده امتد ملكه الى ما وراء حدود مصر وسوريا وبلاد العرب حكم من سنة ٦٥٨ هـ الى سنة ٦٧٦ هـ (١٢٥٩ - ١٢٧٧ م) فجعل القاهرة اكثر من ان تكون عاصمة

امبراطورية اسلامية بأن نصب خليفة عباسيًا اقام بالقلعة اقامة البابا في روما ثم عقد معاهدات مع حكام صقلية واسبانيا وبيزنطة وغيرهم من حكام الشرق القادرين وهذا هو السر في مشاهدة تأثير هذه الممالك المختلفة تأثيراً ظاهراً في عماراته ففي القاهرة لا تزال له بقية مدرسة انشأها سنة ٦٦٠ — ٦٦٤ هـ (١٢٦١ —١٢٦٣ م) بجوار تربة سيده الصالح نجم الدين بشارع بين القصرين. وقد هدمت بسبب فتح شارع بيت القاضي سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) كذلك بنى في شمال القاهرة قناطر ابي المنجا وبنى قنطرة مثلها بالقرب من محطة اللد على خط القنطرة — فلسطين. وفي عهده بني مدفن مصطفى باشا حاكم اليمن بشارع القادرية وكذلك مساجد اخرى بناها في حلب وبصرى ودمشق والرملة

على ان الذي يهمنا من عماراته اكثر من سواه هو جامعه العظيم الكائن بميدان الظاهر. والذي كان البدء في بنائه سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) واستعمل في عمارته اخشاباً ورخاماً جيء بها من قلعة يافا بعدما دمر هذه المدينة هي وانطاكيا سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) حتى صارتا اطلالاً بالية. وفي هذه السنة كمل بناء القبة التي تعلو المحراب ثم كملت بقية اجزاء الجامع في شوال سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ - ٦٩ م) وقد بلغ طوله ١٠٨ امتار وعرضه ١٠٥ امتار ويتكون من صحن يحيط به اربعة ايوانات القبلي منها مكون من ستة اروقة وكل من الايوانين الشرقي والغربي ثلاثة اروقة والايوان البحري رواقان. وعقوده المشرفة على الصحن محمولة على اكتاف ومثلها عقود الرواق الثالث من الايوان القبلي. اما بقية عقود الجامع فمحمولة على اعمدة من رخام. ووجهات الجامع الاربع مبنية بالحجر اما من الداخل فالبناء جميعه بالآجر. والقبة الكائنة اعلا المحراب مربعة طول ضلعها عشرون متراً بنيت على مثال قبة الامام الشافعي وهي اكبر قبة اقيمت فوق محراب لكن هذه القبة امتازت على نظيراتها في المساجد الاخرى بانها حملت على حجرة بدلاً من حملها على دعائم او اعمدة ويخيل الينا ان هذه الحجرة حلت محل المقصورة التي ابتدعها معاوية بن أبي سفيان حرصاً على حياته بعد ما رأى من حوادث الاغتيال التي اصابت اقرانه في اوقات الصلاة. وتبع العباسيون معاوية في انشاء المقاصير. ومن ثم شاع استعمالها في جميع الاقطار الاسلامية

وهناك ميزة عمارية أخرى هي الابراج الأربعة القائمة فوق نواصي الجامع ثم الدعائم القائمة خارج وجهته الشرقية والغربية لمقاومة الدفع الأفقي لعقود حبال الطارات. والمنارة كانت تعلو الباب البحري إلاّ أن الفرنسيين هدموها اثناء احتلالهم مصر كما هدموا مآذن ومساجد وبنايات اخرى بالقاهرة. وابوابه الثلاثة البارزة محلاة بنقوش جميلة وهي ثاني نموذج للابواب البارزة بعد باب جامع الحاكم. وفيها استعملت مداميك الحجر الأبيض والاحمر على التوالي لأول مرة. كذلك كان الجامع من الداخل حافلاً بالزخارف الجصية والرخام الملون بالوزرات

والبقايا المخلفة من الشبابيك الداخلية والكتابات الكوفية المحيطة بها والمخلف منها قسم كبير بجوار القبلة كل هذه تدل دلالة واضحة على ما كان عليه الجامع من فخامة وبهاء

وممن عني بهذا الجامع واصلحهُ الملك الظاهر جقمق الذي ولي ملك مصر سنة ٨٤٢هـ (١٤٣٨م)

وفي عهد الاحتلال الفرنسي لمصر جعل هذا الجامع قلعة واتخذت منارتهُ برجاً ونصبت المدافع على اسواره وسكنه طائفة من الجنود الفرنسية فكان ذلك سبباً في تخريبه اضف الى هذا سوء تصرف النظار وفيه الذي باع كثيراً من انقاضه. ثم امر المغفور له محمد علي باشا بعمله مصنعاً للصابون وفي هذا الوقت اعتدى عليهِ الشيخ الشرقاوي فاخذ من عمده وانقاضه ما ادخله في عمارة رواق الشراقوة بالازهر. كذلك استعمله الجيش البريطاني مذبحاً الى ان سعت لجنة حفظ الآثار العربيه في تسلمهِ فتم ذلك سنة ١٩١٨ ثم انشأت مصلحة التنظيم في صحنهِ حديقة

ومما هو جدير بالذكر ان هذا المسجد هو الجامع الاكبر الوحيد الذي بني في عهد المماليك البحريه ولم يبن بعده الا مسجد جامع واحد سنذكره في حينه

هذا وادارة حفظ الآثار العربية جادة في اصلاح بقاياه داخلاً وخارجاً

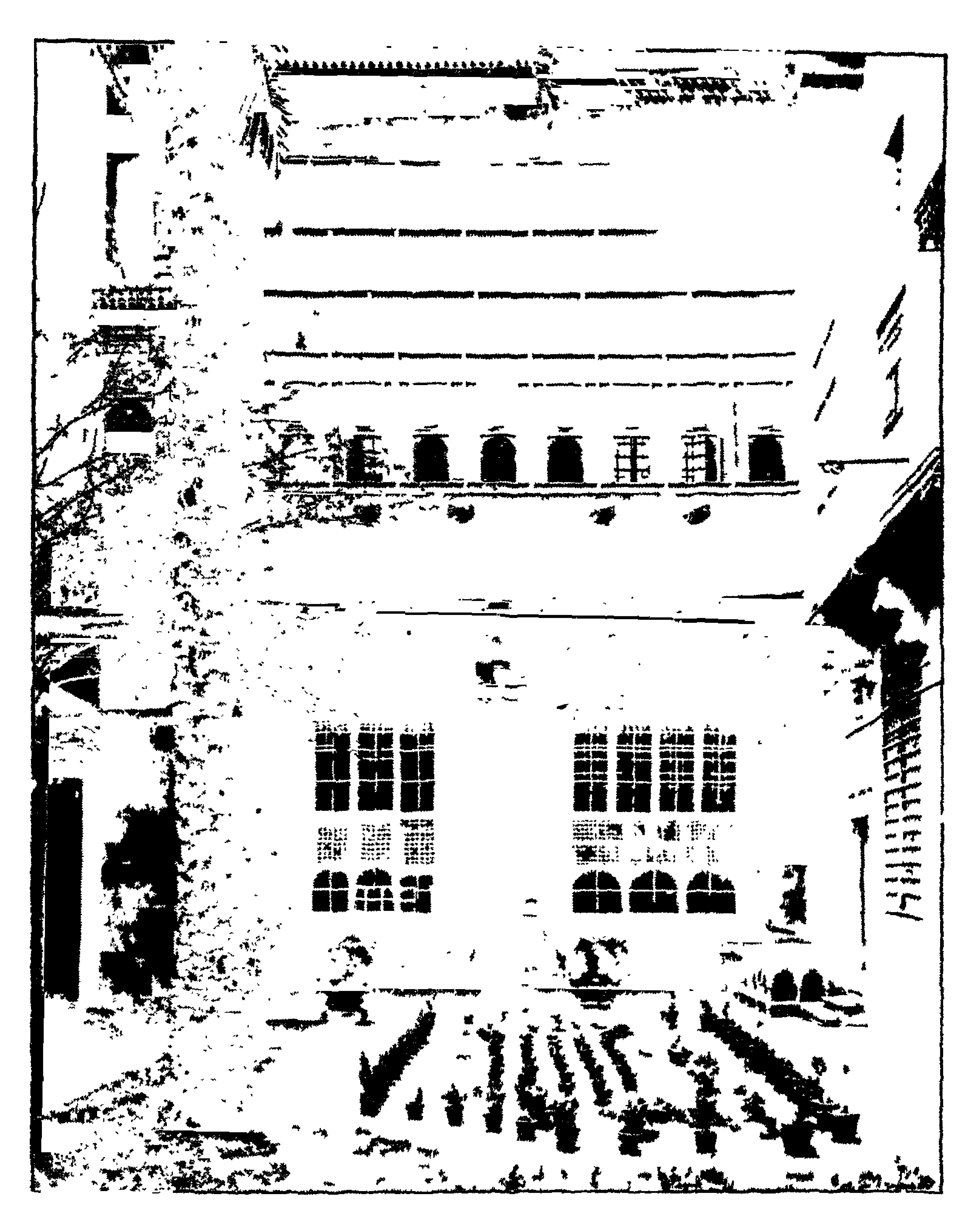
السلطان السعيد والسلطان قلاوون

مات بيبرس اشهر سلاطين المماليك البحرية بعد ما نظم امور الدولة واصلح الجيوش وانشأ الاساطيل وكان بوضع انظمته المالكية الثابتة المؤسس الحقيقي لدولتي المماليك اللتين استمرتا ٢٦٧ سنة

ومما لا [illegible] كان يتطلع الى حصر وراثة العرش في اسرته ولذلك اعلن قبل وفاته بضع سنين [illegible] سعيدا [illegible] خليفة له على عرش مصر وقبيل مماته بعام زوج ولي عهده هذا [illegible] احدى بنات قلاوون راجياً من ذلك الزواج ان يكون هذا الامير عضداً لابنه في ادارة شؤون البلاد

عتلى السعيد [illegible] عرش مصر بعد وفاة ابيهِ وكان شاباً غراً طائشاً فلم يمض على قبضه [illegible] الا [illegible] اسابيع حتى سم كبير وزراء ابيهِ وزج غيره من ضباطهِ في غيابات السجون ثم [illegible] صغار مماليكه فتباعد منهُ كبار الامراء واخذوا يحذرون نكايته واخيراً ائتمروا بهِ [illegible] وانتهى الامر بتنزله عن العرش بعد حكم يزيد على السنتين قليلاً وتولية اخيه [illegible] سلامش الملك

داخل الجامع الازهر



حوش بيت السحيمي

[illegible]

بعد ذلك استدعى قلاون أكبر الامراء ليتولى مقاليد الامور باعتبار انهُ وصي على سلامش الصغير . ولكن قلاون لم يلبث ان خلعهُ من الملك وتبوأ هو عرش مصر . وهو الذي نعتبره ثاني سلاطين البناء . اما نشأته فكما يأتي : —

جُلب هذا السلطان صغيراً فاشتراه الامير علاء الدين آق سنقر الساقي العادلي بالف دينار ولهذا لقب « بالالفي » وبعد موت هذا الامير آل قلاون الى الملك الصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) فصار من جملة مماليكه ثم ترقى في المناصب حتى صار اتابك العسكر في ايام العادل سيف الدين سلامش السالف الذكر الى أن خلعه وتبوأ هو عرش مصر في رجب سنة ٦٧٨ هـ (يناير سنة ١٢٧٦ م) وتلقب « بالملك المنصور سيف الدين ابي المعالي » فثار عليه الامير سيف الدين سنقر الاشقر بدمشق وتسلطن ولقب نفسه بالملك الكامل فسير عليه السلطان قلاون حملة هزمتهُ واستردت دمشق منهُ . وقد حارب التتر والفرنج وبلاد النوبة مراراً وانشأ مدينة (طرابلس الشام) بعد ما دمر طرابلس القديمة

كذلك حافظ قلاون على العلاقة الودية بينهُ وبين (امير قبجاق) الذي اعتنق الاسلام كما صادق (بوهمند) ملك طرابلس لانهُ كان يخشى عودة التتار الى الاغارة على حلب وتبودلت الرسائل الودية بينهُ وبين ملك (سرنديب : سيلان) وعقد اواصر الصداقة بين مصر والقسطنطينية وكثير من حكومات اوربا . ثم عقد في أواخر حكمه معاهدة تجارية مع جنوى وكذلك أبرم شبه معاهدة دفاعية بينهُ وبين « قشتالة » و « صقلية » وأخيراً مرض ومات بالريدانية خارج القاهرة في سادس ذي القعدة سنة ٦٨٩ هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠ م) وعمره نحو السبعين سنة ودفن بتربته الآتي ذكرها . وقد ترك وراءه من الذرية ثلاثة ذكور وابنتين . وفي آخر ايامه تزوج من احدى بنات أمير من المغول كان قد حضر الى مصر كغيره هارباً من بلاده فولدت لهُ ابنه الناصر ثالث سلاطين البناء . ولعلَّ هذه الوالدة هي صاحبة القبتين السلطانيتين (بقرافة السيوطي)

هذا من الناحية التاريخية . اما من الناحية الاثرية فقد اقتصر عمل قلاون المعماري على مجموعة واحدة من البنايات على اعظم جانب من الشأن وهي « مارستان » (مستشفى) و « مدرسة » و « تربة » . غير ان العرف جرى باطلاق اسم « المارستان » على البناية بأكملها

سبب انشاء المارستان

تطاول الفرنج على أملاك السلطنة المصرية بآسيا فعثروا ببعض المدن والثغور الشامية والفلسطينية وتملكوها ردحاً من الزمن فلم يسع « السلطان المعظم ملك الدنيا والدين قسيم امير المؤمنين بيبرس الاول » الا مقابلة الشر بالشر فجرد سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) حملة قوية قادها فريق من الامراء

البواسل وكان السلطان قلاون احدهم فأبلى بلاءً حسناً حتى انتزع وزملاؤه النصر من ايدي خصومهم وحفظوا لمصر سمعتها واستبقوا لها عظمتها كامبراطورية عظيمة قابضة باحدى يديها على زمام القوة في نصف الكرة الارضية الشرقي والأخرى على مفتاح السياسة في الناحية الاخرى

مرض الامير القائد قلاون الالفي حينذاك مرضاً شديداً ادى الى معالجته بأدوية جلبت له من مستشفى نور الدين محمود بن زنكي بدمشق عاصمة الامويين . فنذر الى الله ان هو أبلّ من مرضه ليبنينّ بالقاهرة مارستاناً يحاكي — ان لم يفق — مستشفى دمشق فكان ان استجاب الله دعاءه فتبوأ عرش مصر وعند ذاك فكر في الوفاء بنذره

موقع المارستان — هذا المارستان كائن بشارع بين القصرين امام تربة سيده الصالح نجم الدين ايوب فمدرسة مليكه وحميه الظاهر بيبرس فشارع بيت القاضي المؤدي الى قسم بوليس الجمالية وقد أقيم مستشفى قلاون الحالي للرمد على جانب من ارض المستشفى الذي نحن بصدده والذي كان موضع القسم الأعظم منهُ دار الاميرة مؤنسة القطبية الايوبية فاستولى السلطان قلاون عليها وعوضها منها قصر الزمرد برحبة باب العيد [1] مع مبلغ من المال حمل اليها

ومن غريب الحوادث ان يكون آل قلاون مصدر قلق مستمر لهذه الاميرة الجليلة فانها بعد ان تركت دارها هذه لقلاون لجعلها مارستاناً واستقرت في قصرها الجديد قصر الزمرد — اذا بالاميرة تتر الحجازية حفيدة قلاون وأبنة ابنه الناصر محمد تستولي على هذا القصر الاخير لتنشيء مكانهُ قصراً لها ومدرسة تعرف اليوم باسم « مدرسة تتر الحجازية » وفي هذا التحول يتجلى تداول الانتقام . فان الدار القطبية هذه التي استولى عليها قلاون كانت في الاصل داراً للاميرة ست الملك ابنة الخليفة العزيز بالله نزار الفاطمي ثم آلت بعد زوال الدولة الفاطمية الى الامير فخر الدين جهاركس فالى الامير عز الدين موسك صاحب (قنطرة الموسكي) وقريب السلطان صلاح الدين يوسف فالى الملك المفضل قطب الدين احمد بن الملك العادل أبي بكر أيوب وبسببه سميت الدار (القطبية) ثم آلت من بعده الى ابنته الاميرة « مؤنسة » وهنا انتقلت من أيدي الايوبيين الى أيدي سلاطين المماليك البحرية كما انتزعها الايوبيون من أيدي الفاطميين

وهنا نتساءل عن سبب اختيار تلك الدار لتكون مارستاناً مع ان موقعها غير صحي بالقياس

---

(١) هذه الرحبة يشغل موضعها الآن جزء من مباني قصر الشوك عند تفرعه من شارع حبس الرحبة (قسم الجمالية)

الى مواقع أخرى حولها أصلح منها لاقامة مستشفى عليها. وهلا كانت هناك دار أخرى غير دار الاميرة مؤنسة تصلح لهذا الغرض اذا فرض وكان المقصود اقامة المارستان وسط القاهرة. لاشك ان هناك مواقع ودوراً أخرى صالحة لكننا نظن ان هذه الدار كانت مقصودة بالذات لا انتقاماً من صاحبتها بل لغرض آخر في نفس قلاون فقد كان هو والسلطان الظاهر بيبرس مملوكين للسلطان الصالح نجم الدين الايوبي وجاء بيبرس فبنى مدرسته الظاهرية لصق تربة سيده الصالح فلم يسع قلاون الا مناظرة بيبرس وبناء مارستانه أمام تربة الصالح ومدرسة الظاهر منافساً لها ولم يكتف بذلك بل أقام الدليل الساطع على وفائه لسيده واعترافه بفضله عليه بان هدم القلعة التي كان بناها الصالح نجم الدين بجزيرة الروضة وأخذ من اعمدتها الضخمة ورخامها البديع ماشاء وأدخله في عمارة المارستان ثم جاء من بعده ابنهُ الناصر محمد—وكان مولعاً بالعمار — فاقتفى اثر ابيه وتبعهما السلطان برقوق فاخذ لمدرسته بشارع بين القصرين ما تبقى من الاعمدة الجرانيت الضخمة . سامح الله الجميع

المارستان من الناحية التاريخية

لما أبل قلاون من مرضه ركب حتى شاهد مارستان الشهيد فاعجب به فلما ولي السلطنة فكر في الوفاء بنذره فاتخذ الدار القطبية مكاناً لهُ كما ذكرنا وولى الامير علم الدين سنجر الشجاعي امر عمارته فاخرج النساء من الدار القطبية من غير مهلة واخذ ثلثمائة اسير وجمع صناع القاهرة ومصر وامرهم بان يعملوا جميعاً في الدار القطبية وحدها دون غيرها وشدد عليهم في ذلك فهابوه ولازموا العمل وكان يقف بنفسه على الاساقيل حتى لايتوانوا ولم يكتف بهذا بل أوقف مماليكه بشارع بين القصرين فكانوا اذا مرّ بهم احد - مهما عظم قدره الزموه ان ينقل حجراً الى محل العمل حتى اضطر الناس الى اجتناب المرور من هذا الشارع.

وبعد الفراغ من بناء المارستان قال السلطان قلاون : --

(اني بنيتهُ لوجه الله لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والاجناس ممن هو مثلي او دوني للغني والفقير للحر والعبد للذكور والاناث)

وقد جاء هذا المارستان بدعة من بدائع الابنية ومن اشهر المارستانات في القرون الوسطى لم يبن قبله بمصر الاسلامية سوى خمسة مارستانات آخرها الذي بناه بالقاهرة السلطان صلاح الدين يوسف . ويؤخذ مما رواه المؤرخون عن مارستان قلاون انهُ كان مكوناً من جملة اجنحة يختص كل جناح منها بمرض من الامراض وأنه كان هناك هيئة طبية منظمة وغرفة للعمليات ومعامل كيمائية وصيدلية وحمامات ومطبخ وبوجه عام جميع معدات المستشفيات المعروفة وقتذاك وكانت هناك جوقة

موسيقية تخفف آلام المرضى وتهون عليهم ساعات التأوه الطويلة وبجانب ذلك عدد من القراء يتلون من القرآن ما فيه سلوى وتهوين للشدة وكان هناك أمين للمكتبة يساعده اتباعه على مناولة الكتب الطبية الدينية وغيرها لمن يرغب في المطالعة وفوق هذا وذاك فقد كان هناك مكتب لتعليم عدد من اليتامى

تاريخ انشاء المارستان

يؤخذ من الكتابات المنقوشة على بعض اعتاب الابواب وعلى الجدران — ان تحويل الدار الى مارستان ثم انشاء القبة والمدرسة استغرق ثلاثة عشر شهراً بدايتها ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ (يونيه سنة ١٢٨٤م) ونهايتها جمادى الاولى سنة ٦٨٤ (يوليه سنة ١٢٨٥ م)

وان القبة بنيت في نحو خمسة شهور

وان البدء في بناء المدرسة كان بعد الفراغ من بناء القبة وان بناءها استغرق نحو اربعة شهور وتلك حقاً معجزة المعجزات التى تشهد للامير علم الدين بالبطش والاقدام

المارستان من الناحية الفنية

اذا لم يكن للسلطان قلاون من العمارات سوى هذه المجموعة النفيسة لكفى لانها على اعظم جانب من خطر الشأن المعماري . نعم ان بالقاهرة نحو ستمائة اثر . لكن اذا سألني أحد رأيي في اي هذه الآثار أولى بالزيارة فاني لا اتردد في القول بوجوب البدء بالجامع الطولوني فالجامع الأزهر فمارستان قلاون

ان الواقف امام هذه البناية الجليلة يرى الوجهة العمومية قسمين الاول وهو القبلي وجهة المدرسة والثاني وهو البحري المرتد وجهة التربة تعلوها القبة ومن مجموعها يرى منظر من اروع مناظر العمارات الاسلامية بالقاهرة تعيد الى الاذهان قناطرها المقوسة المحمولة على اعمدة ذكرى العمائر الصليبية ذكرى كنيسة القبر المقدس في بيت المقدس اذا لم نقل رؤية المعابد القوطية بمدينة جنوى. اما الشبابيك المفتوحة في حنايا هذه الوجهة فحافلة بالرسوم الهندسية الفاخرة ويمنطق الوجهة باكملها طراز مشحون بآيات قرآنية وغيرها من الكتابات المثبتة لتاريخ البناء

وفي الطرف البحري لهذه الوجهة المنارة المكونة من ثلاثة ادوار الأسفل والأوسط مربعان والثالث الأعلى مستدير متوج بكرنيش مصرى الطرز . وهو أحدث عهداً من سابقيه لان الزلزال الذي حدث في سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) وخرب معظم مساجد القاهرة والفسطاط اسقط هذا الدور فجدده سنة ٧٠٣هـ(١٣٠٣—١٣٠٤م) السلطان الناصر محمد واثبت هذا التجديد على وثيقة مثبتة قاعدة المنارة هذا مضمونها : —

(بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جدد الرحمة والرضوان على روح الملك المنصور رحمهُ الله امر بتجديد هذه المأذنة في ايام ولده مولانا السلطان الملك الناصر ابي الفتح محمد وذلك عند ظهور الآيات المنزلة وسقوط اعاليها عند حدوث الزلزلة في شهور سنة ثلاث وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام)

هذا وبين جزئي الوجهة والباب العمومي المؤدي الى دهليزطويل باب يؤدي الى المدرسة والقبة والمارستان وهذا الباب محلى بالرخام ودرفتاه مكسوّتان بالنحاس المقسم تقسيماً هندسيًّا بديعاً وللقبة بابان مفتوحان على الدهليز يدخل من اولها اليها مباشرة ومن الثاني الى البهو الذي امامها

ومما لا خلاف فيه أن اصلاح هذه القبة كان من انجح الاعمال التي قام بها مهندسو حفظ الآثار العربية لأنها اضحت من الداخل محتفظة برونق يقارب ما كانت عليهِ في عهد بنيانها فهناك اكتاف اربعة عظيمة مكسوّة بالرخام الملون من اسفلها ويتوسط هذه الاكتاف اربعة ازواج من الاعمدة الزلطية الضخمة ذات التيجان المذهبة تحمل ثمانية عقود تحمل رقبة القبة التي تغطي التربة . والسقف حولها عربي الطرز مزوق بالذهب والاصباغ ولا شك ان ترتيب هذه الحوامل لا نظير له بمصر الاّ انهُ مقتبس من ترتيب قبة الصخرة بالقدس الشريف والجدران مكسوّة بالرخام «الخردة» الدقيق والمحراب مكون من ثلاث حطات مزدانة بالفسيفساء العجيب على مثال محراب المسجد الاموي بدمشق وقتذاك على ما يقال. ومن أرضية القبة الى قمتها لا ترى الاّ لوناً زاهياً وتذهيباً براقاً وزجاجاً بالشبابيك العليا ملوناً باصباغ متألقة وكل هذا ينبئك بالجمال القوطي وبالذوق الساجوقي في شمال سوريا

ولما زار هذه القبة المرحوم الدكتور ارنست فوكس من اكبر اطباء العيون في العالم سنة ١٩٢٤ قال :

ان زخارفها وحسن انسجامها وتنسيقها وتوزيع النور فيها مما ترتاح لهُ النفس والنظر عند الزيارة

وليست القاعة الكائنة غربي القبة بأقل جاذبية من القبة نفسها حتى بعدما طمست نافورتها المتوسطة واختفى معظم زخارفها. ولا شيء ادعى الى الاعجاب من الزخارف الجصية الهندسية المورقة المصنوعة باليد حول مدخل القبة . وامام القبة والقاعة المدرسة ذات البابين وقد أعيد أصلاح ليوانها الشرقي اما الالونة الاخرى فستصلح في الوقت المناسب

وفي النهاية الغربية للدهليز باب المارستان الذي لم يبق منهُ غير قسم من القاعة الشرقية به فسقية بديعة من الرخام ثم بعض اجزاء من القاعتين الغربية والقبلية

***

مات قلاون فخلفه ابنه «الاشرف خليل » وكان شجاعاً مقداماً عادلاً في الرعية قاسي القلب

على من يتوهم مزاحمتهم له في الملك ففتك بكثير منهم فكان ذلك سبباً في اغتياله وقتله بعد ثلاث سنين

ومن نوادره الطريفة انهُ لما فتح عكّا سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ — ١٢٩٢ م) ودمَّر حصونها ومعابدها حسن اليه ان ينقل باب احدى الكنائس الى القاهرة فنقلها الى مصر غنيمة شاهدة له بالنصر على الصليبيين . وها نحن اليوم نشهد هذا الباب الكنسي بطرازه القوطي مركباً على مدخل مدرسة أخيه الناصر محمد المجاورة لمارستان ابيهما قلاوون

وبعد قتل الاشرف خليل انتخب أخوه الناصر محمد اصغر ابناء قلاوون سلطاناً لمصر باجماع الآراء . وكان اذ ذاك في التاسعة من عمره ثم خلع للمرة الاولى في سنة ٦٩٤ هـ(١٢٦٤ — ١٢٩٥م) وخلفهُ السلطان كتبغا فالملك المنصور حسام الدين لاجين فالناصر ثم خلع للمرة الثانية سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨م) وللخلاف بينهُ وبين الامراء انتخب بيبرس الجاشنكير « او بيبرس الثاني » سلطاناً . وكان اصلاً مملوكاً للسلطان قلاون والذي يهمنا من امره هي تلك « الخانقاه » الجميلة التي انشأها بشارع الجمالية تجاه « الدرب الاصفر » وسنعود اليها قريباً

وقد كان بيبرس الجاشنكير سيء الحظ منحوس الطالع مكروهاً من جميع الأمراء حكام سوريا الذين كان ضلعهم مع الناصر فآل امره في النهاية الى السجن فالموت خنقاً وعاد الناصر محمد الى العرش للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ — ١٣١٠م) فبقي الى ان مات سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠ — ١٣٤١م) وبلغت مدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر

وكان الناصر يعني بشئون البلاد الداخلية فضبط الموازين والمقاييس ووحد الاثمان في اوقات الشدة والغلى كثيراً من الضرائب الضارة بالفقراء من الرعية واستعاض منها زيادة الضرائب على كبار الموسرين ثم منع شرب الخمر وتشدد في حفظ الآداب وعمل على معاضدة العلم ونشر المعارف

وقد شيد هو وأمراء حوله من المباني الفخمة ما لا يدخل تحت حصر . وعادت النهضة التي امتاز بها عصره باحسن النتائج على الصناعة . ومع كثرة التفرع الناشئة من غزارة مادة الاشكال ظهرت وحدة في القصور صريحة جلية لا التباس فيها اصبحت أساساً لطرز يعز نظيره في الاتقان وسرى الترقي التدريجي في وضع الوجهات وتمم القواعد والاصول التي ورثناها عن الزمن السابق فعدت سطوح هذه الوجهات تتخذ فيها مجموعة من الحنايا العالية القليلة الغور يراها الناظر فوق الجدران كأنها صفف أعدت لان تتخذ فيها الشبابيك صفوفاً وفي نهاية هذه الحنيات غطاء أفقي من مداميك المقرنصات ويرى الباب من الشكل ذاته غير ان الحنية فيه أكثر اتساعاً وأبعد غوراً وترتب على هذا الوضع ان كثر استعمال المقرنصات والتفنن فيها . وهذا الوصف الوجيز يجيز لنا القاء نظرة عامة على بعض البنايات الشهيرة التي أنشئت في عهد الناصر محمد وهي مدرسة الناصر

محمد بالنحاسين — المدرسة الجاولية — خانقاه بيبرس الجاشنكير — تربة حسن صدقة — مسجد السلطان الناصر محمد بالقلعة — سراي بشتاك — جامع المارداني

مدرسة الناصر محمد بشارع بين القصرين

هذه المدرسة ملاصقة لقبة السلطان قلاون بدأ بانشائها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا سنة ٦٩٤ هـ وارتفع بناؤها حتى الطراز المذهب بالوجهة فلما أعيد السلطان الناصر محمد الى الحكم للمرة الثانية سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨—١٢٩٩ م) اشترى هذه المدرسة وأكمل بناءها وأنشأ بها قبة جميلة دفنت فيها والدته . ثم أبنه «انوك» الذي توفي سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠م)

ومما يسترعي النظر في هذه المدرسة الوجهة المزينة بالزخارف والكتابات الكثيرة . والمنارة فوق الباب وهي مغشاة بالزخارف الجصية وتحسب من أدق واحسن ما وجد من نوعها

وقد تخربت هذه المدرسة وبطلت الشعائر الدينية فيها ولم يبق منها سوى الايوان الشرقي وبمحرابه الجصي النادر والليوان الغربي وبه شباك من الجص غاية في الدقة ولما توفي الناصر محمد سنة ٧٤١ هـ دفن بتربة أبيه المنصور قلاون

مسجد سلار وسنجر الجاولى

هذا المسجد مبني فوق رابية عالية تعرف «بالكبش» ويتوصل الى بابه العمومي البحري من شارع مراسينة (المرسين) وتاريخ بناء هذا المسجد مكتوب على عتب هذا الباب وهو سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ — ١٣٠٤م) . وهناك في الجهة القبلية الشرقية باب آخر مقرنصه جميل يؤدي الى نواحي قلعة الكبش وبالوقوف على رأس السلم المبتدىء من دركاة الباب البحري نرى ثلاث فتحات أحداها تؤدي الى المسجد والثانية الى المنارة والثالثة الى طرقة

اما المصلى فابوابه خلاويه تعلوها نوافذ صغيرة مغطاة بشقق من حجر مفرغ تفريغاً هندسيًّا ويلي المصلى من الجهة الغربية فضاء مكشوف ربما كان في الاصل صحناً ولا تزال آثار زخارف جصية باقية على بعض جدرانه

واما المنارة الشبيهة بالمبخرة فان قاعدتها المربعة مبنية بالحجر وباقيها مبنى بالطوب على مثال المنارات الاقدم منها . كمنارتي جامع الحاكم ومنارة المدارس الصالحية ومبخرة زاوية الهنود بالتبانة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) وهي في الواقع طرفة فنية . قليلة النظير جاء جمال منظرها متمماً لجمال وجهة المسجد

واما الطرقة فانها تفصل الصحن المكشوف عن تربتي سنجر وسلار . وهي مسقوفة بقبوات

الصلبة وعلى فتحات جانبها القبلي ركبت شقق من حجر مستطيلة الشكل وجوهها محلاة من الداخل والخارج بزخارف مورقة متنوعة لا نظير لها في اثر آخر . وفي النهاية الغربية تربة لمن يدعى «عبد الله الزاكر» تعلوها قبة صغيرة باركانها مقرنص غريب الشكل . وهذه التربة على ما اعلم — هي اقدم القباب المبنية بالحجر اما قبلها فكل القباب كانت تبنى بالآجر

كذلك على الجانب البحري للطرقة تربتان احداهما الشرقيـة للامير سلار التتري الجنس الذي اسر في حرب بين الملك الظاهر بيبرس وبين التتار فاشتراه السلطان قلاون وترقى في خدمته حتى صار من اعيان مماليكه وظل يترقى حتى صار نائباً للسلطنة في عهد السلطان الناصر محمد فأثرى وتمكن من الدولة واخيراً اعتقله هذا السلطان وقطع عنهُ الزاد فمات جوعاً

ومن بدائع الفن في قبة سلار محرابها الرخام والأفاريز المكتوبة اعلاها وبقايا حشوات التابوت التي بلغت أيمتها غاية الدقة

والتربة الثانية للامير علم الدين سنجر الجاولي الذي ولد بآمد سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م) فاشتراه امير اسمه جاولي فنسب اليه ثم التحق بخدمة السلطان ثم بابنه الناصر محمد الى ان مات سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) وهذه التربة أقل من سابقتها فخامة من الداخل

هذا ولا يسع الواقف امام الوجهة البحرية الا الاعجاب ببراعة مهندس هذا المسجد الذي عبر عن اغراض سنجر وسلار تعبيراً فنيًّا دقيقاً بان بني فوق تربتهما قبتين متماثلتين شكلاً وزخرفاً متفاوتين قدراً وعلوًّا واختص كبراهما بسلار وصغراهما بسنجر كذلك قسم جزء الوجهة الكائن على يمين المنارة الى قسمين جعل منهما وجهتين للقبتين متماثلتين وضعاً ونظاماً وكون في كلتيهما مجموعة من ثلاثة شبابيك اوسطها اكبرها وغطيت بغطاء حجري محلى بمقرنص ظريف وتوجت الوجهة باكملها بشرفات مسننة

بقي ان هذا المسجد نسب الى « سنجر » دون « سلار » مع ان سلاراً كان اعظم منهُ جاهاً واوفر . لا وليس في الكتابات التي بالمسجد ما يفيد نسبته الى سنجر

خانقاه بيبرس الجاشنكير

كانت سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) وكانت خلافة القائم بامر الله العباسي ببغداد التي كانت واقعة تحت ضغط حاكمها العسكري ابي الحارث ارسلان البساسيري الملقب بالمظفر . وكان ضلعه مع الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بالقاهرة فعصى مولاه العباسي واشتبك مع جنوده في معركه انتهت بهزيمته ثم دخل ظافراً فخطب فيها للفاطميين « وطرد القائم بامر الله » ثم انتهب قصر الخلافة

واستولى على ما به من نفائس وتحف بعث بها الى القاهرة وفي جملتها منديل الخليفة – اي لفافة عمامته – بعدما هيأ له رأساً من الرخام وشده عليها حتى لا تتغير هيئته . كذلك ارسل مع المنديل رداء الخليفة وشباكاً من النحاس بديع الصنع كان مركباً على احدى نوافذ دار الخلافة ببغداد يجلس فيها الخليفة ويتكىء على ذلك الشباك الذي سنشير اليه قريباً

موقع الخانقاه

اذا بلغت مدرسة الجمالية الابتدائية الاميرية من اي طريق شئت وسرت قاصداً باب النصر فلا تجتاز اكثر من خمسين متراً حتى تجد على يمينك خانقاه بيبرس وعلى يسارك باب « الدرب الاصفر » كان موضعها جزءاً من « دار الوزارة الكبرى » التى كانت تسمى ايضاً « الدار السلطانية » و « الدار الافضلية » بينما المقريزي ينبئنا انها من عمارة « ابنه الافضل » اما الدار التي تنسب الى « امير الجيوش بدر » فهي داره المسماة « دار المظفر » بحارة برجوان

***

عمرت دار الوزارة على يد الافضل بن امير الجيوش كما قلنا واختير للشباك الذي ارسله البساسيري من بغداد الى القاهرة موضع مناسب بدار الوزارة الكبرى يجلس فيه الوزير ويتكىء عليه تقليداً للعباسيين . الى ان كانت ايام صلاح الدين يوسف بن ايوب الذي قوض اركان القصور الفاطمية وقضى على خلافة الفاطميين ومجدهم فكان عمله هذا رداً لفعل البساسيري في بغداد

اما دار الوزارة فآل امرها اخيراً الى انها في سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ — ١٢٩٤ م) جعلت سجناً لفريق من المماليك الاشرفية

امر بانشاء هذه الخانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري وهو امير فبدأ في بنائها سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) وبنى بجانبها رباطاً يتوصل اليه من داخلها وقد دثر وبني بجانب الخانقاه تربة فيها قبره

وفي الطرف القبلي للوجهة الغربية باب الخانقاه وهو باب شاهق به اعتاب من الرخام وكتابات ومصراعاه مغشيان بالنحاس الدقيق تعلوه منارة مربعة كانت قمتها مكسوة بالقاشاني الازرق وهو اقدم ما عثر عليه ثم قلده الناصر في منارتي جامعه بالقلعة

والوجهة الغربية في مجموعها جميلة الشكل متناسبة الاوضاع وتشهد لمهندسها بسلامة الذوق وتضلعه من فنه ونرجح انه تتري الجنس . وبوسط هذه الوجهة شباك كبير من النحاس كان مركباً على احدى نوافذ دار الوزارة الكبرى الفاطمية

ويعلو هذه الوجهة افريز مكتوب به اسم المنشىء . وقد تعمد الناصر محمد بن قلاون محوه وترك مكانه مشوهاً الى الآن

والقبة وان كانت يسود ظاهرها البساطة مع الضخامة الا ان داخلها يشتمل على محراب دقيق ووزرة من الرخام بها كتابات بالخط الكوفي المربع وأرضية من الرخام . القسم الواقع منها امام المحراب على هيئة محاريب على فتحتها حاجز من الخرط كتب عليه تاريخ الفراغ منها

مسجد الناصر محمد بن قلاون بالقلعة

كان موقع هذا الجامع قبل انشائه مسجداً صغيراً ومخازن للمفروشات والمطبخ بالقلعة فأزال السلطان الناصر محمد تلك الابنية وأنشأ مكانها هذا الجامع سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨م)

وفي سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م) هدمهُ وأعاد بناءَهُ فلما كمل قرر تدريس الفقه بهِ ووقف عليهِ أوقافاً للصرف عليهِ

وهو من الجوامع الكبيرة لهُ بابان أحدهما غربي تجاوره منارة بدنها أسطواني وقمتها غشيت بالقاشاني على هيئة المنارات الفارسية والباب الآخر في الوجهة البحرية التي ترى في نهايتها منارة ثانية قاعدتها مربعة ودورتها الثالثة مغشاة بالقاشاني ومكتوب عليها «الله لا اله الا هو الحي القيوم»

والجامع من الداخل يشتمل على أربعة ايوانات محدقة بالصحن المكشوف أكبرها ايوان القبلة وامام المحراب قبة كبيرة اقيمت على عمد ضخمة من الجرانيت الاحمر وبدائر الجامع من أعلاهُ نوافذ كانت مغطاة من الداخل والخارج بشبابيك من الجص تدل البقايا المخلفة منها على انها كانت على جانب عظيم من الجمال . وكانت جدران الجامع مغشاة بوزرة من الرخام الى ارتفاع نحو ٥٠ ر ٥ متر لم يبقَ منها الا أجزاء قليلة بعضها أشرطة من الرخام والبعض الآخر من الرخام الدقيق المطعم بالصدف كما ان أرضيته كانت مفروشة بالرخام

ومن مميزاته دقة الصناعة والنقش في السقف التي عملت من طرز مخصوص شاع في أبنية أسرة قلاون وفي عصره

وقد عنى السلطان قيتباي بهذا الجامع فأصلحه ووسع ميضأته سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م)وفي سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٧ م) كان الفراغ من القبة التي أمر هذا السلطان بتجديدها بدلاً من التي سقطت وجدد لهُ منبراً من الرخام الملون غير انهُ لم يلبث ان تخرب كغيره الى ان عنى بهِ قسم الآثار العربية فأصلح مئذنته وقوم عمده وجدرانه وعقوده . واعاد بناء القبة وجزء من السقف الى أصله . وسعوا في اصلاحه حتى يعود الى سابق رونقهِ

قصر بشتاك بشارع بين القصرين

سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ — ١٣٣٥ م)

هذا القصر يقابل مسجد (مدرسة) برقوق والمدرسة الكاملية بشارع بين القصرين يتوصل اليه من باب حديث بدرب قرمز — انشأه الامير بشتاك على جانب من ارض القصر الشرقي الكبير انتقل من بعده الى كثيرين ثم امتدت اليه يد التخريب حتى آل الى الاندثار ومع ذلك فان البقية الباقية منه تنبيء بما كان عليه هذا القصر من فخامة وجمال . ونظرة الى الردهة العليا الكبرى المشرفة على شارع بين القصرين وما يكتنفها من حجرات تكفي للاقتناع بجمال سقوفها . ودقة صنع الوزرات الرخام التي عثرنا على بقايا ضئيلة منها . وبصرف النظر عن جميع هذه الاعتبارات فان مما يعلي قدر هذا القصر العظيم انه هو النموذج الوحيد المحتفظ بكثير من تفاصيله من قصور المماليك والذي يعطي المشتغلين بتاريخ العمارة الاسلامية فكرة عن تخطيط قصور ذلك العهد

جامع المارداني بالدرب الاحمر

سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨ — ١٣٣٩ م)

انشأه الطنبغا المارداني الساقي على مثال مساجد الجامع اي انه مكون من اربعة ايوانات تحدق بصحن مكشوف وبابه البحري كسيت وجهته بالرخام الجميل وايوان القبلة اكبر الايوانات غشيت جدرانه بوزرة من الرخام الدقيق المطعم بالصدف وتخللها مستطيلات بها كتابات كوفية مربعة. والمحراب وهو من الرخام والصدف تحفة فنية نفيسة ويعلو المحراب قبة ذات مقرنصات من خشب محلى بالنقوش والذهب . والسقوف من النماذج الجميلة المذهبة . كذلك المنبر فانه دقيق الصنع ويتوسط الصحن نافورة نقلتها اليه لجنة حفظ الآثار العربية وقت اصلاح الجامع سنة ١٣١٣ — ١٣٢٣ هـ (١٨٩٥ — ١٩٠٥ م) وقد حليت وجهات الصحن بزخارف جصية ثم توجت بشرفات مسننة وحلي بعضها بغطاء من القاشاني الاخضر

اما مهندس الجامع فهو المعلم ابن السيوفي الذي بنى مئذنة المدرسة الاقبغاوية بالجامع الازهر

جامع آق سنقر ابراهيم اغا مستحفظان بشارع التبانة

سنة ٧٤٧ — ٧٤٨ هـ (١٣٤٦ - ١٣٤٧ م)

انشأه الامير آق سنقر السلاري أحد امراء السلطان الناصر محمد بن قلاون . وهو مكون من

اربعة ايوانات يتوسطها صحن والايوانات مسقوفة بعقود صلبة محمولة على اكتاف من حجر ثمانية الاضلاع وفي الطرف القبلي للوجهة العمومية اقيمت منارة دوراتها كلها اسطوانية . يقابلها في الطرف البحري قبة فوق تربة دفن فيها الامير علاء الدين كجك ابن السلطان الناصر محمد

والمنبر من الرخام وبابه من خشب مطعم بالسن والمحراب من رخام خردة دقيق تعلوه قبة وبوسط الصحن فسقية انشأها الامير طوغان الدوادار سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢م)

وفي سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥١—١٦٥٢م) اصلح الجامع ابراهيم اغا مستحفظان وكسي جدار الايوان الشرقي بالقاشاني الازرق الجميل فسمي الجامع لهذا السبب (الجامع الازرق) وقد انشأ ابراهيم اغا لنفسه في الطرف الغربي للايوان القبلي مدفناً كسيت جدرانه من اسفل بالرخام الملون الدقيق ومن اعلاها بالقاشاني الجميل . اما قبر آق سنقر فهو الآن شرقي مدفن ابراهيم اغا

مسجد السلطان حسن بميدان صلاح الدين

سنة ٧٥٧ — ٧٦٤ هـ (١٣٥٦ — ١٣٦٣ م)

هذا المسجد اكثر مساجد القطر فخامةً واحسنها شكلاً . واجمعها لمحاسن العمارة وادلها على ... لهمة وعاية العناية التي بذلت في انشائه . بلغ طوله ١٥٠ متراً وارتفاعه عند بابه ٣٠ر٣٧ متراً . ومن الصعب تحديد شكله لان في وضعه بعض ازورار وغاية ما ينتهي اليه الوصف انه كثير الاضلاع . ممتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي

والداخل الى هذا المسجد من بابه البحري العام يواجه مدخلاً مربع الشكل ... السلاسل ... المتعامد مكون من ثلاثة ايوانات وصحن يشبه ان يكون مسجداً صغيراً وبجداره ... الشرقية طريقاً مستطيلاً ينتهي به الى الجهة الشرقية القبلية فيصل الى صحن ... ٣٢ × ٦٠ و٢٤ متراً . يتوسطه حوض كبير للوضوء تعلوه قبة . ... الاربعة ايوانات اربعة وفي زاوية من زواياه الاربع باب يصل الى احدى ... عدت لدرس في كل منها مذهب من المذاهب الاربعة . واكبرها ... الايوانات هو الايوان الشرقي . ... الوزرة الرخام الجميلة وبدائره اطار ... من سورة الفتح كتبت بالخط الكوفي الدقيق الصنع العديم المثال . وسقفه ... ثلاثة لاخرى مكون من قبو مدبب من حجر . وفي هذا الايوان دكة ... والمحراب يتوسط وجهته الشرقية وهو مكسو بالرخام الملون المحلى ... وعن يمين المحراب المنبر وهو من الرخام الابيض وبابه من الخشب المصفح بالنحاس ...

القبلة ببابان يوصلان الى القبلة العظيمة التي تتوسطها مقصورة من خشب حديثة الصنع داخلها تابوت من رخام عمل بعد وفاة السلطان حسن بنحو ثلاث سنوات

وأحد البابين المذكورين وهو القبلي مكسوٌ وجهه بالنحاس المطعم بالذهب والفضة وهذا كان حال الباب البحري قبل ان تعبث به يد الزمان . ونظرة الى رسوم هذا التطعيم تدل على مبلغ ما وصل اليه فن الزخرفة من الرقي في ذلك العهد

والقبة مربعة الشكل طول ضلعها ٢١ متراً وارتفاع جدرانها ٢٠ر٣٠ المتر الى مبدأ القبة التى تبلغ ذروتها ٤٨ متراً . وجميع جدرانها مكسوّة بالرخام الفاخر حتى ارتفاع ٨ أمتار وفوق الرخام طراز من خشب علوه ثلاثة أمتار محلى بكتابة قرآنية بالخط النسخ وتاريخ الفراغ من بناء القبة وهو سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ — ١٣٦٣ م)

وللجامع منارتان يبلغ ارتفاع كبراها ٦٠ ر ٨١ المتر

هذا وقد مات السلطان حسن قبل ان يكمل المسجد فاستمر في عمارته أحد أمرائه وهو بشير أغا الجامدار ومع ذلك فان بعض زخارفه لم تكمل الى الآن

دولة المماليك الجراكسة أو « البرجية »

سنة ٧٨٤ — ٩٢٢ هـ (١٣٨٢ — ١٥١٠ م)

مات الناصر محمد بن قلاون ولم يترك خلفاً . فوقعت البلاد في فوضى مدة ٤١ سنة تنازع الملك فيها ملك بعد ملك من أولاده وانقضى الأمر بانقراض دولة المماليك البحرية بعد ان حكمت مدة ١٣٢ سنة واستيلاء المماليك الجراكسة على الملك . وهنا يشعر الانسان بالانشراح عندما ينتقل من ذكر أمراء وصبيي النشأة أتيح لهم النفوذ باسم سلاطين من الاطفال الى عقد الملوك صار اليهم الأمر حقاً فحكموا بأسمائهم وتولوا الأمر بأنفسهم حقاً

اولئك هم المماليك الجراكسة أو « مماليك المنصور قلاون » لأنه هو الذي أكثر من شرائهم وجعلهم في ابراج القلعة فسموا « البرجية » وهم يختلفون في الخاص عن المماليك البحرية لأن معظمهم من الجراكسة وأولئك من الترك . ولم يكن الملك فيهم وراثياً قط كما كان في بيت قلاون بل كان استيلاء كل ملك من ملوكهم متوقفاً على شهرته الحربية ومقدرته على الفوز بتأييد زملائه من الأمراء وعدد سلاطينهم ثلاثة وعشرون حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة وحكم في التسع السنوات الاخرى أربعة عشر

وفيما يلي بيان بأسماء السلاطين الجراكسة ومدة حكم كل منهم

الاسم	مدة الحكم هجرية	مدة الحكم ميلادية
الظاهر برقوق	٧٨٤	١٣٨٢
الناصر فرج بن برقوق	٨٠١	١٣٩٨–٩
عبد العزيز برقوق	٨٠٨	١٤٠٥
الناصر فرج (للمرة الثانية)	٨٠٩	١٤٠٦
المؤيد شيخ	٨١٥	١٤١٢
المظفر احمد بن شيخ	٨٢٤	١٤٢١
الظاهر تتر	٨٢٤	١٤٢١
محمد بن تتر	٨٢٤	١٤٢١
الاشرف برسباي	٨٢٥	١٤٢١–٢
يوسف بن برسباي	٨٤٢	١٤٣٨
الظاهر جقمق	٨٤٢	١٤٣٨
عثمان بن جقمق	٨٥٧	١٤٥٣
اينال	٨٥٧	١٤٥٣
احمد بن اينال	٨٦٥	١٤٦٠–١
خوشقدم	٨٦٥	١٤٦٠–١
الظاهر بلباي	٨٧٢	١٤٦٧–٨
تيمور بغا	٨٧٢	١٤٦٧–٨
الاشرف قايتباي	٨٧٣	١٤٦٨–٩
محمد بن قايتباي	٩٠١	١٤٩٥–٦
الظاهر قانصوه	٩٠٤	١٤٩٨–٩
جانبلاط	٩٠٥	١٤٩٩–١٥٠٠
قانصوه الغوري	٩٠٦	١٥٠٠–١
الاشرف طومانباي	٩٢٢	١٥١٦

وقد ظهر من بين هؤلاء السلاطين سلاطين عظام شيدوا بنايات جليلة لأغراض شتى وادخلوا على مفصلاتها تهذيباً وتعديلاً كبيرين. فسطوح القباب اخذت زخارفها وازينت . واعمال الفسيفساء والتطعيم ارتقت . وصحون بعض المدارس غطيت بسقوف بعد أن كانت عارية . وبالجملة اطرد التقدم في مختلف الصنائع والفنون. هذا الى أن المآذن في عهد هذه الدولة تطورت تطوراً غير من شكلها ومن زخارفها ففي مئذنة مدرسة برقوق نرى دورتها الوسطى طعمت بالرخام لأول مرة وتلتها مئذنة مدرسة القاضي يحيى سنة (٨٤٨ هـ — ١٤٤١ م) بشارع بين النهدين

أما من حيث الشكل فقد رأينا قانباي اميراخور بنى سنة ٩٠٨—٩١١ هـ (١٥٠٢ - ١٥٠٥م) مئذنتين بكل منهما رأسان وحذا حذوه السلطان الغوري . فبنى مئذنة مدرسته بأربعة رؤوس وكساها بالقاشاني كما كسا به قبة تربته . وهذا تطور جديد شاع بعده في قباب مسجد سليمان باشا بالقلعة سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) وفي قبة الشيخ سعود سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٥ م) وها نحن نأتي هنا على ذكر بعض البنايات الشهيرة التي شيدت في عهد هذه الدولة

مسجد السلطان الظاهر برقوق بشارع بين القصرين

سنة ٧٨٦ —٧٨٨هـ (١٣٨٤ — ١٣٨٦م)

هذا المسجد انشأه الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أول ملوك الجراكسة وهو لاصق بمدرسة الناصر محمد بن قلاون من الجهة البحرية فتكونت من وجهتيهما ومن وجهة تربة ومدرسة قلاون مجموعة من اجمل المباني الاثرية منظراً

ووجهة الجامع الشرقية المشرفة على شارع بين القصرين جميلة للغاية ففي طرفها البحرى منارة ضخمة متناسبة الابعاد طعمت دورتها الوسطى بقطع من الرخام متماثلة الشكل تعد الاولى من نوعها في المآذن

والباب العمومي مركب عليه درفتان من الخشب مكسوتان من الخارج بالنحاس المطعم بالفضة وهذا الباب يؤدي الى طرقة توصل الى الصحن المكشوف المفروشة أرضه بالرخام . والمحاط بايوانات اربعة اكبرها ايوان المحراب المقسم الى ثلاثة اروقة اكبرها اوسطها وسقوفها الخشبية مموهة بالذهب والمحراب مكسو بالرخام المختلف الالوان والمحلى بفصوص من الصدف . أما الايوانات الثلاثة الباقية فمسقوفة بقبوات من حجر. وبالركن البحري الشرقي للصحن باب يؤدي الى التربة التي كان أعدها برقوق لنفسه ثم عدل عنها الى تربته التي انشأها له ابنه الناصر فرج ونقل اليها رفاة والده «انس» كما دفن بها بعض افراد أسرته. ومما يستوقف النظر في هذه التربة الوزرة الرخام المنتهية بطراز مكتوب بالذهب يتضمن تاريخ انشاء المدرسة

ومن طرائف صناعة النجارة في هذا المسجد درف بعض أبوابه وقد حليت بزخارف ناتئة على هيئة الصور والزوايا النحاسية التي تكسو بعض الابواب في آثار أخرى

تربة برقوق بجبانة المماليك

سنة ٨٠١—٨١٣ هـ (١٣٩٨—١٤١١ م)

هذه اضخم تربة وجدت في جميع جبانات مصر والقاهرة . وضع تصميمها ليخدم اغراضاً هامة متعددة فبينما ترى كمدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية اذا بها مسجد فسيح الارجاء وبينما هي أعدت لتكون تربة للمدرسة الظاهرية اذا بها خانقاه فخمة للصوفية

هذا الى انها حوت من المميزات العمارية ما لا نظير له في سواها. والناظر الى الوجهة الغربية لايسعهُ الاَّ الاعجاب بمنظرها . ففي طرفيها البحري والقبلي سبيلان يعلوهما مكتبان يحصران بينهما منارتين متماثلتين شكلاً

كذلك الوجهة الشرقية على طرفيها قبتان شامختان يحصران بينهما قبة ثالثة أقل حجماً تعلو المحراب . وقد حلي سطح القبتين بنقوش بارزة على شكل دالات نقشت في الحجر. ومما يسترعي النظر أن سقوف الايوانات غطيت بقبوات نصف كرية مبنية بالاجر ومحمولة على عقود أطرافها متكئة على اكتاف من الحجر قواعدها وتيجانها مربعة اما ابدانها فثمنة

والمنبر من الحجر المنقوشة عليه زخارف هندسية الشكل انشأه هو والدكة الخشب السلطان قايتباي سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م)

ولما مات برقوق سنة ٨٠١هـ (١٣٩٨—١٣٩٩ م) دفن بالتربة الكائنة بالقبة البحرية ودفن معهُ بعض اولاده

اما ابناؤهُ وزوجاته فدفنوا في الترب الكائنة بالقبة القبلية

جامع المؤيد بشارع السكرية

سنة ٨١٨ — ٨٢٣ هـ (١٤٠٥ — ١٤١٠ م)

هذا الجامع الكبير أنشأه السلطان الملك المؤيد شيخ . ومدخله الكائن في الطرف البحري للوجهة الشرقية مركبة عليه درفتان من الخشب مكسوتان بالنحاس المحلى بزخارف هندسية بديعة كانتا في الاصل مركبتين على باب مسجد السلطان حسن . فاشتراهما المؤيد بابخس قيمة وركبهما على باب جامعه ولا يزال اسم السلطان حسن منقوشاً عليهما الى الآن

وبالدركاة بابان متقابلان احدهما القبلي يؤدي الى مدفن السلطان والآخر البحري يؤدي الى صحن الجامع الذي تحول الى حديقة . اما الايوانات الاربعة فقد تهدم ثلاثة منها فلم يبق سوى الايوان الشرقي المكسي جزء من جدرانه بوزرة من الرخام المختلف الالوان بجوار المحراب منبر حشواته المجمعة على هيئة اشكال هندسية مطعمة بالسن والسقف محمول على اعمدة من رخام وكله محلى بنقوش عربية مذهبة

ومنارتا الجامع منفصلتان عنهُ وقائمتان على بدنتي باب زويلة . ومما يبعث على الاستغراب الشديد وجود افريز بأعلى الوجهة الشرقية مشحون بآيات قرآنية تسرب الخطأ الى بضع كلمات منها ولعلَّ هذا هو الحادث الوحيد من نوعه فيما كتب على الآثار الاسلامية بمصر الآن

مسجد الاشرف برسباي بالاشرفية

سنة ٨٢٦ — ٨٢٧ هـ (١٤٢٢ — ١٤٢٤ م)

أمر بانشائه الملك الأشرف برسباي منشيء الجامع بالخانكاه والتربة بجبانة المماليك ودرفتا

بابه العمومي مكسوتان بالنحاس المخرم تخريماً هندسياً . وهو كجميع المدارس مكون من صحن تحيط به أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة المكسوة بالرخام البديع اما المنبر فانهُ تحفة فنية قليلة النظير . وبالركن البحري الشرقي للمسجد تربة دفنت بها زوجة الملك الأشرف وابنه الناصري محمد وأقيمت فوقها تربة ظهرها محلى بنقوش على شكل دالات

تربة الاشرف أبي النصر قايتباى

سنة ٨٧٧ — ٨٧٩ هـ (١٤٧٢ — ١٤٧٤ م)

هذه التربة من أشهر الأماكن الأثرية التي يندر ان لا يزورها قاصدو القاهرة الاجانب من سائحين وعلماء ومستشرقين . وشهرتها هذه ترجع الى ميزتين في تصميمها وهما تناسب مجموعة أجزائها خصوصاً مجموعة القبة والمنارة والسبيل والمكتب . ثم الزخارف والنقوش البديعة المنتشرة في الداخل والخارج . والواقف في صحن المصلى الملحقة لا يرى الأ رخاماً مختلف الألوان متنوع الاشكال وسقوفاً منقوشة ومموهة بالذهب وشبابيك من الجص والزجاج تسر الناظرين . وفي القبة كرسي للسورة بلغت فيه صناعة الأويمة منتهى الدقة . أما ظاهر القبة فحدث عن جمال زخارفه المورقة ولا حرج . وأما المنارة فرشاقتها ظاهرة للعيان

قبة يشبك (الفداوية) بشارع العباسية

سنة ٨٨٤ — ٨٨٦ هـ (١٤٧٩ — ١٤٨١ م)

عرفت هذه القبة « بالفداوية » نسبةً الى طائفة من بلاد « الاسماعيلية » أبناؤها أشداء مستهترون بالموت ويسترخصون الحياة ولذلك عني بهم ملوك مصر وخصصوا لهم المرتبات

أما منشيء هذه القبة فهو الامير يشبك الدوادار سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) وأنشأ بجوارها مدرسة وغرس حولها حدائق مما جعل هذه المنطقة احدى متنزهات القاهرة وبها سيدان كان فضاء يحوي بعض القبور . ومات الامير يشبك قبل ان يتمها فأتمها السلطان (قايتباي) وهي وان سادتها البساطة من الخارج إلاّ أنها حافلة بالزخارف الجصية من الداخل . وبها منبر ظريف نقل اليها من جامع كاتم السر . وقد انشأت مصلحة التنظيم حولها حديقة غناء

مسجد قجماس الاسحاقي بشارع الدرب الاحمر

سنة ٨٨٥ - ٨٨٦ هـ (١٤٨٠ - ١٤٨١ م)

أنشأ هذا المسجد الامير سيف الدين قجماس الاسحاقي وألحق به تربة ليدفن فيها إلا انهُ مات بدمشق ودفن هناك فبقيت التربة خالية الى سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥٢ م) حيث مات

الشيخ احمد ابو حريبة ودفن بها فاشتهر المسجد من ذلك الحين باسم « مسجد ابي حريبة »

وبمقابلة هذا المسجد بمسجد قايتباي الملحق بتربته نجد وجوه الشبه متوفرة بينهما من الداخل الى حد كبير . فمن سقوف مذهبة الى شبابيك جصية ملونة ومن رخام دقيق منوع الاشكال الى نجارة متقنة للغاية . أما من الخارج فزخارف مسجد قجماس فاقت سواها من الآثار الأخرى ولا يدانيها الى حد ما سوى زخارف سبيل قايتباي بشارع الصليبة

مسجد الغوري بالغورية

سنة ٩٠٩ — ٩١٠ هـ (١٥٠٣ — ١٥٠٤ م)

هذا المسجد الصغير على يمين السالك من شارع الازهر الى باب زويلة . وهو ان اشترك في التخطيط مع امثاله من المساجد الاخرى خصوصاً مسجد قايتباي وفي تمويه السقوف بالذهب وتغطية النوافذ بشبابيك جصية ملونة وفرش الارضية بنوع الرخام المختلف المكون منها اشكال هندسية ظريفة الا انه انفرد بوجود منور مفتوح بوسط سقف الصحن ومنارته المربعة الادوار منتهية بأربعة رؤوس كانت مكسوة بالقاشاني الازرق الذي لا تزال آثاره باقية الى الآن

ومن مقارنة وجهة هذا المسجد بالوجهة الغربية لتربة وخانقاه الغوري المقابلة لها يتضح انهما متماثلان في الارتفاع وفي كثير من التفاصيل والزخارف كما انهما تمتازان عن بقية الوجهات السابقة لها بأمرين اولهما ارتقاء شكل الشرفات . والثاني عمل الكسوة الرخام التي تعلو فتحات الشبابيك من حطتين مزررتين تزريراً دقيقاً بدلاً من حطة واحدة

العصر العثماني

ابتداء من سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)

بعد ما تطورت العمارة الاسلامية بمصر هذا التطور البديع وبلغت اوج الرقي والازدهار عادت مصر فاصطدمت بالفتح العثماني لها سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) وتحولت من امبراطورية واسعة الأطراف الى امارة عثمانية . وبارت الصنائع فيها بما أقدم عليه السلطان سليم من جمع المهرة والمبرزين من الصناع في كل فرع من فروع الصناعة وارسالهم الى الاستانة فتحول الطراز الاسلامي الجميل عن طريقه القويم وتغلغل فيه الطراز البيزانطي فضعف فمات ولم تقم له قائمة

ولكن على الرغم من كل هذا ظهرت مساجد مبنية على الطراز التركي لها طرازها الخاص من ناحية التخطيط وحده مثل مساجد سليمان باشا وسنان باشا والملكة صفية ومحمد بك ابي الذهب . اما في تفاصيلها فقد تجلت روح الصناعة المملوكية الى حد ما كما هو الحال في جامع البرديني

فرخام الوزرات والأرضيات والسقوف والمقرنصات لا تقل جمالاً ولا اتقاناً عن كثير من نظائرها في بنايات المماليك

وقد ندر استعمال الحجر الابيض في البناء وحل محله الحجر الاحمر

اما الاسبلة وما يعلوها من كتاتيب فقد قل جدًّا عدد الملحقة منها بالمساجد كما كثر عدد المستقلة منها . وحليت وجهات الأسبلة بزخارف مفرغة على الحجر على اشكال هندسية منتظمة كذلك الشبابيك النحاس فان عدداً كبيراً منها تحول عن طريقة المصبعات (الأرماح والخرزات) الى قطع من القضبان المتعرجة بكيفية تجعل من مجموعها اشكالاً هندسية ظريفة وفي كل من كتاب المطهر بالصاغة وكتاب عبد الرحمن كتخدا بشارع بين القصرين استخدم رفان بدلاً من رف واحد وفي العقود يرى العقد الموتور — استعمل في عدد من ابواب المساكن وفتحات المقاعد — بدلاً من « العقد المدبب »

كذلك المنارات فان منها ما بدنه مضلع .وقد يكون اسطوانيا املس وكلا النوعين نادر جداً. اما الشائع كثيراً فهو الاسطواني المقسم سطحه الى مناطق مفصولة بعضها عن بعض بفروع خيزرانية بارزة عن السطح . وكل هذه الابدان الثلاثة تنتهي دائما بمسلة مخروطية الشكل مكسو ظاهرها بألواح من رصاص على ان هناك بعض منارات التزم فيها المهندس الطرز المملوكي كمنارات البرديني بالداودية وحسن باشا طاهر ببركة الفيل والعريان بسوق الزلط والكردي بسويقة اللالا

اما النجارة فقد تطورت تطوراً محسوساً . فالمصاريع تكون وجوهها من حشوات مستطيلة ضيقة متعامدة ومتعرجة ومرتبطة بعضها ببعض بمقاسات (فواصل) تجعل منها نماذج طريفة تميز لدى رجال الصناعة باسماء مختلفة نذكر منها(المعقلي)و(الرضواني)و(موج البحر)والسداسي)

واول ما يلاحظ هذا التطور واضحاً في نجارة مسجد (سليمان باشا) (بسارية الجبل) بالقلعة فان مصاريع الشبابيك والخزائن والابواب رغماً عن دقة صنعها استخدم فيها الخشب الثمين (كالبقس) و (الابنوس) وصنعت مغالقها من النحاس المحلى بنقوش محفورة غاية في الدقة . ومثال آخر لهذا التطور نجارة مسجد الملكة صفية فمسجد داود باشا الذي تفوقت نجارته على نجارة سابقيه.ورغم هذا التفوق فان نجارة المماليك لاتزال صاحبة المقام الاول في الدقة والجمال .

وما يقال عن المصابيح يقال عن اشكال الخرط كالشربيات والشبابيك فقد كثر استعمالها في المساكن وتنوعت اشكالها وحليت شرائح الخرط أحياناً بكتابات حروفها من الخرط ذاته أو بزهريات أو اباريق ونحوها . اما القاشاني فقد شاع استعماله في كسوة الجدران اكثر منه في اي عهد سابق حيث غشيت اماكن باكملها بالقاشاني الذي يرى أحياناً محلى بكتابات قرآنية وغيرها أو برسوم اهمها رسم الكعبة المشرفة

وهناك حالات غشيت فيها الجدران بوزرات من الخشب المطلي بالدهان المقسم على هيئة تربيع القاشاني ومما لاشك فيه ان هذه الوزرة المزيفة أقل قيمة من القاشاني الحقيقي لكن هل يكون الاقتصاد وحده هو الباعث على هذا التزييف . ويخيّل اليّ ان الباعث على هذا العمل هو رطوبة الجدران وهي ميزة لاتتوافر في الوزرات الرخام أو القاشاني

على ان الاهم من كل ما سبق هو تطور القبة . فقد جعلت الرقبة من حطتين مضلعتين احداهما فوق الاخرى والحطة العليا أقل سمكاً من السفلى وكلتاهما مدعمة في أركان التضليع بدعائم مضلعة أو مستديرة ومنهية بمخاريط أو اهرامات . تتوجها احياناً كريات وبين الدعائم توجد الشبابيك . اما الغطاء في القبة التركية فهو أقل ارتفاعاً من نظيره في القباب المملوكية وهذه القلة في ارتفاع الغطاء تقابلها زيادة في ارتفاع الرقبة بحيث يمكن القول بان مجموع ارتفاعي الرقبة والغطاء في كلتا القبتين واحد

هذه هي مميزات الطراز العثماني بمصر ذكرناها باختصار وعلى الرغم من شيوعه بمصر طول مدة الحكم العثماني فانه أخذ في التقهقر والانحطاط في أواخر القرن الثاني عشر الهجري أي الى قبيل الحملة الفرنسية . فلما تبوأ عرش مصر المغفور له محمد علي باشا أنشأ طرزاً جديداً من العمارة جمع بين الطرز العثماني المصري وبين طرز العمارة الاولى خصوصاً الفرنسي . وتجلى في الابنية الاميرية وفي قصور الامراء والعظماء . ثم ما لبث هذا الطرز ان تلاشى وعمت الفوضى جميع البنايات فصارت لا تمت بصلة الى طرز من طرز العمارة المعروفة غير ان هذه الحالة قد تخللها فترات قليلة ظهرت فيها بنايات جليلة في عهد المغفور لهما الخديو اسماعيل باشا والملك فؤاد الاول كسراي الجزيرة وجامع الرفاعي والجامعة المصرية

على اننا نرجو ان تستعيد مصر مجدها وتتبوأ المكان اللائق بها كأمة عريقة في فن العمارة وكل فن جميل في ظل مليكنا المحبوب فاروق الاول حفظه الله وابقاه ونختم هذه الكلمة بوصف بعض الآثار العثمانية الشهيرة بالقاهرة

مسجد المحمودية بميدان صلاح الدين

سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م)

يقع المسجد امام أحد ابواب القلعة المسمى (باب العزب) وشرقي جامعي الرفاعي والسلطان حسن . أنشأه محمود باشا أحد ولاة مصر في العهد التركي وهو مرتفع عن مستوى الشارع يصعد اليه بسلم يؤدي الى داخل المسجد من مربع يتوسطه اربعة عمد كبيرة من الجرانيت تحمل منوراً كبيراً مرتفعاً عن السقف وحول العمد سقوف للمسجد مموهة بالذهب والالوان . وفي

جدار المحراب باب يوصل الى قبة ملحقة بالمسجد وبارزة عنهُ وهذا ثاني نموذج من نوعه في المساجد حيث كانت قبة مسجد السلطان حسن هي أولى القباب البارزة عن جدار المحراب

ولم يقتصر الاقتباس على القبة بل تعداه الى قاعدة المنارة من حيث الوضع والشكل . أما جزؤها العلوي فتركي الطرز الذي ينتهي عادة بمخروط

جامع الملكة صفية بشارع محمد على

سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م)

هذا الجامع مكون من جزئين أحدهما الصحن والآخر القبة . أما الصحن فله ثلاثة أبواب في جوانبه الثلاثة القبلي والغربي والبحري يتوصل اليها من ثلاثة سلالم دائرية . الاّ ان السلم البحري هدم في وقت ما وبدائرة الصحن أربعة ألونة سقوفها مقبية ما عدا أربعة منها فانها على شكل مخاريط منحنية الاضلاع

وأما القبة فانها كائنة شرقي الصحن يتوصل الى قاعدتها المربعة من ثلاثة أبواب مفتوحة في جانبها الغربي . وأجمل هذه الابواب أوسطها . وهو يحمل فوق عتبه لوحة من رخام منقوش عليها اسم منشئة الجامع وهي الملكة صفية والدة السلطان محمد خان الثالث وتاريخ انشائه وهو سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م)

وبوسط الجنب الشرقي للقاعدة فجوة بارزة عنهُ تشغل المحراب ومنبراً من الرخام المزخرف ودكة المبلّغ التي تعلو الباب الاوسط محمولة على عمودين من رخام وسقفها مقسم على هيئة أشكال هندسية ودرابزينها خرط جميل . والمنارة مبنية على الطرز التركي والجامع كله مبني بالحجر الاحمر كعادة المباني التركية بمصر

مسجد البرديني بشارع الداودية

سنة ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م)

أنشأ هذا المسجد كريم الدين احمد البرديني . ومن بابه العمومي تتكون وجهتهُ الغربية وجميع مبانيه بالحجر وهو عبارة عن قاعة صغيرة جمعت محاسن العمارة الاسلامية . فالجدران كسيت بوزرة من الرخام الدقيق المختلف الالوان وبها كتابة بالخط الكوفي المربع يعلوها طراز من الرخام الدقيق

والمحراب من الرخام البالغة صناعته حد الاتقان . والشبابيك من الجص المحلى بزجج ملون

وبجوار المحراب محراب صغير مطعم بالصدف والسن . وبالجهة الغربية دكة المبلّغ وسقف الجامع محلى بنقوش مذهبة

أما المنارة فهي كائنة على يسار الباب وقد أنشئت سنة ١٠٣٨ هـ — (١٦٢٨ — ١٦٢٩ م)

بيت جمال الدين الذهبي

بحارة خشقدم سنة ١٠٤٧ هـ — (١٦٣٧ م)

أنشأ هذا المنزل الخواجه جمال الدين الذهبي كبير التجار بمصر وهو يكاد يكون باقياً على حالته الاولى ومظهره الخارجي لا يستوقف النظر على ضدّ مظهره الداخلي فانهُ جدير بالاعجاب

فعلى حوشه اللطيف يشرف من الجهة القبلية مقعد ذو عقدين متكئين على عمود من الرخام ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الكبرى ذات الليوانين تتوسطها دور قاعة مغطاة بقبة صغيرة من الخشب . وجدران القاعة مكسوّة اسفلها بوزرة جميلة من الرخام الدقيق وبصدر القاعة مشربية لطيفة مطلة على الشارع تعلوها شبابيك صغيرة من الجص المحلى بقطع من الزجاج الملون وسقفا القاعة والمقعد محليان بالدهان المموه بالذهب ومما يلفت النظر في هذا البيت حمامه الصغير الكامل النظام ثم المجازات الخفية التي توصل فيما بين الحجرات فضلاً عن السلالم الكثيرة المؤدية الى اجزاء المنزل المختلفة

بيت الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى

الشهير بيت «السحيمي» — بالدرب الاصفر

سنة ١٠٥٨ — ١٢١١ هـ (١٦٤٨ — ١٧٩٦ م)

هذا المنزل يكون قسمين احدهما — وهو الجزء القبلي انشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي سنة ١٠٥٨ — هـ (١٦٤٨ م) وتتم مشتملاته القاعه الكائنة على يمين الداخل ثم القاعة الكائنة على اليسار المفروشة رصيتها بالرخام الدقيق ووجهة البيت المشرفة على الدرب الاصفر مشتملة على مجموعة قيمة من المشربيات والشبابيك الخرط الدقيقة الصنع

أما القسم الآخر وهو البحري فقد انشأهُ الحاج اسماعيل بن الحاج اسماعيل جلبي سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م) وأدمجهُ في القسم الاول وجعل منهما منزلاً واحداً

وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الاول فهو يشتمل اولاً على قاعة بحرية كبيرة تعلوها حجرة مثلها ولكل منها وجهة بحرية من الخشب الخرط الجميل مشرفة على الحديقة الكبرى. ويقابل هذه القاعة قاعة اخرى غربية تتوسطها فسقية من الرخام الدقيق وبها نافورة تعد من

ادق وأجمل ما صنع من نوعها . ويكتنف هذه القاعة سلمان يؤديان الى الدور العلوي المشتمل ضمناً على قاعة راكبة على التختبوش هي افخم وأجمل حجرات المنزل جدرانها مكسوّة بالقاشاني المنوع وبصدري ايوانيها دواليب دقيقة الصنع تنتهي من اعلاها بخورنقات تعلوها رفوف وضعت عليها مجموعة لطيفة من الاواني القاشاني وبالحجرة باب مطعم بالسن والزردشان من صناعة القرن العاشر الهجري . ووجهتها القبلية من الخشب الخرط الجميل

جامع ابي الذهب

سنة ١١٨٧ هـ (١٧٠٣ م)

هذا الجامع تجاه الوجهة الغربية للجامع الازهر انشأه الامير محمد بك أبو الذهب وله وجهتان احداهما بحرية وتشرف على ميدان الازهر وبها احد أبواب الجامع والاخرى شرقية وتقابل الجامع الازهر وبها الباب الآخر . وكلا البابين يؤدي الى طرقة مكشوفة تحيط بأروقة ثلاثة محيطة بالقبة من جهاتها البحرية والغربية والقبلية . ومسقوفة بقبوات محمولة على عقود منكثة باطرافها على اعمدة من رخام . وبوسط كل رواق مجاز يؤدي الى باب من ابواب القبة الثلاثة التي يرى الواقف في وسطها محراباً مكسوًّا بالرخام يجاوره منبر مطعم بالصدف وبرقبة القبة مجموعة من النوافذ المغطاة بشبابيك من الجص والزجاج الملون . كما ان جوف القبة محلى بنقوش مذهبة ويتوصل الى سطح الجامع من سلم مخبأ داخل جوف الجنب الغربي للقبة

ويجاور القبة من الجهة البحرية مقصورة من نحاس بها قبر المنشيء وابنته . جدرانها مكسوّة بالقاشاني الجميل . وبجوار المقصورة مكتبة أعدها ابو الذهب ليستعين بها المدرسون بالجامع فلما انشئت دار الكتب المصرية نقل اليها ما كان بهذه المكتبة من الكتب وبنهاية الطرقة القبلية للجامع منارة كبيرة مربعة منتهية بخمسة رؤوس

سراي المسافر خانة بدرب الطبلاوي

سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م)

انشأ هذه السراي الخواجة محمود محرم احد تجار القاهرة . وهي مكونة من قسمين احدهما بحري انشيء سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) ويتوصل اليه من درب المسمط . والآخر قبلي انشيء سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩ م) ويتوصل اليه من درب الطبلاوي الا ان القسمين ارتبطا احدهما بالآخر وصارا مبنىً واحد يتوصل اليه الآن من درب الطبلاوي

الجزء البحري — يتكون من دركاة بها على اليسار باب يؤدي الى القسم القبلي وباب آخر

يؤدي الى حوش مكشوف به على اليسار (الشرق) باب يؤدي الى سلم ثانوي يوصل الى الغرف العلوية ويلي السلم قاعة ذات ايوانين بينهما دور قاعة مفروشة بالرخام الملون ويلي هذه القاعة باب يؤدي الى القسم القبلي ثم تختبوش سقفه قشر بلدي جميل

اما على اليمين ففي الجهة البحرية قاعة بسيطة يليها من الغرب السلم الرئيسي المؤدي الى جميع غرف الدور العلوي واهمها القاعة الكبرى الراكبة فوق التختبوش والمشتملة على مجموعة قيمة من الرخام والنجارة وخصوصاً الشخشيخة .هذا فضلاً عن المشربيات الخرط المحيطة بالحوش

الجزء القبلي — يتوصل من بابه الاخير الى ردهة فسيحة تؤدي الى قاعة بأرضيتها فسقية رخام دقيقة وجانبها القبلي كله من الخرط والسقف لايقل فخامةً عن سقفي التختبوش والقاعة العليا . ويلاحظ ان هذه السراي بحالتها الحاضرة هي الجزء الباقي من السراي الاصلية بعد هدم اجزاء منها من الغرب والجنوب بسبب خللها

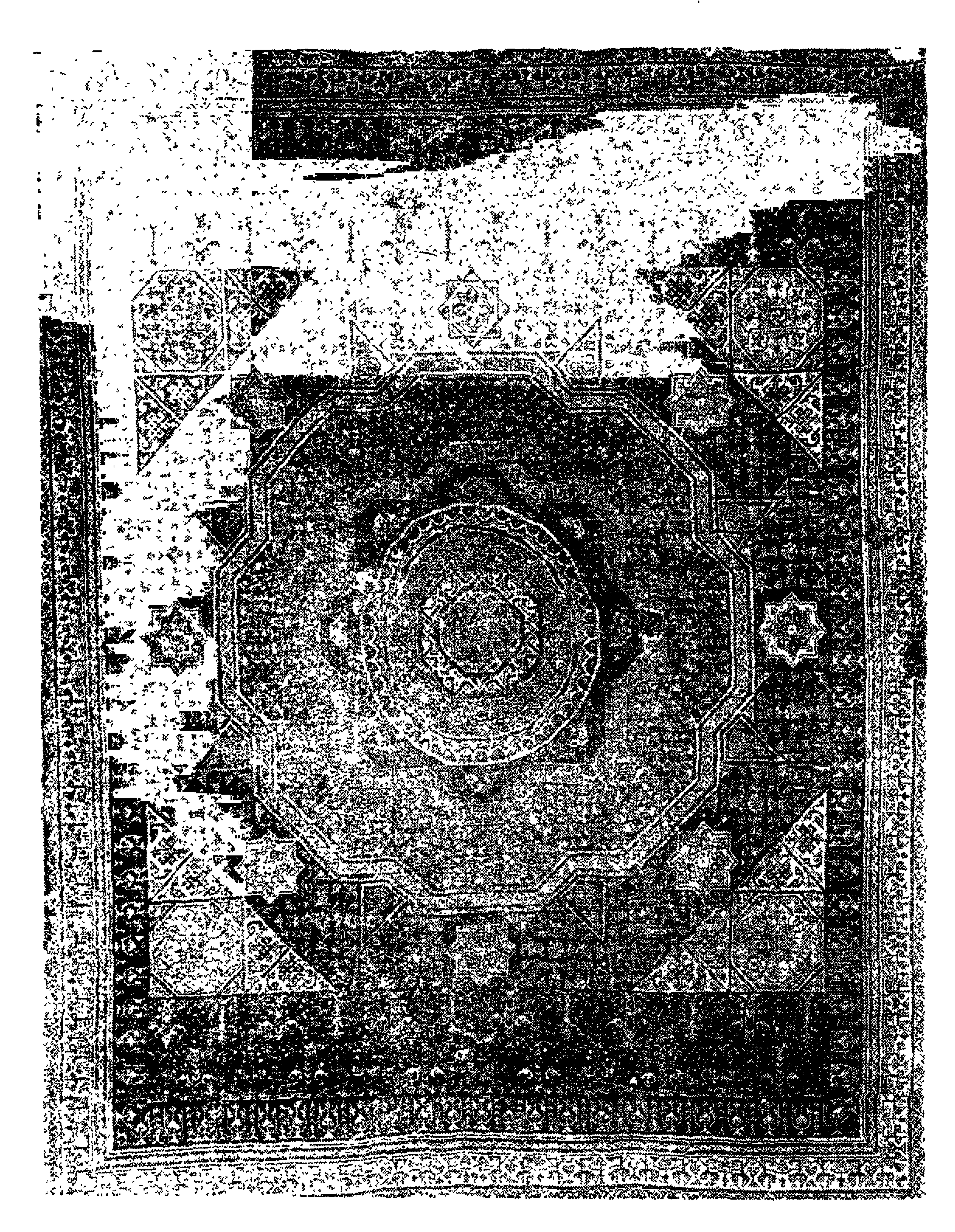
وبعد وفاة منشئها آلت الى الاسرة العلوية المحمدية فاتخذتها مقرًّا لضيافة الواردين الى مصر من الكبراء ولذلك عرفت (بالمسافرخانة)

منزل ابراهيم كتخدا السناري

حوالي سنة ١٢٠٩ هـ — (١٧٩٤ م)

هذا المنزل بحارة (منج) التي سميت بهذا الاسم نسبةً الى مسيو (منج) أحد علماء الحملة الفرنسيه انشأه ابراهيم كتخدا السناري وجهته بسيطة ليس فيها مايهم سوى الباب العمومي والمشربية التي تعلوه وبالجنب القبلي للحوش تختبوش ومقعد بابه مشحون بالزخارف وسلمه يؤدي الى بابين الايمن منهما يوصل الى بعض حجر المنزل ثم الى القاعة الكبيرة والحمام والباب الايسر يؤدي الى المقعد والجناح المشرقي

وتنحصر مكانة المنزل في ان الحملة الفرنسية اثناء اقامتها بمصر سنة ١٢١٣ — ١٢١٦ هـ (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) خصصتهُ لاقامة مصوريها وبعض علمائها ومنهم ريجو الرسام المشهور ومالوس ولاتكريه وتبراج وجالوى . وفيه عملت الابحاث والرسوم القيمة التي نشرت في كتاب (وصف مصر) . وفي المدة من سنة ١٩١٦ الى ١٩٢٦ اقام به جلياردو بك متحفاً باسم (بونابارت) أغلق بعد وفاته ثم اخلي من السكن سنة ١٩٣٣

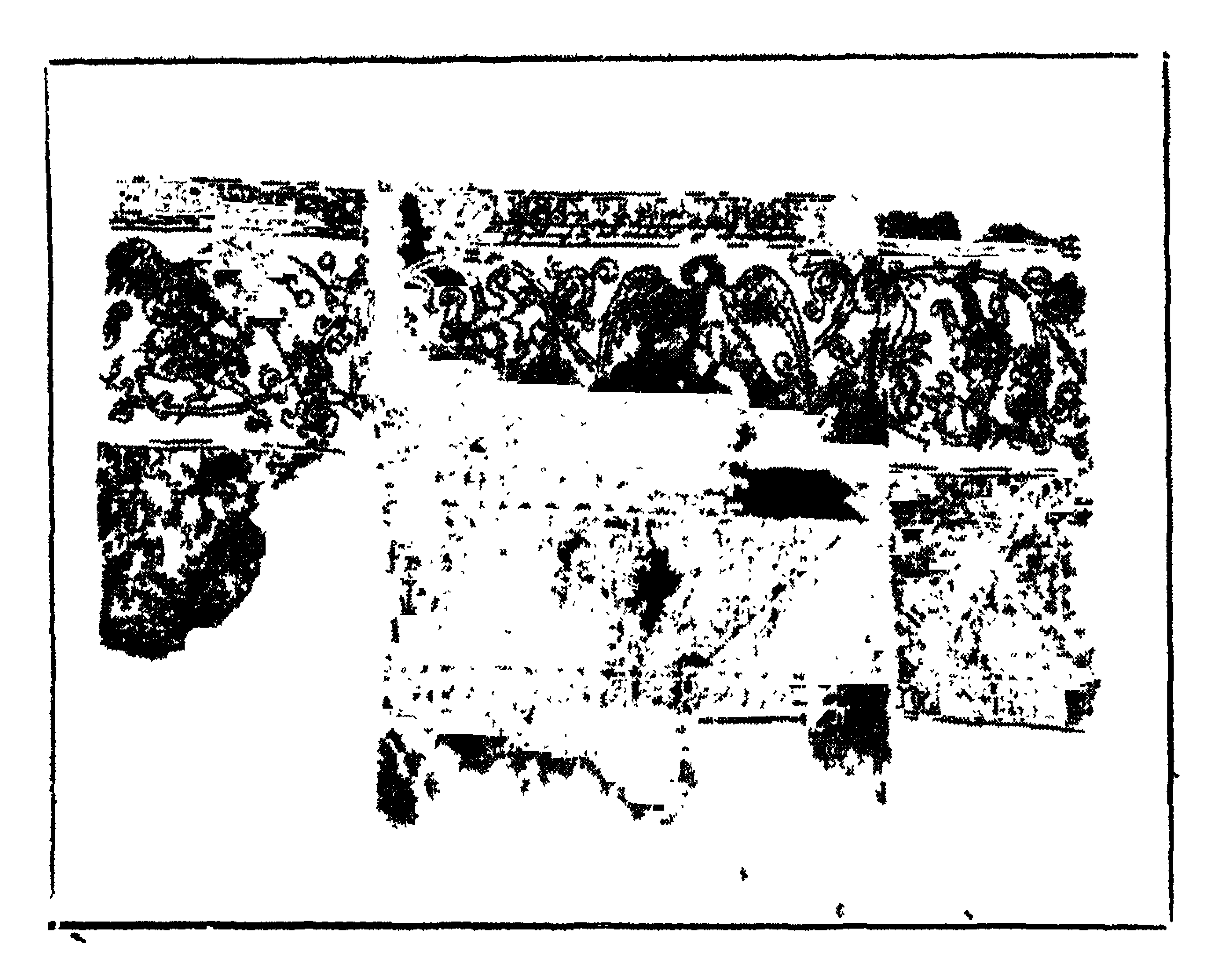


سجادة من صناعة مصر في العصور الوسطى . وقد ظل هذا النوع ينسب طويلاً الى مدينة دمشق ، وهذه السجادة محفوظة في متحف فينا

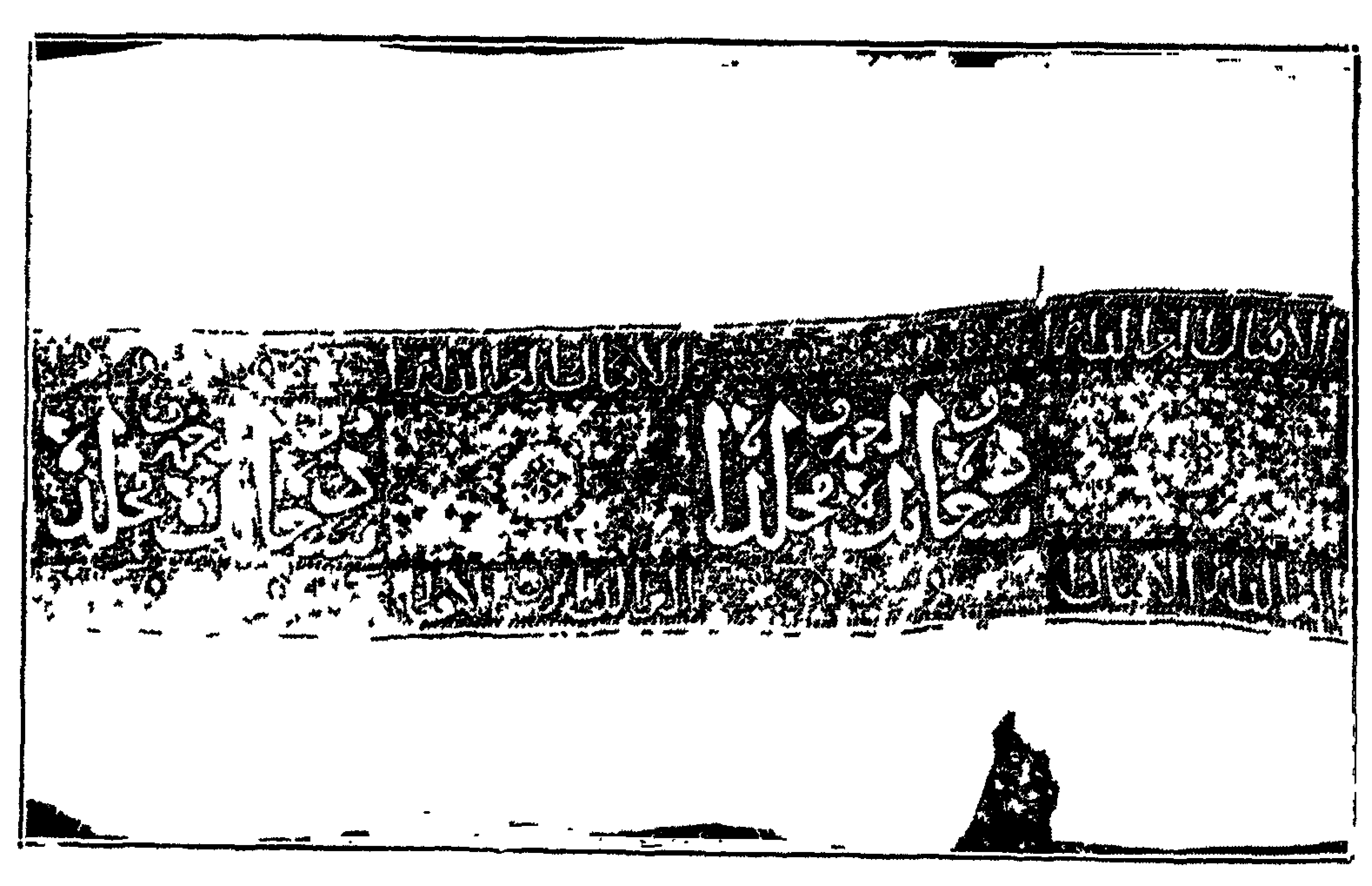
[زكي محمد حسن]



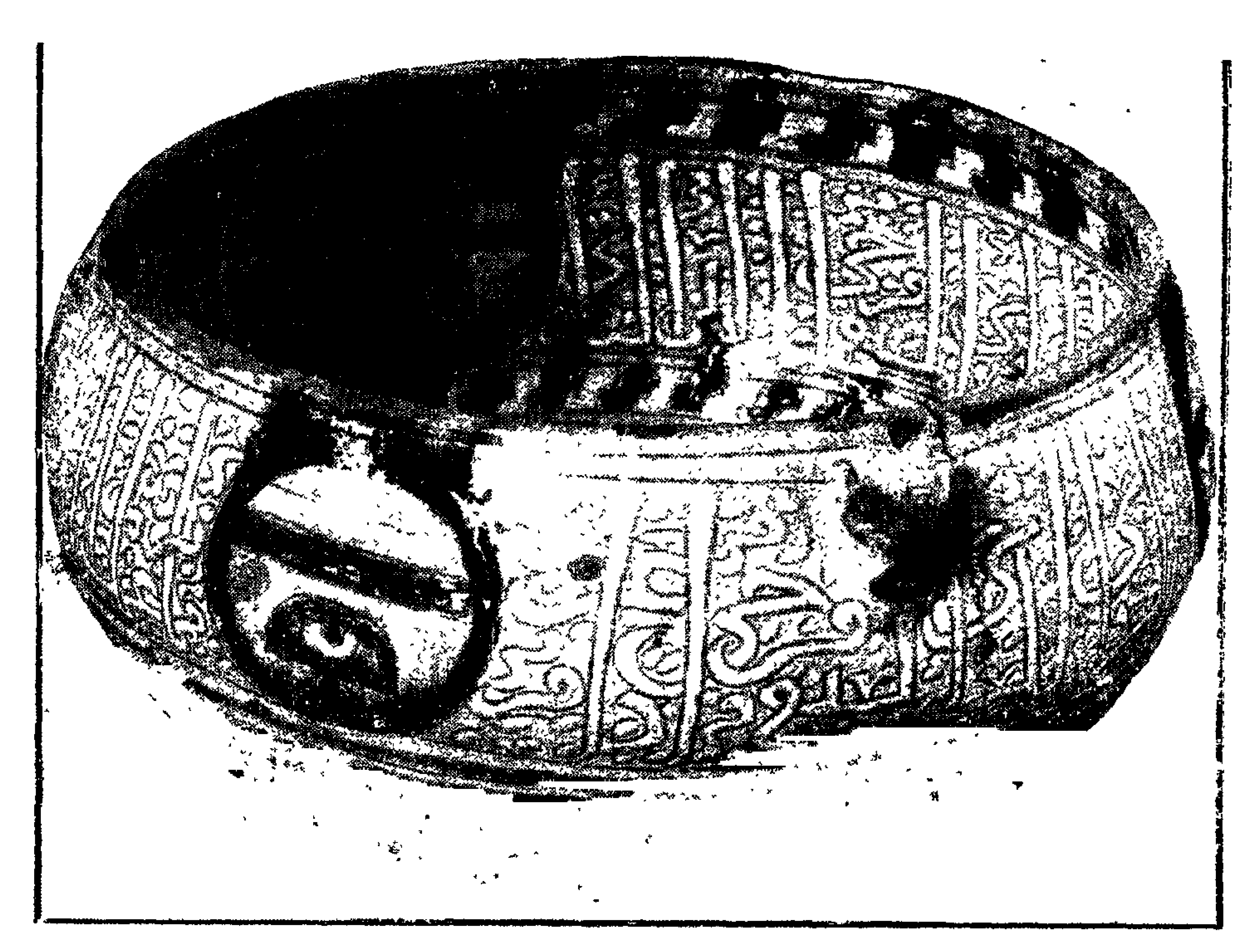
جزآن من صحنين خزفيين عليهما رسوم ملونة تحت طبقة من الميناء .
من صناعة القرن الرابع عشر الميلادي
[اركي ٦ مصر]



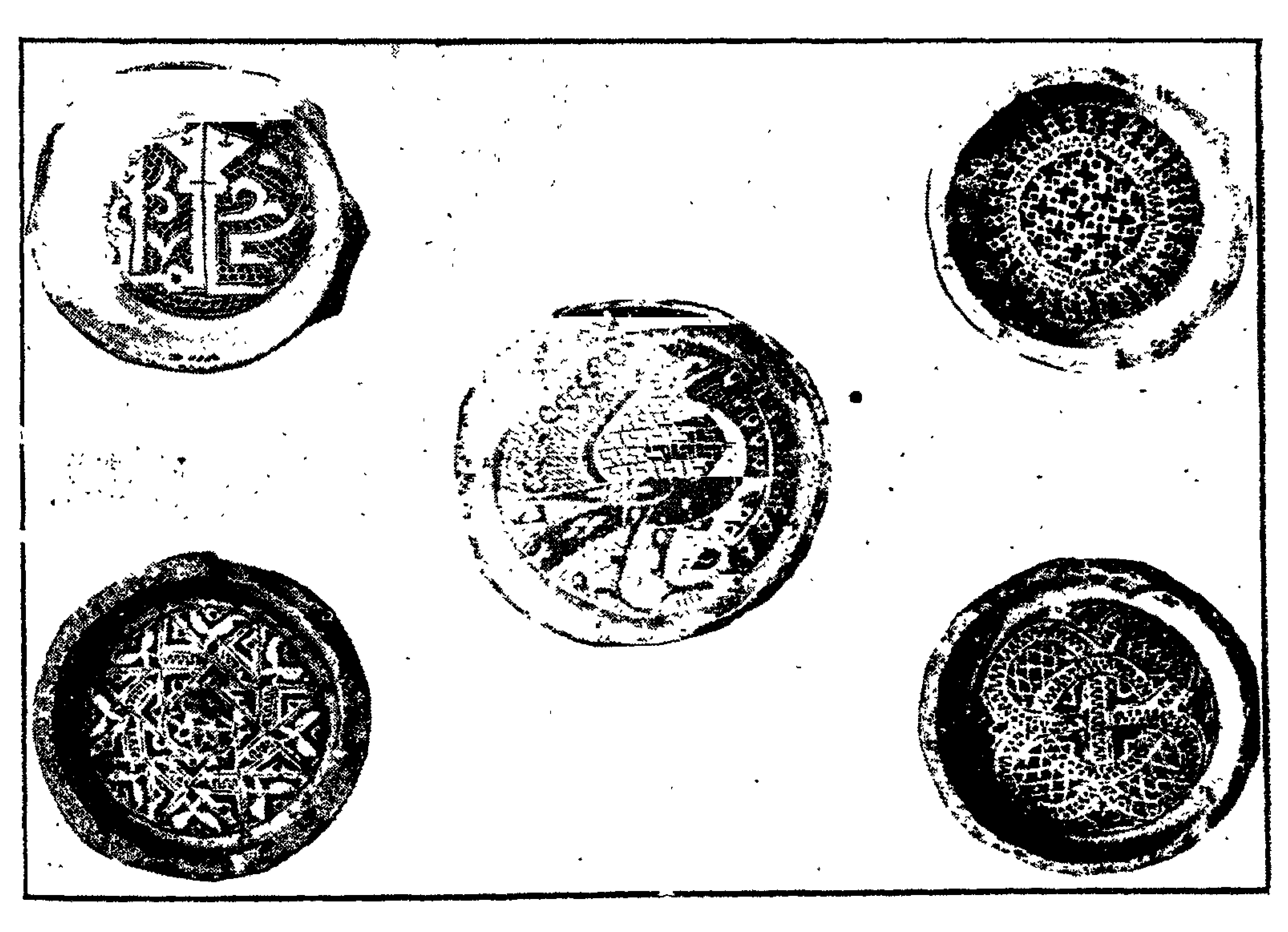
قطعة نسيج من الكتان عليها زخارف مطبوعة تمثل مناظر صيد
من صناعة القرن الثاني عشر الميلادي



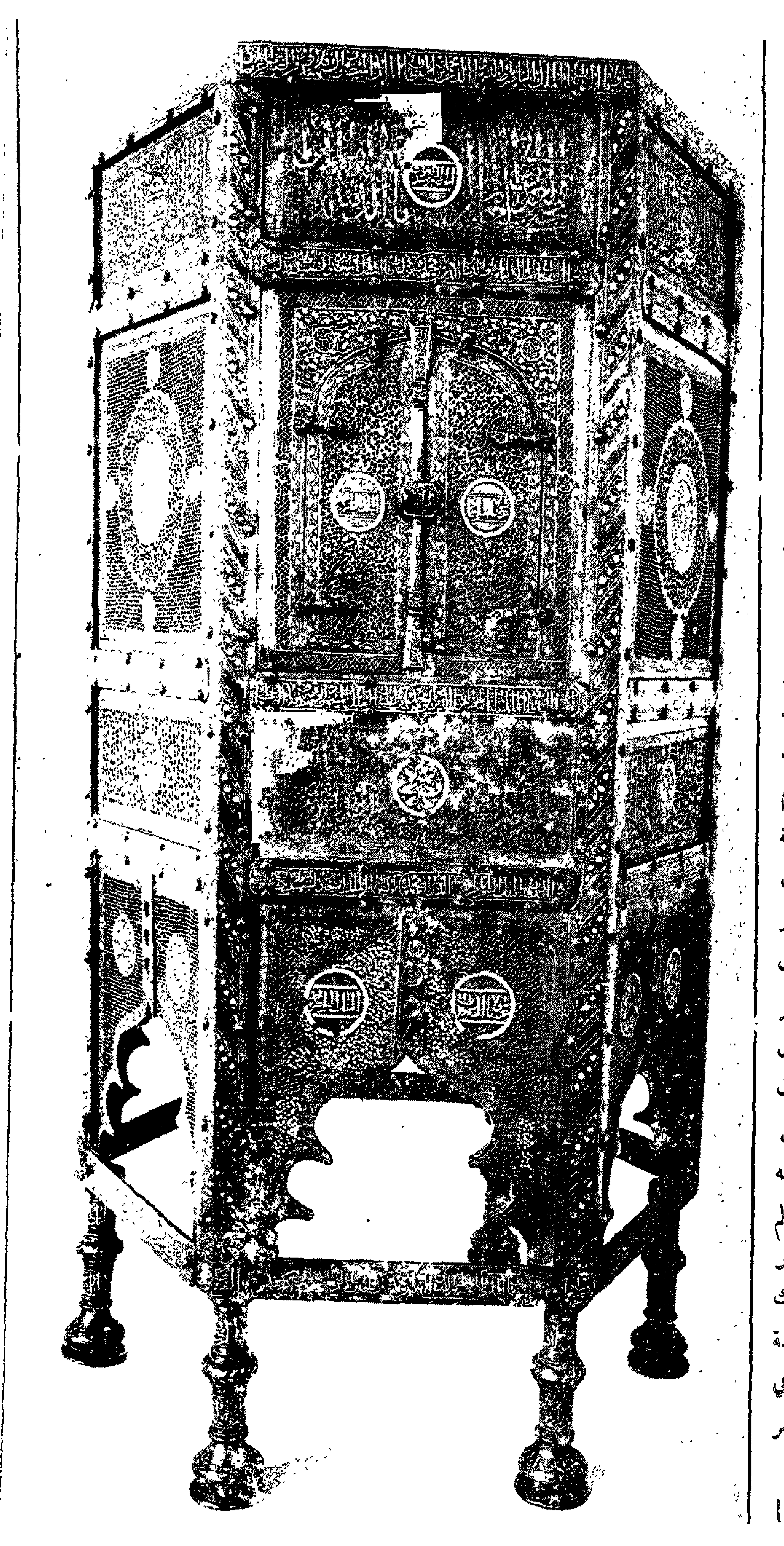
قطعة نسيج من الكتان يزينها شريط من زخارف هندسية في مناطق تتخللها مناطق اخرى
تشتمل على كتابات دعائية . من صناعة القرن الرابع عشر ميلادي



آنية من فخار مطلي بالمينا الصفراء . عليه زخارف بالخط النسخي المملوكي باسم مملوك من مماليك
السلطان الناصر محمد المتوفى سنة ١٣٤١ ميلادية . وفيه دوائر تشتمل على رسم رنوك مموهة بالمينا



شبابيك قلل من العصر الاسلامي عليها زخارف كتابية وهندسية ورسوم حيوانات

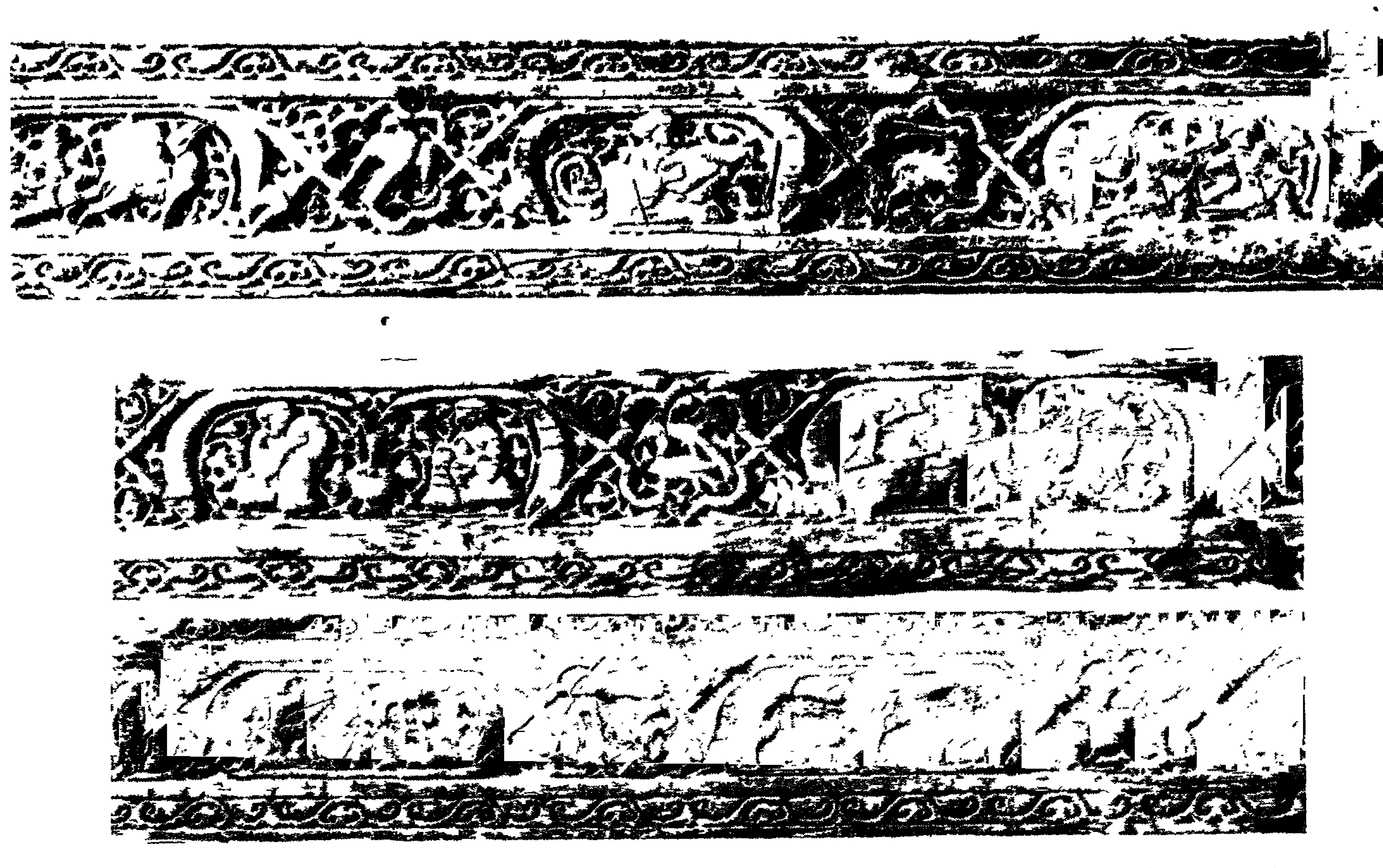


مائدة (كرسي) من النحاس، مخرم ومنقوش ومكفت بالذهب والفضة. كان في مارستان الملك الناصر قلاوون وهو على شكل منشور ذي ست أضلاع. وسطح هذا الكرسي وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والخطية وفيه صور بط يطير ومن الكتابات المنقوشة عليه العبارتان الآتيتان: «عز لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العامل المجاهد المرابط المثاغر المؤيد المنصور سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل في العالمين نصير المظلومين من الظالمين ناصر الملة المحمدية ناصر الدنيا والدين ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي» و.. «عمل الفقير الراجي عفو ربه المعروف بابن المعلم الاستاذ محمد بن سنقر البغدادي السناى وذلك في تاريخ سنة ثمانية وعشرين وسبعمائة في أيام مولانا الملك الناصر عز نصره»

[زكي محمد حسن]

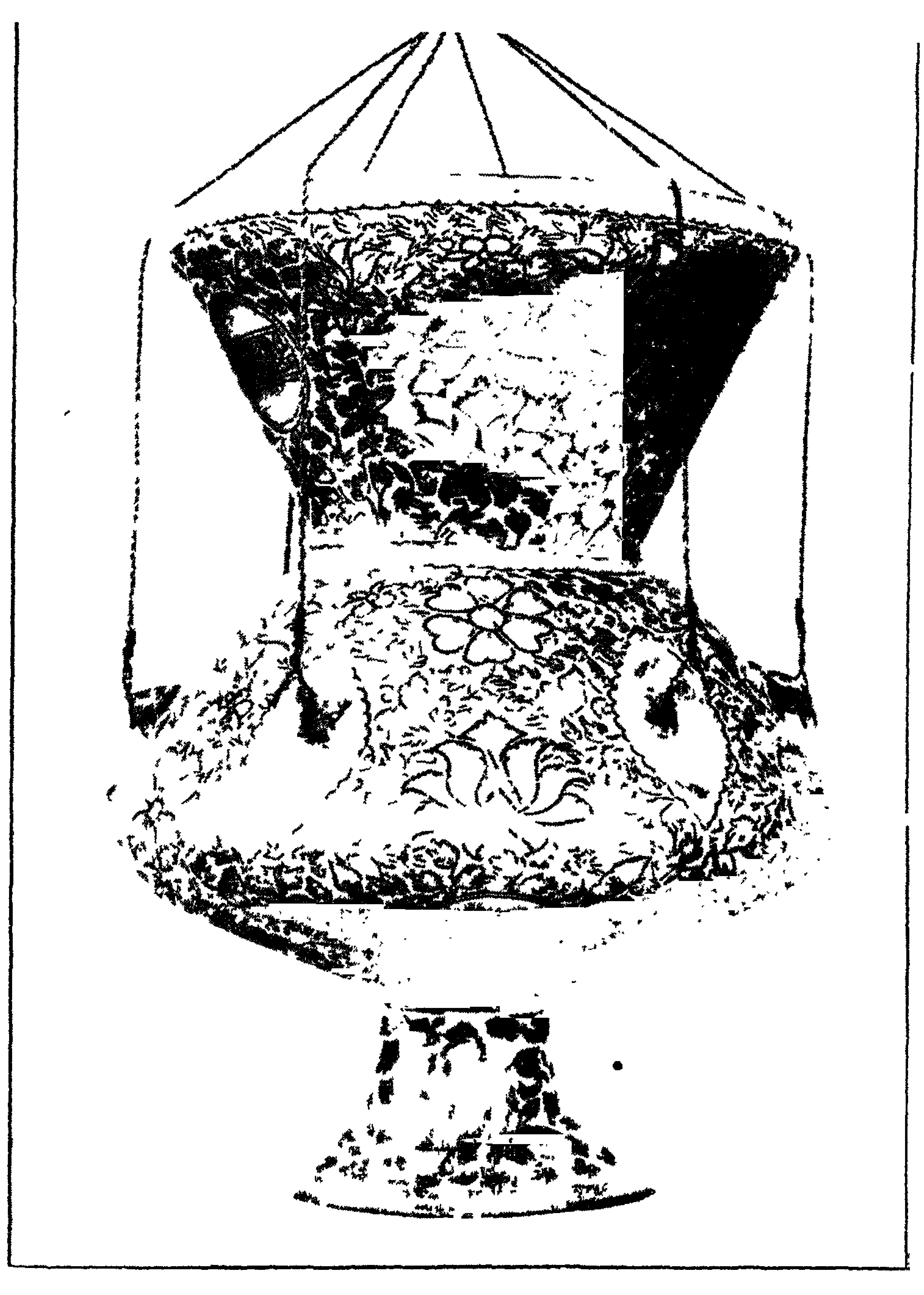
محراب من خشب منقوش ومكوّن من « حشوات » صغيرة محمعة ويحبطها إطار به نقوش بالخط الكوفي المشجر . كان في مشهد السيدة رقية . وهو احد محاريب ثلاثة من الخشب، يمكن نقلها ، وترجع الى العصر الفاطمي في القرن الثاني عشر الميلادي وأصلها من الجامع الازهر ومشهد السيدة رقية ومشهد السيدة نفيسة

[زكي محمد حسن]



الواح من الخشب المنقوش . اصلها من العصر العربي الفاطمي . ورسومها تمثل مناظر صيد وطرب ورقص وسمر وعليها رسوم حيوانات وطيور . وجدت في مارستان قلاوون . ويرجع تاريخها الى القرن الحادي عشر الميلادي

[illegible]



عواصم مصر الاسلامية

الفسطاط — العسكر — القطائع — القاهرة

للملازم الاول عبد الرحمن زكى

عواصم مصر الاسلامية

المدينة الاسلامية

اشتغل العرب قبل الاسلام بالتجارة بين الاقاليم المحيطة بشبه جزيرتهم. وكان العربي الرجل الوحيد الذي يمكنهُ ان يكون وسيطاً بين تلك الاقاليم لمعرفتهِ طرق الصحراء ولمقدرة إبله على اختراقها لصبرها على الجوع والعطش . ولما كان محتاجاً الى محطات تستريح فيها القوافل التجارية ليتناول رجالها فيها ما يلزمهم من الماء والعتاد فقد قامت مدن صغيرة نشأت حول عيون المياه مثل مكة ويثرب (المدينة) وهما على ما يظهر أقدم المدن العربية في شمالي شبه الجزيرة

وبعد ان بزغ نجم الاسلام انتشرت الدعوة المحمدية وتكونت الدولة العربية برزت ظاهرة انشاء المدن أو تمصير الامصار . وأهم ما كان يرمي اليه ولاة المسلمين في البلاد التي فتحوها تأسيس قاعدة لملكهم الجديد لتكون معسكراً لجنودهم ولكي تضم بين جوانبها دواوين حكومتهم وفي قلبها مسجد يقيمون فيهِ شعائر دينهم . وعلى هذا النحو انشئت البصرة (سنة ١٦ هـ) والكوفة (سنة ١٨ هـ) في العراق . والفسطاط في مصر(سنة ٢٠ هـ) . وسنرى هل مهر العرب في اختيار مواقع المدن الجديدة التي اسسوها . والى أي حد وصل نجاحهم في هذا المضمار

ذلك هو النوع الاول من المدن الاسلامية الذي نشأ في عصر الحروب الاسلامية عندما قضت الحاجة بأنشاء مدن عسكرية يستقر فيها الجند المحاربون ولا يلبث ان يلحق بهم كثيرون من أفراد أسرهم . وبانتهاء عصر الفتح واخلاد الخلفاء الى الطمأنينة والاستقرار لم تتجاوز رغبتهم بناء قصر لهم ولحاشيتهم في مكان خاص سرعان ما تقوم حوله مدينة كما حدث في بغداد وسامرّا والقاهرة

ولقد انتقد ابن خلدون في مقدمته المشهورة مهندسي العرب الاوائل لانهم لم يراعوا الشروط الاساسية التي يجب توافرها عند انتخاب موقع المدينة وتخطيطها . فذكر أنهُ يشترط في اختيار موقع المدينة ان تقع إما على هضبة متوعرة من الجبل . واما باستدارة بحر أو نهر حتى لا يوصل اليها الاّ بعد العبور . كما اشترط طيب الهواء للسلامة من الامراض . وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الاقوات. وضرب ابن خلدون مثلاً في سوء الاختيار لذلك مدن القيروان والكوفة والبصرة التي كانت أقرب الى الخراب لانها لم تراع فيها الامور الطبيعية [1]

---

(١) مقدمة ابن خلدون — الطبعة الثالثة بالمطبعة الاميرية عام ١٣٢٠ — ص ٣٢٩

وان كان ابن خلدون قد أصاب في بعض ملاحظاته فان أقواله لاتنطبق على بعض المدن التي اسسها العرب في مصر كالفسطاط وذلك اذا نظرنا الى الامور الجغرافية والسياسية التي أدت الى تأسيسها لان : —

١ — رأس دلتا النيل موقع لهُ من الوجهتين الحربية والادارية مايجعله في مأمن من هجمات العدو ويسهّل وصول المون والاقوات لقربها من الاراضي الزراعيـة . كما له من الوجهتين التجارية والصناعية مزايا ظاهرة كانت الباعث على ايجاد مدينة مهمة فيه منذ فكر مينا في نقل العاصمة من مصر العليا

٢ —من مزايا الموقع الذي شيدت فيهِ مدينة الفسطاط توفر الشرط الذي يجب ان يتوفر في بناء المدن وهو ان يكون لها جانب يمكن ان يطرد فيهِ اتساعها . وهذا الاتجاه بالقياس الى الفسطاط هو الشمال . فلما اريد توسعتها بنيت العسكر فالقطائع فالقاهرة وفي العهد القريب بنيت العباسية ومصر الجديدة[٢]

٣ — ان الضفة الشرقية مجاورة للمقطم ومرتفعة ولا يغمرها النيل اثناء الفيضان . لذلك كان الامتداد على هذه الضفة ولم ينقل الى الضفة الغربية الا اخيراً جداً

من ذلك نرى ان عمرو بن العاص قد وفق في اختيار موقع العاصمة الاولى لمصر الاسلامية — الفسطاط — أكثر من توفيق زملائهِ القوّاد الآخرين في اختيار العواصم الاخرى التي اسسوها في العراق أو في شمال افريقية كالبصرة والكوفة والقيروان

البصرة والكوفة

كانت البصرة من أقدم المدن التي بناها المسلمون . فقد مصرها عتبة بن غزوان عام ١٦ هـ[٣] في موقع تلتقي فيهِ الطرق الآتية من نجد والشام وهضبة ايران . وبذلك اصبحت مركزاً تجاريًا عظيماً . فبقيت مدينة معروفة الى اليوم بينما اندثرت الكوفة لما زالت الاحوال السياسية التي قامت عليها . وقد اتخذها العرب الفاتحون في مكان لايحول الماء بينهُ وبين مكة . وبنوها اولاً بالبوص ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن . وقسموا المدينة الى خطط بحسب القبائل وجعلوا عرض شارعها الرئيسي ستين ذراعاً وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً . وجعلوا عرض كل زقاق سبع اذرع ووسط كل خط رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم [٤] وقد بلغت مساحتها في امارة خالد بن عبد الله القسري ٣٦ ميلاً مربعاً

---

(٢) مذكرات للمرحوم حسن الهواري أحد أمناء دار الآثار العربية سابقاً وكان قد تمم كتابة هذا المقال لما ألف كتاب القاهرة (٣) ابن الفقيه ص ١٨٨ (٤) الماوردي ص ١٧١

وبعد عام واحد أو بعد بضعة اشهر شيدت الكوفة بعد انهزم سعد بن ابي وقاص الامبراطورية الفارسية . وقد رأى ان يتخذ المدائن (قيطفون) عاصمة فارس قاعدة لجيشه ومركزاً لادارة البلاد التي تم فتحها . فانتقل اليها واستوطنها . الاّ ان هذا لم يعجب امير المؤمنين عمر بن الخطاب فأمر سعداً بانشاء مدينة اخرى للجيش العربي . اشترط في تأسيسها ان لا يفصلها عن دار الخلافة بالمدينة بحر او جسر . فاختار سعد مكاناً على الجانب الغربي من نهر الفرات وبنى معسكره من الغاب في اول الامر وبنى مسجد الكوفة وبالقرب منهُ داراً لهُ . واختطت كل قبيلة خطها . وهكذا نشأت الكوفة

الفسطاط

ولما فتح العرب مصر (سنة١٨ هـ) كانت عاصمة البلاد – الاسكندرية – فأمر عمرو بن العاص ان يتخذها قاعدة للادارة والجيش . الاّ ان عمر بن الخطاب لم يوافقهُ على ذلك بل امره بأنشاء مدينة اخرى لا يفصله عن المسلمين فيها ماء في شتاء ولا في صيف

وسواء أصحت اسطورة اليمامة [٥] المشهورة التي افرخت في مكان فسطاط عمرو ام لم تصح فأنهُ بعودتهِ من فتح الاسكندرية تحول الى ذلك المكان الفسيح الذي يقع شمال حصن بابليون حيث عسكرت قوات العرب للمرة الاولى . وامر بتأسيس الفسطاط ليجعلها قاعدة البلاد ودار الامارة واختط عمرو الجامع العتيق . ثم اختطت القبائل العربية من حوله . وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل في تنظيم خطة كل منها وهم معاوية بن خديج التجيبي وشريك بن سمي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وجبريل بن ناشرة المعافري [٦] . ويخالف بطلر Butler هذا الرأي فقد قال « والظاهر ان الذي قام بتنفيذ هذا الامر انما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التي كان يجهلها العرب [٧] . والواقع ان تخطيط الفسطاط في ذلك العهد لم يكن من التعقد بحيث يحتاج الى معماريين مهرة من القبط

وقد روى البلاذري ان الزبير هو الذي اختط الفسطاط واتخذ لنفسه داراً وجعل فيها السلم الذي صعد عليهِ الى سور حصن بابليون وبقي فيها ذلك السلم حتى احترق في حريق شاور. اما ياقوت فقد ذكر في معجم البلدان ما ذكرناهُ آنفاً منقولاً عن ابن دقماق

ويصف ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر خطط الفسطاط الاولى ويبين كثيراً من

(٥) ان حادثة اليمامة قد تكون سبباً في التسمية ولكن لا يصح قط ان تكون سبباً في اختيار الموقع
(٦) ابن دقماق — الانتصار — الجزء الاول ص ٣٢٢
(٧) بطلر — فتح العرب لمصر وترجمة محمد فريد ابو حديد — ص ٢٩٤

مواضع الدور والامكنة التي بناها رؤساء الجند والزعماء. وقد اخذ المستشرقون مما كتبهُ واخرجوا تخطيطات هامة في غاية الدقة لطبوغرافية الفسطاط

وقد حدّد المقريزي موقع الفسطاط في خططهِ فقال :

« اعلم ان موقع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يعرف بجبل المقطم ليس فيهِ من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضهُ بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل بهِ شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ويقيم فيها ما يشاء ثم يعود الى دار الامارة »

وتاريخ انشاء الفسطاط مختلف فيهِ فالبلاذري يقول انهُ كان بعد فتح بابليون في حين ان اكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الاسكندرية كما ذكرنا. ومن المحتمل ان يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية وانها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير ثم نمت نمواً سريعاً بعد عام واحد من انشائها. وقد قال أبو المحاسن ان « عمرو بنى الفسطاط في سنة ٢١ هـ. بعد فتح الاسكندرية»

ومما زاد في مكانة الفسطاط انهُ كانت تصل بابليون والبحر الاحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة اسمها أمنيس تراجانوس (ترعة طرايانوس). وكانت تمر بمدينة بلبيس وبحيرة التمساح لكنها أهملت في وقت ما فأعاد حفرها عمرها عمرو بن العاص وعادت لها أهميتها القديمة فكانت ترسل بواسطتها الغلال الى بلاد العرب وسهلت بذلك المواصلات بين خليفة المؤمنين وواليهِ في مصر

الجامع العتيق

وبانتهاء عمرو بن العاص من بناء عاصمته الحديدة انشأ الجامع العتيق — اقدم المساجد في مصر واول نواة للعمارة الاسلامية فيها — وقد اختار عمرو موضع بنائهِ في المكان الذي كان فيهِ نزوله وقد عرف باسم مسجد اهل الراية وهم نخبة من الجند الانصار والمهاجرين كانوا يؤلفون نواة الجيش وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها. وقد اورد ابن عبد الحكم في تاريخه خطبة عمرو التي قالها في يوم الجمعة وجاء فيها :

« حدثني عمر امير المؤمنين انهُ سمع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يقول : ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً. فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا ابصاركم . . . وحدثني عمر امير المؤمنين انهُ سمع رسول الله (صلعم) يقول ان فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير اجناد الارض فقال له أبو بكر ولم يا رسول الله قال لانهم وأزواجهم في رباطه الى يوم القيامة . الخ »

ولقد مرت ادوار كثيرة على « تاج الجوامع » كما أطلق عليه . ووصفهُ الرحالة الأندلسي ابن سعيد الذي زار مصر في القرن الثالث عشر قال :

« . . . . ثم دخلت اليه فعاينت جامعاً كبيراً قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه . وأبصرت العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلوى . والناس يأكلون منهُ في امكنة عديدة غير محتشمين لجري العادة عندهم. والعنكبوت قد عظم نسجه في السقوف والاركان والحيطان والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة ... »

ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبرتي في تاريخه « عجائب الآثار في التراجم والاخبار »... « وانتشر الموسيقيون في فنائه والقرداتية والراقصات فذهب بهاؤه القديم حتى هجره هؤلاء ايضاً ولولا اقدام مراد بك على اعادة تجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين »

وفي الجهة البحرية من الجامع بنى عمرو داراً له واخرى غربيها لابنه عبدالله عرفت بالدار الصغرى تمييزاً لها عن دار أبيه التي عرفت « بالدار الكبرى » . كذلك بنى الزبير بن العوام داراً بجوار دار عبد الله [٨]

ولما رسخت أقدام المسلمين في مصر اتسعت وزادت عمارة الفسطاط وفاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه [٩] . وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثة أميال كما ذكر ابن حوقل [١٠] وقال القضاعي عن مقدار عمارتها انهُ كان في الفسطاط ٣٦٠٠٠ مسجداً و ٨٠٠٠ شارع مسلوك و ١١٧٠٠ حمام . ونحن نقول وإن كان في هذا التقدير مبالغة ظاهرة فلا شك أن الفسطاط بلغت درجة كبيرة من العمران . وارتقت الفسطاط في عهد خلفاء بني أمية وصارت مقراً لولاتهم. وفيها شيد عبد العزيز بن مروان أمير مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك داراً للامارة عرفت بدار عبد العزيز كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم . وقد عاث هذه الدار قبة مذهبة شأن الامويين في تفخيم بناياتهم حتى تبز المباني البيزنطية التي خلفها الروم وراءهم في الاقطار التي انتزعها العرب منهم

ولعل دار الامارة هذه كانت أول بناية إسلامية كبيرة بمصر وصل الينا نبأ زخرفها . وقد

---

(٨) مجلة الهندسة - العددان ١١ و١٢ بتاريخ نوفمبر وديسمبر ١٩٣٣

(٩) تاريخ التمدن الاسلامي — جورجي زيدان — الجزء الثاني ص ١٧٤

(١٠) ابن حوقل رحالة بغدادي زار الفسطاط في النصف الاخير في القرن الرابع الهجري (أواخر القرن العاشر الميلادي — المسالك والممالك)

مرت على الفسطاط بعد ذلك أدوار متعددة . « فكانت في زمن من الازمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيبة واللذة ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومتنزهات خضرة »[١١]

ولما زار الفسطاط ابن سعيد كانت قد تغيرت أحوالها وانقلبت محاسنها الى أضدادها فقال في وصفه :

«ولما أقبلت الفسطاط أدبرت عني المسرة وتأمات أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق مفض الى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغص طرف الطريف[١٢] »

ومنذ تأسست الفسطاط الى ان بني العسكر وليها تسعة وعشرون أميراً مدة مائة وثلاثة عشر عاماً وسبعة أشهر أولها يوم الجمعة مستهل محرّم سنة عشرين من الهجرة لما وليها القائد عمرو . وكان آخر أمرائها صالح بن علي بن عبد الله من قبل أمير المؤمنين أبي العباس بن محمد السفاح . ومن بعده سكن أمراء مصر العسكر . وكان أولهم ابو عون عبد الملك

خاتمة الفسطاط

كان قد وقع للفسطاط اثناء حياتها انقلابان عظيمان هما قيام « العسكر » ثم « القطائع » فان الدور النهائي للفسطاط جاء عقب ذلك في مناسبتين كانت الاولى في ايام الشدة العظمى اثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي . وكانت الثانية حريق مصر في وزارة شاور اثناء خلافة العاضد . أما المناسبة الاولى فكانت لما تمرد الجند وساد الاضطراب وحلت بالبلاد المسغبة والمجاعة ولجأ المستنصر بالله الى حاكم الشام بدر الجمالي . فكتب اليه سرّاً يستقدمهُ الى مصر لتحسين الاحوال. فلما قدم بدر اهم بتحسين القاهرة وعمل على تخريب الفسطاط . فقد اباح للجند وللقادرين على البناء ان يعمروا ما شاءوا في القاهرة وغيرها . فعمرت وسكنها الناس ولم يبقوا شيئاً في الفسطاط او العسكر او القطائع وتركوا موقعها موحشاً مقفراً

أما المناسبة الثانية فهي حريق الفسطاط الهائل . الذي أمر بإضرامه شاور سنة (٥٦٥ هـ) لما غزا ملك بيت المقدس عموري (املريك) الديار المصرية عندما عجز عن الدفاع عنها وأراد أن يتجنب وقوعها في أيدي الصليبيين

(١١) ابن حوقل — المسالك والممالك

(١٢) — ابن سعيد — الاغتباط في حلى مدينة الفسطاط

امر شاور بأخلاء الفسطاط وحرقها ويقول المقريزي : « بعث شاور الى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء فصار منظراً مهولاً . واستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً . ومن ثم تحولت مصر الفسطاط الى الاطلال المعروفة الآن بكيمان مصر » . فلما حدث الحريق رحل عموري من بركة الحبش [١٣] ونزل بظاهر القاهرة مما يلي باب البرقية وقاتل أهلها قتالاً عنيفاً »

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقي من الفسطاط بسور واحد . فانتقلت الحركة التجارية الى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن وتكثر المخازن والمصانع . وقد قال ابن سعيد اذ ذاك :

« وقد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة »

ولقد ترك لنا ابن دقماق والمقريزي والقلقشندي عن مدينة الفسطاط في القرن التاسع الهجري معلومات دقيقة تتفق في ان تدهور المدينة كان يزداد قرناً بعد قرن . وفي العبارة الآتية تلخص القلقشندي المحن التي نزلت بالفسطاط فقال:

« ولم يزل الفسطاط زاهي البنيان نامي السكان الى ان كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حاله وتناقص . وأخذ سكانه في الانتقال الى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سكانه . وتتابع الخراب في بنيانه الى ان بلغ الفرنج على أطراف الديار المصرية في أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين »

وقال القلقشندي في مكان آخر :

« وبعد حريق شاور تزايد الخراب فيه وكثر الخلو ولم يزل الامر على ذلك في تقهقر أمره الى ان كانت دولة الظاهر بيبرس فصرف الناس همتهم الى هدم ما خلا من أخطاطه وعفا رسمها واضمحل ما بقي منها وتغيرت معالمه »

وعلى هذه الحال تحولت الميناء النهرية والعاصمة الاسلامية الأولى الى كيمان من التراب وتلال من الانقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأثري الجليل المرحوم علي بك بهجت فكشف فيها بين عامي ١٩١٢ و١٩١٣ أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التي لم يتخلف من

---

١٣ — هذه البركة كانت واقعة جنوب مدينة مصر فيما بين النيل والجبل وكانت تطلق على حوض من الاراضي الزراعية التي يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنويا . وكانت تشغل من الارض مساحة قدرها ١٥٠٠ فدان — تعليق محمد بك رمزي — النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨١ و ٣٨٢

بقاياها الا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع . ولا تزال دار الآثار العربية تزاول أعمال الحفر في تلك الاطلال تنقيباً عن آثار العصر الاسلامي

العسكر (١٤)

وبينما كانت الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية (١٣٣ هـ — ٧٥٠ م) فر مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين الى مصر لينجو بنفسه امام منازعه ابو العباس الهاشمي اول خلفاء العباسيين فلما وصل الى مصر أشعل رجاله النار في الفسطاط وفي القنطرة التي تصلها بجزيرة الروضة . واتجه الى شاطىء النيل الغربي . لكن ذهبت تدابيره عبثاً لان القائد العباسي ورجال خوراسان وقفوا على وسائل عبوره وأدركوه بسرعة في قرية بوصير وقتلوه (١٥) . ثم حملوا رأسه وطافوا في المدن ليتأكد الناس ان الخلافة قد انتقلت من البيت الأموي الى البيت العباسي

وكان رجال العباسيين لم يرضوا ان يسكنوا بيوت الفسطاط أما لرغبة في التجديد واتخاذ عاصمة جديدة كما جرت العادة في الشرق منذ قديم الزمان . واما لأن مروان بن محمد كان قبل قتله قد أضرم ناراً في الفسطاط دمرت جزءاً كبيراً منها فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم الناشئة في مصر في مكان عرف في صدر الاسلام باسم الحمراء القصوى ويمتد الى جبل يشكر الذي بنى ابن طولون على قمته مسجده الجامع (١٦)

في ذلك المكان أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم وبنى صالح بن علي دار الامارة وثكنات الجند ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر . وبمر الايام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة خطت فيها الشوارع وشيدت المساجد والدور والبساتين والاسواق . وفي القطائع بنى فيما بعد الامير احمد بن طولون بيمارستانه بالقرب من بركة قارون التي ردمت وشيد عليها كافور الاخشيدي داراً صرف عليها مائة الف دينار ليسكنها

(١٤) في الاصل المعسكر كما جاء في فتوح مصر لابن عبد الحكم . وكان يمتد العسكر على شاطىء النيل وهو وقتئذ أقرب الى الشرق من موضعه الخالي لانه كان يجري بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ثم ابتعد عنه على توالي الزمن نحو خمسمائة متر . وكان العسكر يحده جنوباً كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر العيون (المجرى) وشمالا شارع مراسينا الى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبي وغرباً بين شارعي السد والدبورة وشرقاً خط تصوري يمتد من مسطبة فرعون بجوار مسجد الجاولي بشارع مراسينا الى السيدة نفيسه المعروف قديماً بباب المقدم . وعلى عهد المقريزي لم يبق للعسكر ذكر بل كان اسم القطائع هو المعروف — من تعليقات محمد بك رمزي

(١٥) براجع Quatremère, Mém. sur l'Egypte. II. p. 452. Ravaisse, Essai I. p. 419. ; Lane -Poole. History of Egypt p. 31-36 — Cairo 32-33

(١٦) Dr. Zaki Moh. Hassan. Les Tulunides. p. 48

وازدهر العسكر لكثرة ما شيد فيه من الاحياء العامرة . وقد سكنها الخمسة والستون واليا الذين حكموا مصر نائبين عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة . وصار حيًّا زاهراً لم يقلل من شأن الفسطاط كمركز هام للتجارة أو كعاصمة ثانية لمصر

وبتوالي السنين عظمت العمارة في العسكر الى ان قدم احمد بن طولون من العراق الى مصر فنزل بدار الامارة في العسكر وكان لها باب الى جامع العسكر ينزلها الامراء منذ بناها صالح بن علي وما زال بها حتى شيّد ابن طولون قصره بالقطائع وترك العسكر

واليوم ليس هناك أثر صغير لهذه الضاحية . كما ان المؤرخين لم يحتفظوا بتاريخ واف لحكامها فقد ساد عصرهم نوع من سوء الادارة وفساد الحكم . ولقوا صعاباً كثيرة عرقلت أعمالهم أشد مما عاناه ولاة بني أمية في مصر . وكان لزاماً عليهم أن يخمدوا الفتن التي أثارها الخارجون عن الاسلام اصحاب بعض المذاهب . او يقاوموا الثورات التي شبّت بين القبائل العربية أو سكان البلاد الاصليين من الاقباط

وقد ظل امراء مصر يقيمون في دار الامارة في المعسكر حتى بنى جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة . وتخربت العسكر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر الشدة العظمى كما ذكرنا لما تكلمنا عن خراب الفسطاط

ولسنا نظن أننا في حاجة الى أن نصف تلك الفترة من حكم العرب في الفسطاط أو العسكر فأن ولاة العسكر لم يتركوا أثراً لهم نستدل منه على اعمال الاصلاح التي قاموا بها وليس امامنا اليوم نموذج واحد من مبانيهم يرشدنا الى طرازهم المعماري . لكننا نقول ان العسكر عمّرت كقاعدة رسمية لمصر الاسلامية اكثر من قرن (١٣٣ — ٢٥٦ هـ)

وتناول المقريزي وصف ما آلت اليه العسكر وذكر باسهاب ما كان فيها من الدور والبساتين والمساجد والاسواق والحمامات . . . الخ

وبادوا فلا مخبر عنهم — وماتوا جميعاً وهذا الخبر
ومن كان ذا عبرة فليكن — فطيناً ففي من مضى معتبر
وكان لهم أثر صالح — فأين هم ثم أين الاثر

القطائع

فاذا انتقلنا الى العصر الذي زاد فيه نفوذ الجند الاتراك في خدمة البلاط العباسي رأيناه مقاليد الامور اصبحت في ايديهم وانهم استولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم اكثر الولاة والعمال وقدم الى وادي النيل اول وال تركي الاصل سنة ٨٤٦ ميلادية ثم بدأ الخلفاء في اقطاع

مصر اولياء عهودهم او كبار القوادمن الترك وكان هؤلاء القواد لايميلون الى الا بتعادعن العاصمة العباسية خشية الدسائس فكانوا يرسلون الى مصر عمالاً من قبلهم

كانت مصر من نصيب أحد كبار الاتراك واسمهُ «باكباك» ولاّه عليها الخليفة المعتز بن المتوكل. ونظراً لما كان للشاب احمد بن طولون من المكانة الطيبة انتخبهُ « باكباك » ليكون قائداً للحامية العسكرية في الفسطاط . وكانت نفسيتهُ تطمح الى المجد فلم يمض على ولايتهِ في مصر عامان حتى استقل بملكها

رأى ابن طولون ان العسكر اصبحت لاتسع حاشيته وتضيق بمطامعهِ فأخذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط . فصعد الى المقطم ونظر الى ما حولهُ فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الارض مساحتها نحو ميل مربع لاشيء فيهِ من العمارة الا بعض مدافن المسيحيين واليهود فأمر بهدمها ليقيم عليها عاصمته واختط في موضعها مدينتهُ الجديدة « القطائع »ووضعت الخطط الاولى للقاعدة الجديدة في شعبان عام سنة ٢٥٦ هـ (اغسطس ٨٧٠ م)

ويمكن القول بان حدود العاصمة الجديدة كانت تمتد بين حد الفسطاط الشمالي حيث جبل يشكر وبين سفح المقطم في مكان عرف وقتئذ بقبة الهواء.وفيما بين الرميلة تحت القلعة الى مشهد الرأس الذي عرف فيما بعد بمشهد زين العابدين

واختط الامير ابن طولون قصره وامر اصحابه ورجاله واتباعه بان يشيدوا بيوتهم فاتصل البناء بعمارة الفسطاط . واقطعت كل جماعة من الاتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها . ثم عمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والازقة . وبنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والافران . . . الخ

ولما كثر اتباع ابن طولون حتى ضاق بهم جامع العسكر التمسوا ان يشيد لهم جامعاً آخر اوسع من الجامع الاول فأجابهم الى التماسهم . واحتفل بوضع اساسه على جبل يشكر عام (٢٦٣ هـ - ٨٧٦ م) وانتهى تشييده بعد عامين . وقد غالى في زخرفته الداخلية وعلّق في سقفهِ القناديل بسلاسل نحاسية طويلة ونقش على افاريزه آيات من القرآن لا يزال بعضها ظاهراً الى اليوم . . . وهذا الجامع هو الأثر الوحيد الذي خلّد اسم ابن طولون على مر العصور حتى اليوم . وهو في طليعة اجمل الآثار في مصر ويعتبر علماً ظاهراً في تاريخ العمارة الاسلامية

وتولى « خمارويه » بعد وفاة ابيهِ فنقل قاعدة حكمهِ الى القطائع وأقبل على عمارة قصر ابيهِ وزاد فيهِ كثيراً وأخذ الميدان المجاور للجامع وحوّله الى بستان فتان وزرع فيهِ انواع الرياحين وأصناف الشجر وكسا اجسام النخل نحاساً مذهباً و مفضضاً . وانشأ في وسط قصره بركة ملأها بالزئبق وجعل في أركان البركة سككاً من فضة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة

في حلق من فضة وعمل فرشاً من آدم يمشي بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذٍ شده ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنانير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها . وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش. فلا يزال يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه بينما يحرسه أسده الازرق العينين

وبوفاة خمارويه هوى نجم الاسرة الطولونية وأخذت في الانحلال . واقبل محمد بن سليمان القائد العباسي للاستيلاء على البلاد . فبلغ الحدود المصرية وهزم الاسطول المصري ثم انقضّ على القطائع (٢٩٢ هـ — ٩٠٤ م) وألقى النار فيها فالتهمت الدور والمساجد والحمامات . ونهب أصحابه الفسطاط ودمرت الضاحية الجميلة . ثم عادت الفسطاط مرة ثانية مقرًّا للحكومة . ولما أصيبت مصر بالمجاعة في أيام المستنصر قضت على البقية الباقية من مخلفاتها الخربة واصبحت القطائع أثراً بعد عين ولم يبق فيها غير الجامع

كانت القطائع اول مدينة ملوكية بمعنى الكلمة انشئت في وادي النيل في العهد الاسلامي . روعي في انشائها وتخطيطها وتطورها القواعد الفنية التي اتبعت عند تأسيس مدينة سامرا . فان كان الخليفة المعتصم قد امر قائده أشناس لبناء سامرا عام ٨٣٦ م بعد ان صعب عليه التوفيق بين سكان بغداد ورجال حرس الخليفة الاتراك فان ابن طولون بعد قدومه من بلاد الجزيرة رأى ان يتلافى نفس الخطر . فاستدرك الامر وانشأ تلك الضاحية ليبتعد عن الفسطاط وجعلها عاصمة ملكه الساطع واتخذها بعده خلفاؤه من اسرته

كانت اوجه الشبه متقاربة جدًّا بين مدينة ابن طولون وبين سامرا . فقد كانت كل منها مقسمة الى خطط او قطائع تضم كل قطيعة منها السكان الذين تجمعهم رابطة الجنسية او رابطة العمل واصبح اسم القطائع علماً على مدينة ابن طولون وقد كان هذا الاسم يطلق في سامرا على كل احياء المدينة الا القصور الملكية [١٧] وامامه ميدان للعب الكرة وحدائق غناء وطرق متقاطعة . وطراز العمارة والزخرفة الذي اتبع في انشاء الدور الخاصة والعامة في سامرا كان قد انتقل مع ابن طولون الى مصر قبل ان يكون قد مضى على انشاء سامرا نفسها اكثر من اربع وثلاثين سنة . ومما يؤيد ذلك تأييداً ماديًّا الزخارف الجصية التي عثر عليها في جدران دار طولونية كشفتها دار الآثار العربية عام ١٩٣٢ [١٨]

والاثر الوحيد الذي خلفته القطائع وهو — الجامع الطولوني — يثبت لنا بجلاء أثر فنون سامرّا على تلك الضاحية المصرية التي لم تعمر وتزهر طويلاً

---

(١٧) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ٥٧ و ٥٨

(١٨) راجع الفصل الخاص بالفن الطولوني من كتاب الدكتور زكي محمد حسن :
Les Tulunides, Paris, 1933

القاهرة

والآن ننتقل الى العاصمة الرابعة لمصر الاسلامية فنرى ان الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعد أن نجح في تأسيس دولته الافريقية وأوصل حدودها الى ساحل المحيط الاطلانطي عزم على فتح مصر . وكان جده وابوه قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما

كانت مصر في ذلك الوقت عرضة للغزاة الفاتحين. فقد سادتها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التي سببها انخفاض النيل والطاعون . وكان المعز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل به « يعقوب بن كلس » اليهودي الذي هاجر من مصر . وكان مقرباً من كافور الاخشيدي

طلب الى جوهر القائد ان يضع الخطط العسكرية ويجهز حملته المصرية فحشد مائة الف رجل مجهزين بالمعدات الكافية وأرسل معهم المؤونة وآلات القتال وكل ما يحتاجه هذا الجيش الجرار[١٩]

وبدأت الحملة تحركها من القيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير ٩٦٩ م) فوصل جوهر إلى الاسكندرية واستولى عليها بسهولة ثم واصل زحفه الى الجيزة فوقعت في يده في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩ م) وعبر النيل بالمرب من منية الشلقان وسحق الجيوش التى أعدت للدفاع على الشاطىء الشرقي للنيل

وعقب ذلك دخلت القوات الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند مغيب الشمس . وعسكرت في السهل الرملي الواقع الى الشمال . وكان يحد هذا السهل من الشرق جبل المقطم . ومن الغرب الخليج [٢٠] الذي يصل بين شمالي الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة وينتهي عند القلزم على البحر الاحمر . وكان السهل المذكور خالياً من البناء الا بضعة مبان تتعلق ببساتين كافور وديراً مسيحيًّا اسمهُ دير العظام . وكان يشغل مكان مسجد الاقمر وحصناً صغيراً يسمى قصر الشوك [٢١]

---

(١٩) راجع للاستيفاء Capt. K. A. C. Creswell. The Foundation of Cairo. Bulletin of the Faculty of Arts Vol I. Part II. 1933 وترجمة السيد محمد رجب بمجلة المقتطف.

(٢٠) يسير ترام الخليج الآن من مسجد السيدة زينب الى الظاهر في نفس المكان الذي كان يخترقه الخليج وقد ردم الخليج المذكور في أواخر القرن التاسع عشر . ويسمى هذا الشارع الآن شارع الخليج المصري

(٢١) راجع للاستيفاء : Ravaisse, Essai sur l'histoire et sur la Topographie du Caire M. M. A. F. C. pp. 415-419.

تأسيس القاهرة

وفي مساء ذلك اليوم[٢٢] اختط جوهر موقع القصر الذي قرر ان يستقبل فيه المعز تنفيذاً لأوامر سيده وحينما أتى اعيان الفسطاط في الصباح التالي لتهنئته وجدوا ان أسس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى جوهر سوراً خارجيًّا من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من اضلاعه ١٢٠٠ ياردة . وكانت مساحة الارض التي حدّدها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو سبعين فداناً بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فداناً للبستان الكافوري ومثلها للميادين . والباقي وقدره مائتا فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية في نحو عشرين خطة بجانبي قصبة القاهرة[٢٣]

ولما كان جوهر قد اسرع في حفر اساس القصر بالليل فكانت فيه انحناءات غير معتدلة . فلما شاهدها في الصباح لم يعجبهُ . لكنهُ قال : « قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفي اليوم الذي خط فيه جوهر القاهرة اخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التي تألف منها جيشهُ خطة فاتخذت زويلة الخطة المعروفة الى اليوم . واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر[٢٤]

وكان قصد جوهر من انشاء القاهرة ان تكون معقلاً حصيناً لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاتلهم من دونها . فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً واحتفر خندقاً من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام جيش القرامطة الى القاهرة ومصر من ورائها[٢٥]

اما القصر الذي بناه جوهر فقد اوضح ابن دقماق الغرض الذي رمى اليه جوهر فقال انهُ بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب

ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية في اكثر اجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات

---

(٢٢) نقل بعض المؤرخين كما ذكر المقريزي ان انشاء القاهرة كان في ٦ جمادى الاولى سنة ٣٥٩ في نفس اليوم الذي اختط فيه جوهر الجامع الازهر . ولكن معظم المؤرخين وفي مقدمتهم المقريزي نفسه يذكر التاريخ الذي شق فيه الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٨ هـ) ووضع فيه أساس القصر الكبير . ويرى القارىء ان ما اتفق عليه المؤرخون في هذا الشأن بعيد الاحتمال فليس من المعقول أن يبدأ جوهر بناء القصر ليلة وصوله وليس من المعقول أن يجد اللبن الذي بنى به السور معداً لاستخدامه

(٢٣) الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك . ج ٢ . ص ٨١

(٢٤) الخطط المقريزية — طبعة النيل — ج ٢ ص ١٧٩

(٢٥) الخطط المقريزية — طبعة النيل — ج ٢ . ص ١٧٩

التي امدنا بها المقريزي ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا اي بيانات عنه[٢٦]. وقد كانت القاهرة تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء المتداماه. ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالي المواجه للفسطاط. ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم. ومن الجهة الغربية بموقع باب سعاده المطل او المحاذي لخليج امير المؤمنين بعيداً عنه بنحو ثلاثين متراً

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة واقام حوله السور سمى المدينة في اول الامر المنصورية تيمناً باسم مدينة المنصورية التي انشأها خارج القيروان المنصور بالله والد المعز. واستمر هذا الاسم حتى قدم المعز الى مصر فأطلق عليها القاهرة[٢٧] وذلك بعد مرور اربع سنوات على تأسيسها[٢٨]

ومن الواضح كما اشارت رايتماير Reitemeyer[٢٩] اننا يمكننا ان نجزم بان القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بان ينشيء مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان او بمثابة فرساي لباريس او وندسور للندن. ويلاحظ لهذه المناسبة ما ذكره البكري من ان بابين من ابواب المنصورية كان يطلق على احدهما باب زويلة والثاني باب الفتوح. وقد اطلق هذان الاسمان على بابين من ابواب سور مدينة القاهرة المصرية

وصول المعز

وفي يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) لما دخل المعز القاهرة على رأس أفراد اسرته تجاهل الفسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجاً لمقدمه. ثم قصد القصر

(٢٦) راجع. K. A. C. Creswell-The Foundation of Cairo. p. 269

(٢٧) اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء. للمقريزي — بيت المقدس — سنة ١٩٠٨

(٢٨) وقيل في سبب تسميتها ان القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقيم فيها الجند. وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الاساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جعل فيه أجراساً. وقالوا للعمال اذا تحركت الاجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة. فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فتفق ان غراباً وقع على حبل من الحبال التي فيها الاجراس فتحركت كلها فظن العمال ان المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا، فصاح المنجمون القاهر في الطالع فمضى ذلك، وفاتهم ما قصدوه. وقيل ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الاساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة — الخطط المقريزية — ج ٢ — ص ٢٠٤

(٢٩) Reitemeyer, Beschreibung Ägyptens in Mittelalter 185-193.

الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معهُ في توابيت . وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه وخطب خطبة العيد

وذكر ابن عبد الظاهر ان المعز بعد دخوله القاهرة عتب على جوهر لانهُ لم يؤسس المدينة الجديدة في مكان المقس بالقرب من باب البحر او جنوبي الفسطاط لتكون قريبة من شاطىء النيل . وقد أورد المقريزي (٣٠) هذا العتاب بقوله :

« ياجوهر فاتك عمارتها هنا » مريداً المقس (٣١)

فكأن القاهرة المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من انشائها في بادىء الامر ان تكون قاعدة او دار خلافة او منزل ملك بل وضعها لتكون سكناً للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجأ اليه (٣٢) . فنشأت القاهرة مدينة متواضعة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حيناً بعد قيامها مدينة ملوكية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الامراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح . ثم أصبحت بعد انشائها باربعة اعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرتهُ من المغرب واتخذ مصر موطناً لهُ (٣٦٢ هـ)

ولم يكن لقاطني مصر ان يدخلوا « المدينة الملوكية » الا باذن يسمح لصاحبه بدخول احدى بوابات القاهرة . وكان مفوضو الدول الاجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون الى القصر بين صفين من الجند على الطريقة البيزنطية . وكانت اسوار القاهرة العالية وابوابها المحروسة تحجب الخليفة عن انظار شعبه

ولكن بمرور بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نمواً محسوساً وبدأت القاهرة حياتها في ظل الخلفاء الفاطميين . وتبوأت مكانتها العظيمة ذات الرونق والبهاء ثم اتصلت بمصر الفسطاط وصارتا كما سنرى تؤلفان معاً احدى مدن الاسلام العظيمة في العصور الوسطى

---

(٣٠) اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقريزي ص ٧٤

(٣١) كانت المقس (المقسم) ضيعة تعرف بأم دنين واقعة على ساحل النيل . وقد جعلها المعز مرفأً صناعياً وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس . وكانت تسمى المكس لاقامة صاحب المكس والعشار فيها ثم قلبت فقيل المقس . وفي عهد دولة المماليك أصبح خط المقس يطلق على المنطقة الكبيرة التي تحد اليوم من الغرب بميدان باب الحديد وشارع الملكة نازلي وشارع عماد الدين ومن الجنوب بشارع قنطرة الدكة ومن الشرق بشارع الخليج المصري ومن الشمال بشارع الطواشي والشمبكي . تعليق محمد بك رمزي — النجوم الزاهرة — ٤ — ص ٥٣ و٥٤

٣٢ الخطط المقريزية — طبعة النيل — ج ٢ — ص ١٨٤

اسوار القاهرة

ولنتكلم الآن عن أسوار القاهرة الاولى فقد بنيت من اللبن الكبير . وكان طول اللبنة الواحدة قدمين وعرضها خمس عشرة بوصة . وكان سمك جدران السور يسمح لفارسين بالمرور عليها معاً . وقد ذكر المقريزي انهُ لم يبق من آثار هذا السور شيء في عام ١٤٠٠ م. وذكر ايضاً انهُ شاهد جزءاً طويلاً من السور الذي شيده جوهر قائماً على بعد خمسين ذراعاً من السور الحالي (وهو من اعمال صلاح الدين) في المنطقة الواقعة بين باب البرقية ودرب بطوطه حتى دمرت عام (١٤٠٠ — ١٤٠١ م) . ومن السهل ان نعرف امتداد المدينة التي شيدها جوهر القائد اذا تصورنا نقطتين هامتين وهما ان باب الفتوح الحالي ومعهُ جامع الحاكم وباب زويلة ومعهُ جامع المؤيد يقعان خارج المربع الاصلي للقاهرة الاولى بمسافة قليلة . وكان عرضها ممتداً من باب الغريّب خلف الجامع الازهر من ناحية الشرق الى الخليج من ناحية الغرب بالقرب من حي بين السورين (الموسكي) [٣٣]

نرى ان موقع القاهرة قد اختير لغرض عاجل هو ستر الاماكن القريبة من المدينة الثلاثية الفسطاط والعسكر والقطائع . ووقايتها وحمايتها من غارات القرامطة الذين كانوا يهددون مصر

فتنفيذاً للخطة الدفاعية التي كلف جوهر القيام بها امر بحفر خندق كبير عمقه واتساعه عشرة اذرع. وقد حفظ لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة احداها في ربيع الاول ٣٦١ه والثانية في ٣٦٣ه واستطاع القرامطة عبور الخندق في الغارة الثانية لكنهم لم يستولوا على القاهرة

وبنى السور الثاني للقاهرة الوزير أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٨٠ ه خارج سور جوهر لا على اساسه . وكان مثله في ان مادة بنائه كانت من اللبن للجدران ومن حجر منحوت للابواب والابراج [٣٤]

اما السور الثالث فقد ابتدأ في عمارته صلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٦٦ ه . وقد كان حينذاك وزيراً للعاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين بمصر . فلما استولى على الملك عام ٥٦٩ه وصار سلطاناً ندب للعمل في السور الطواشي بهاء الدين قره قوش الأسدي .فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن . وبدلاً من ان يحيط به القاهرة وحدها قرر ان يطوق به قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط [٣٥] ولكنهُ توفي قبل ان يتم ذلك

---

(٣٣) K. A. C. Creswell : The Foundation of Cairo

(٣٤) محمود احمد — مجلة الهندسة — اكتوبر ١٩٣٤ — الاعداد ٨ و ٩ و ١٠

(٣٥) محمود احمد — المصدر السابق

ابواب القاهرة

وكان للقاهرة ثمانية ابواب لكل جنب من اجنابها الاربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة . كان في الاصل بابين بنتهما قبيلة زويلة من قبائل البربر . كانا عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين (٣٦)

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بانك اذا سرت في حارة الجداوي من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فانثناء صغير به ضريح لمن يدعي «سيدي فرج» وهو ليس سوى باب الفرج . وفي الجهة البحرية التي يسلك منها الى عين شمس :

باب النصر : وموضعهُ الأول بالرحبة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذي يشغله الباب الحالي . وقد ذكر المقريزي أنهُ رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربي للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عن البابين الجنوبين لجامع الحاكم (٣٧)

باب الفتوح : ذكر المقريزي أنهُ كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الاول اجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية . وان هذه الاجزاء كانت على رأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمي (٣٨)

وكان في الجهة الشرقية من القاهرة وهي الجهة التي يسلك منها الى الجبل بابان هما :

باب القرّاطين (المحروق) : يمكن تعيين موقع هذا الباب تعييناً أقرب الى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذي حل محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق (٣٩) . ويرى كريسويل

---

(٣٦) مسجد ابن البناء هو الذي يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشارع المناخلية وتسميها العامة زاوية سام بن نوح . وقد بنى المسجد المذكور الحاكم بأمر الله ومات ابن البناء سنة ٥٩١ هـ وقد أزيل بابا زويلة الاصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالي بدلهما باب زويلة الكبير القائم الى اليوم . وتسميه العامة بوابة المتولي حيث كان يجلس في مدخله متولي حسبة القاهرة — تعليق محمد بك رمزي — النجوم الزاهرة ـ ج ٤ ـ ص ٣٧

(٣٧) محمود احمد — مجلة الهندسة — ١٩٣٤ ص ٣٣٢

(٣٨) الخطط المقريزية — ج ٢ ص ٢١٠ و٢١١ — طبعة النيل

(٣٩) أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب ما فعله سبعمائة مملوك هربوا من القاهرة عند ما علموا بقتل الفارس الامير أقطاي في ٢١ شعبان ٦٥٢ هـ . ففي اثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت العادة في ذلك العصر اذ كانت تغلق ابواب مدينة القاهرة في الليل . فأوقدوا النار في الباب حتى سقط من ذلك الحريق . وخرجوا منه . ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق — المقريزي — طبعة النيل ج ٢ . ص ٢١٣

ان موقع باب القراطين الاول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالي [٤٠]

باب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لان الفصل الذي بحث فيه المقريزى أبواب القاهرة وقف عند ذكر عنوان باب البرقية .ومن المحتمل جداً ان موقعهُ كان شمالى الباب المحروق وبالقرب من الجامع الازهر . وقد نسب الى جنود برقة ثم عرف فيما بعد بباب الغريب

أما في الجهة الغربية من القاهرة وهي المطلة على الخليج الكبير فقد كان هناك :

باب سعادة : وهو أول ابواب السور الغربي . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله وأحدقواده . لأنهُ لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر الى لقائه وعاد معهُ الىالقاهرة دخلها من هذا الباب فعرف بهِ وقيل لهُ باب سعادة ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبي للجانب الغربي من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالي الشرقي لمحكمة الاستئناف

باب القنطرة او الجسر : وقد عرف بذلك الاسم لأن جوهراً بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذي بظاهر القاهرة ليسير عليها الى المقس عند مسير القرامطة الى مصر (٣٦٠هـ) وكان موضعهُ على مدخل شارع أمير الجيوش الجواني تجاه مدرسة باب الشعرية [٤١] وتسمي العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية في حين ان ذلك الباب كان قائماً غربي الخليج بميدان العدوي بين شارعي العدوي وسوق الجراية . وكان عند ذلك الباب قنطرة اخرى ذكرها المقريزي باسم قنطرة باب الشعرية وتعرف في ايامنا باسم قنطرة الخروبي . والعدوي والخروبي مدفونان في مسجد واحد بجوار موقع الباب المذكور

الجامع الازهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم انشاء القاهرة فكانت أولى خطواته بناء الجامع الازهر . وقد أكد المقريزي ان القائد جوهر بدأ عمارتهُ في يوم السبت لست بقين من جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ. ولما تم تشييده بعد عامين فتح للصلاة في شهر رمضان عام ٣٦١ هـ (يونيو - يوليو ٩٧٢م). ويعد الازهر أول عمل فني عماري أقامهُ الفاطميون في مصر لايزال قائماً لليوم

بني الجامع في الجنوب الشرقي من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذي كان موجوداً حينذاك بين حي الديلم وحى الترك في الجنوب . وكتب جوهر بدائرة القبة نقشاً تاريخهُ عام ٣٦٠ هـ تجد نصهُ في الخطط المقريزية . وقد زال هذا النقش

---

(٤٠) انظر K. A. C. Creswell, The Foundation of Cairo. p. 273

(٤١) تعليق محمد رمزي بك بالنجوم الزاهرة — ج ٤ — ص ٣٩

ويعدُّ التخطيط الاصلي الذي أنشيء هذا الجامع عليهِ من الامور الصعبة التي لا يمكن الاهتداء اليها . فقد زاد كثير من الولاة الفاطميين في بنائهِ وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منهُ في خلال القرون الماضية كما أضيفت اليهِ زيادات عدة . واذا كان الجامع ما زال يشتمل على بقية ضئيلة من الافاريز الكوفية والعقود الفارسية التي تعد من مميزات العمارة الفاطمية فأن جل اجزاءه الحالية من عصر متأخر حيث قد زاد المستنصر والحافظ في بناء الجامع بعض زيادات. ثم قطع عنهُ الايوبيون كثيراً مما اوقفهُ عليهِ الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنهُ . وكان قايتباي اكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع

وانشاء الفاطميين لهذا المسجد يفسر الاسم الذي اطلق عليهِ . فقد قيل ان الازهر اشارة الى الزهراء وهو لقب فاطمة التي سميت باسمها مقصورة في المسجد [٤٢] وقال بعضهم ان هذه التسمية نسبة الى القصور الزاهرة التي بنيت حينما انشئت القاهرة . وقال آخرون انما سمي كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن والمكانة بأزدهار العلوم فيهِ

وكان الخليفة العزيز الفاطمي اول من حول الازهر من مسجد تقام فيهِ الشعائر الدينية الى جامعة للشيعة تدرس فيها العلوم ويروّج فيها المذهب الفاطمي . كما كان اول من اجرى الارزاق على طلاب العلم فيهِ ممن وفدوا من جميع نواحي العالم الاسلامي . من ساحل الذهب الى جزر الملايو . فقد تقابل في مقصوراته وفنائه المراكشي والجاوي والصيني والتونسي والجزائري والبولندي والزنجي تربطهم جميعاً رابطة الاسلام . وكان لكل طلاب امة رواقهم الخاص حيث يتلقون دروس الفقه والشريعة والنحو والحديث والمنطق والجبر والفلك والعروض والبلاغة والتفسير [٤٣]

أخطاط القاهرة

ونتنقل الآن الى ذكر أهم الاحياء التي اشتملت عليها القاهرة المعزية فنقول :

سبق القول إنهُ في اليوم الذي خط فيهِ جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التي تألف منها الجيش الفاطمي خطة عرفت باسمها . وقد كان أهم تلك الخطط او الحارات ما يأتي :

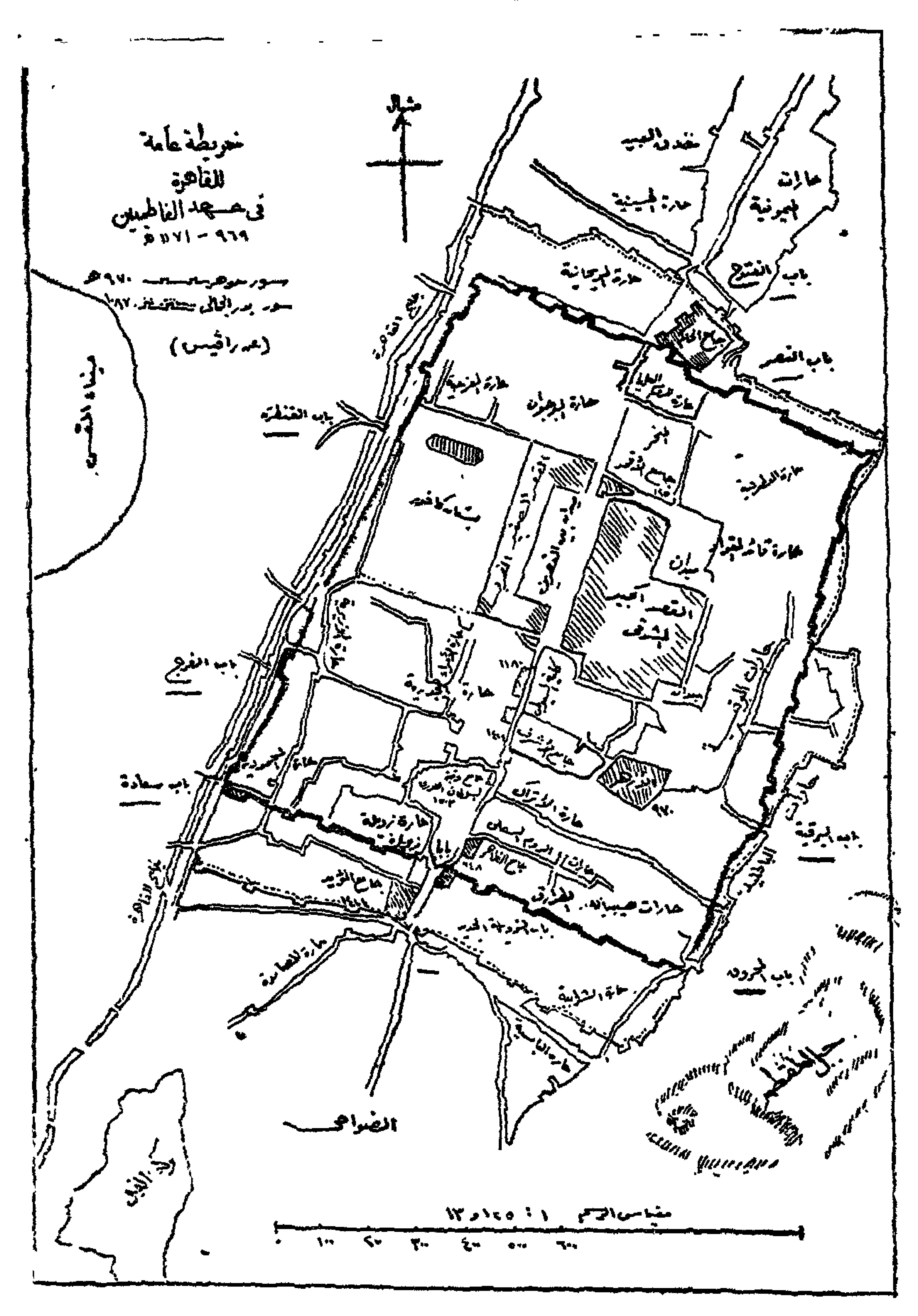
١ — حارة الروم : كانت حارتين . وهي التي لم تزل معروفة الى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر . وحارة الروم الجوّانية بقرب باب النصر على يسار الداخل الى القاهرة . وقد نسبت الى الاشراف الجوّانيين

---

(٤٢) دائرة المعارف الاسلامية — المجلد الثاني — العدد الاول ص ٥٢

(٤٣) راجع ثبت المصادر لمادة الازهر في دائرة المعارف الاسلامية — المجلد الثاني . العدد الاول ص ٧٠ و ٧١

٢ — حارة برجوان : منسوبة الى برجوان أحد خدمة القصر في أيام العزيز بالله نزار العبيدي . وصار في ايام الحاكم بامر الله مدبر مملكته حتى قتله في احد قصوره



٣ — حارة زويلة : منسوبة الى زويلة إحدى قبائل البربر الواصلين صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة

٤ — حارة الجدرية : وهي طائفة منسوبة الى جودر خادم عبيد الله المهدي أبي الخلفاء

الفاطميين . وقد سكنها اليهود بعدهم الى أن بلغ الحاكم انهم يهزأون بالمسلمين فسدّ عليهم أبوابها وحرقهم ليلاً

٥ — حارة الامراء : بالقرب من باب الزهومة (٤٤) . وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين . وبها كانت دار الوزير عباس

٦ — حارة الديلم : منسوبة الى الديلم الذين اتوا برفقة « افتكين » غلام المعز ابن بويه الديلمي الذي تغلب على الشام في عهد المعز . وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة . لكنهُ وقع في أسر العزيز بالله في مدينة الرملة وساقهُ الى القاهرة . فعاملهُ بالحسنى وانزله مع اصحابه بهذه الخطة وبها كانت دار الصالح طلائع بن رزيك

٧ — حارة الباطلية : وتعرف بقوم اتوا مع المعز . ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئاً . فقالوا : « رحنا نحن في الباطل » . فسموا الباطلية (٤٥)

٨ — حارة الكافوري : كانت بستاناً للاستاذ الملك كافور الاخشيدي ثم من بعده صار للخلفاء المصريين

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) : سكنهُ في باديء الامر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة الى ملوخية احد فراشي القصر . ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة قصر الشوك

١٠ — حارة العطوف : منسوبة الى الخادم عطوف احد خدام القصر الفاطمي وتدل على موقعها المنطقة التي يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر

١١ — الوزيرية : منسوبة الى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة

١٢ — حارة المحمودية : او المصامدة — منسوبة الى الطائفة المعروفة بالمحمودية التي قدمت ايام العزيز بالله الفاطمي الى مصر

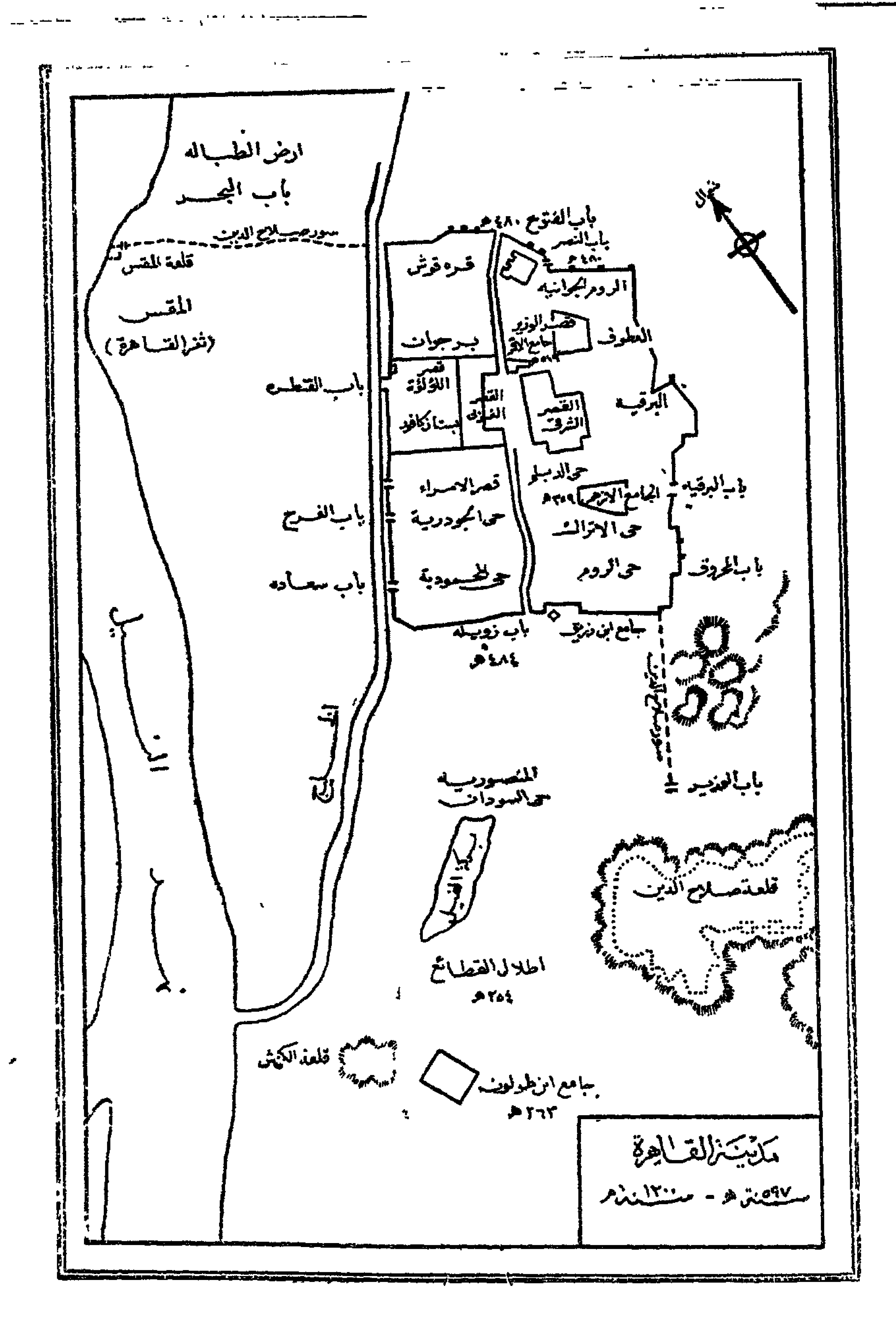
ولقد زاد عدد هذه الخطط وتطورت كثيراً في ايام الايوبيين والمماليك . مما لا يتسع هذا البحث لشرحهِ ووصفه مفصلاً (٤٦)

---

(٤٤) باب الزهومة أحد الابواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة في أول شارع ن الخيلي على يسار داخله من جهة شارع الصاغة من شارع بين القصرين — تعليق محمد بك رمزي — جوم الزاهرة . ج ٤ — ص ٣٦

(٤٥) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطنيه في الجنوب الشرقي لجامع الازهر.

(٤٦) تبحث المراجع المفصلة — كالمقريزي وعلي باشا مبارك و Ravaisse



القصور الزاهرة

وصف المقريزي قصور الفاطميين فيما لا يقل عن مائتي صفحة. وقد ذكرنا ان جوهر و د
اساس القصر الكبير في نفس الليلة التي اختط فيها القاهرة . واستمر العمل في أقسامه المتعددة ـ

سنين . وقد اشتمل هذا القصر في داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة اهمها بهو الذهب والاقيال والظفر والشجرة وقصر الشوك والزمرد والنسيم والبحر والحريم

ولما آلت الخلافة الى العزيز أضاف الى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير. وكان للقصر الكبير وحده تسعة ابواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر فباب الريح وباب الزمرد وباب العيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة . وكان باب الذهب تدخل منه انقوات العسكرية وجميع أهل الدولة في يومي الاثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك امام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود في يومي العيدين

اما القصر الصغير فقد امر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ . وقد قال المسبّحي عنهُ « لم يبن مثله في شرق ولا في غرب » . وكانت له عدة ابواب اهمها باب الساباط وباب التبانين وباب الزمرد وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الارض . كان ينزل منهُ الخليفة ممتطياً ظهر بغلة تحيط بهِ فتيات القصر

ولم يتم بناء القصر الصغير الاً في عام ٤٥٧ هـ في خلافة المستنصر . وقد شغل موقعه فيما بعد المارستان الكبير المنصوري الى جوار حارة برجوان

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة ودار الوزارة الكبرى ودار الضرب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة او (الدار الافضلية) امير الجيوش الافضل بن بدر الجمالي ثم سكنها ارباب السيوف امراء الجيوش المصرية بالتوالي الى ان تولى الايوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده (٤٧)

وفي ايام الحاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربي وقد افتتحت في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ واستمرت تؤدي رسالتها حتى أبطلها الافضل ابن بدر الجمالي

وكان العزيز ميالاً الى اقتناء الكتب فجمع جانباً كبيراً منها خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الاموال في الاكثار من المؤلفات النادرة والمخطوطات النفيسة في شتى العلوم والآداب. وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين انفسهم كالخليل بن احمد والطبري (٤٨)

---

(٤٧) الخطط المقريزية نقلا عن ابن عبد الظاهر جـ ٢ ص ٣٠١ و ٣٠٢ — طبعة النيل

(٤٨) الدكتور زكي محمد حسن — كنوز الفاطميين — ١٩٣٧

جوامع الفاطميين

بين منشآت الفاطميين في القاهرة لم يبق الا الابواب الثلاثة وجزء من سور المدينة وبقايا أربعة مساجد من ستة أقامها الفاطميون . هي الجامع الازهر وقد تحدثنا عنهُ والجامع الحاكمي والجامع الاقمر وجامع المقس والجامع الظافري المعروف بجامع الفكاهين وجامع الصالح طلائع ابن رزيك . اما القصور فقد اندثرت

ومن الآثار الفاطمية الباقية الى اليوم جامع الحاكم وهو لان الازهر لم يحتفظ الا بشيء قليل جداً من عمارته القديمة وزخارفه الاصلية . وكان العزيز هو الذي شيّد جامع الحاكم عام (٣٨٠) بمعاونة وزيره « ابن كلس» ثم اتمه الحاكم بأمر الله واكمل زخرفته وشيد مئذنتيه (٤٠٣ هـ) . ولما استولى الصليبيون على القاهرة (١١٦٧م) حولوا جزءاً منهُ الى كنيسة . فلما قدم صلاح الدين الى مصر هدمها وابطل استعمال الازهر وجعل مسجد الحاكم المسجد الرسمي للدولة وشيد الخليفة الآمر جامع الاقمر في ما بين القصرين . وكان اول مسجد بني من الحجارة المنحوتة . وكانت عقوده الداخلية من اللبن اقيمت على اعمدة من الرخام . وقد نقش على افريز المسجد بالكوفية اسم الآمر وتاريخ بنائه عام ٥١٩ هـ

اما مسجد الصالح طلائع فقد انشأهُ الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بنصر الله عام ٥٥٥ هـ . كما يستدل على ذلك من الكتابة المنقوشة على وجهتهِ البحرية . ويواجه هذا المسجد باب زويلة وعنيت بهِ في السنين الاخيرة لجنة حفظ الآثار العربية

خاتمة الفاطميين

لقد بلغت القاهرة في نهاية ايام الفاطميين شأناً كبيراً من التقدم والرقي . وكانت قد اصبحت كالمدن الكبيرة تكتنفها الطرقات والاسواق وتتوسطها البساتين الغناء . وتشتمل على الحمامات الجميلة والوكالات والمدارس . وتاريخ هذه العمائر ووصفها قد افاضت فيهِ صفحات الخطط المقريزية وقد تناولها المقريزي في فصول بليغة ساحرة اقتبسها مما الفهُ عنها كتّاب معاصرون للقاهرة المعزية امثال ابن زولاق والمسّبحي والقضاعي . فقد دونوا بتاريخ مناحيها الشاسعة التي تضيء بعظمة القاهرة من اعوامها الاولى الى القرون الوسطى

ليس من السهل ان يتصور الانسان كيف آلت مخلفات الفاطميين النفيسة الى الخراب فانها لم تكن شيئاً قليلاً بل كانت في مجموعها مدينة كاملة

لما قضى الامر بوفاة العاضد لدين الله آخر الفاطميين (٥٦٧ هـ) أبعد الوزير قراقوش جميع

الفاطميين عن قصورهم واخلاها منهم . واستولى عليها صلاح الدين وتسلم ما كان فيها من خزائن ودواوين واموال وتحف . واستمر بيع نفائسها وكنوزها عدة سنوات. ثم أغلق ابوابها وملكها لامرائه وخواصه وباع ما تبقى . وكان القصر الكبير نصيباً لامرائه . واسكن أباه نجم الدين في قصر اللؤلؤة المطل على الخليج . ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة التي بلغت محتوياتها ١٢٠٬٠٠٠ من أنفس الكتب استطاع القاضي الفاضل ان يحصل على طائفة كبيرة منها . واقام صلاح الدين في دار الوزارة الكبرى حتى شيدت قلعة الجبل لكنهُ لم يسكنها . ولم تمض اعوام اخرى على تلك القصور الزاهرة حتى درست وشغلتها العامة

قاهرة الايوبيين

وباستيلاء السلطان الناصر صلاح الدين بن ايوب على مصر (٥٦٧هـ) سمح للمصريين بسكنى القاهرة بعد ان كانت سكناً للخلفاء الفاطميين واتباعهم وحصناً يلتجئون اليهِ وقت الحاجة . وان كنا نعرف ان القائد بدر الجمالي قد أذن لمن يستطيع البناء ان يعمر ماشاء من القاهرة مستخدماً في ذلك انقاض الفسطاط . وبالتدريج اتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارتا مدينة واحدة تشتمل على البساتين والقصور والدور والرباع والاسواق والفنادق والقيسريات والحمامات والازقة والجوامع والمدارس . . الخ

كان صلاح الدين اول من جعل القاهرة عاصمة للديار المصرية يسكنها الخاصة والعامة ولم ينسج على منوال من سبقهُ من الخلفاء او الحكام فأقام ضاحية ملكية على مثال القطائع وفرساي وبوتسدام . بل انهُ عمل شيئاً جديداً . فقد رأى ان يجمع تلك الضواحي ببناء سور حولها ويتوجها معاً بقلعته المشهورة فوق جبل المقطم ويضم اليها تلك النواحي المبعثرة وميناء المقس ثم يلف حولها سوراً من الحجارة الكبيرة ويمد سور بدر الجمالي الى المقس من الغرب والى سفح المقطم من الجنوب ثم يلتف به عند بقايا الفسطاط ليمس النيل. الاّ ان هذا المشروع الكبير لم يتم لاشتغال صلاح الدين بحملاته العسكرية في الشام . ولم ينته الاّ جانب يسير منهُ

وأهم المميزات التي امتازت بها قاهرة صلاح الدين — قلعة الجبل التي شيدها في عام (٥٧٢هـ — ١١٧٦ م) . وكان يشرف على عمارتها الامير بهاء الدين قرقوش الاسدي الخصي احد امراء صلاح الدين . فأتم تشييدها بعد ست سنوات (٥٧٩ هـ — ١١٨٣ م) . ومن اجل القلعة هدم عدداً كبيراً من الاهرامات الصغيرة التي كانت بالجيزة كما أزال ما وجدهُ في موقع بنائها من المساجد والاضرحة والقبور . وقام باعمال النحت والبناء أسرى الفرنج الذين وقعوا في يد صلاح الدين في المعارك التي دارت بينهُ وبين المسيحيين . ولقد شاهدهم الرحالة الاندلسي ابن جبير لما زار

القاهرة عام (٥٨٧ هـ ١١٩١م) ووصف بعض آثارها ومشاهدها في رحلته المسماة « تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار » . ومات صلاح الدين قبل انتهاء بناء القلعة فأهمل العمل مدة الى ان كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل . فاهتم بعمارتها وأكملها ثم جملها مقر سلطنته

وفي خاتمة القرن السادس الهجري زار القاهرة الرحالة عبداللطيف البغدادي ثم ياقوت الحموي الذي قال عن القاهرة في معجمه « هي أطيب وأجل مدينة رأيتها » وكان قد وفد اليها في فاتحة القرن السابع

واهتم السلاطين المماليك فيما بعد بأمر القلعة . فشيد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ثلاثة اماكن احدها القصر الابلق الذي « كان يجلس فيه السلطان في عامة ايامه ويدخل عليه فيه امراؤه وخواصه » . وثانيها الايوان الكبير الذي يجلس فيه السلطان في ايام المواكب للخدمة العامة واقامة العدل في الرعية . وثالثها جامع الخطبة الذي يصلي فيه السلطان الجمعة [٤٩]

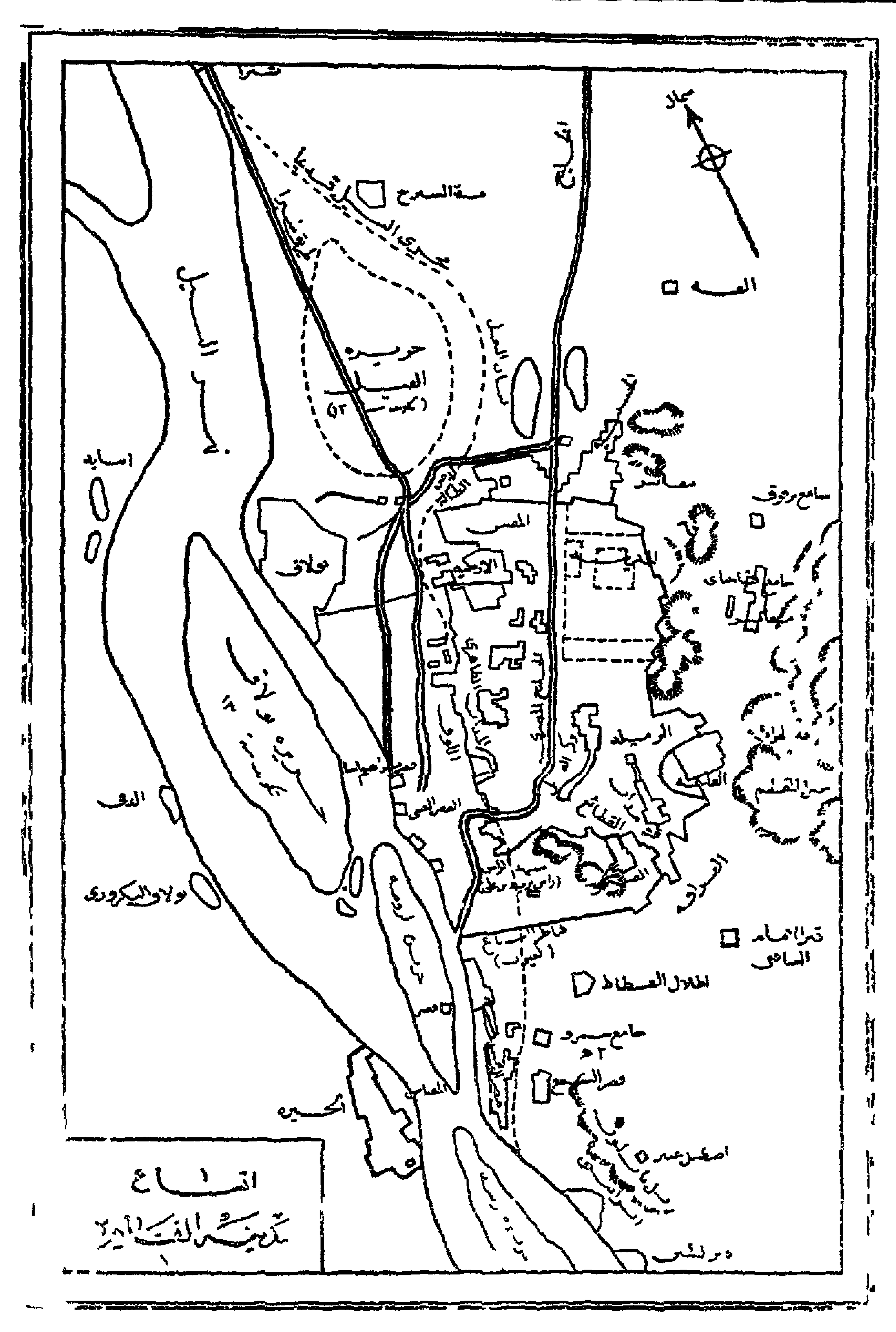
وبدأ في عصر صلاح الدين نظام المدارس للقضاء على المذهب الشيعي. وكان لهذا النظام تأثير خاص في العمارة الاسلامية في مصر . وعلى كل حال فقد انشئت في القاهرة الكلية الشافعية بجانب المشهد الحسيني . وحول دار عباس الوزير الفاطمي الى مدرسة سيف الدين لتدريس مذهب الحنفية كما انشأ مدرسة أخرى لمذهب مالك عرفت بالقمحية . وكانت النتيجة ان زخرت مصر بالادباء والمفكرين وهم رمز الحضارة الاسلامية الذين حتمهم مصر بعد ان تخلت بغداد عنهم . تلك الحضارة التي وإن كانت قد استقرت في آسيا طوال عصر الامويين والعباسيين فقد كانت في مصر الايوبية زاهرة يانعة ولا سيما ان وادي النيل كانت له في ذلك العصر اكثر القيادة الاسلامية ضد الصليبيين

وحسبنا الآن ان نسجل هنا بعض الاعلام المصريين . فمن الشعراء بهاء الدين زهير (٦٥٦هـ). وأبو الحسين الجزار (٦٧٩ هـ) والسعيد بن هناء (٦٥٨هـ) وأبو الحسن المشد (٦٥٦) وابن مروح (٦٤٩هـ). ومن اللغويين ابن الحاجب الشهير (٦٤٦هـ) . ومن الحكماء محمد الخونجي الفيلسوف (٦٤٢) . ومن الاصوليين ابو الحسن الامدي (٦٣٢) . ومن الشعراء الصوفيين ابن الفارض (٦٣٢هـ) وغير هؤلاء كثيرون في جميع نواحي التفكير من ادب وعلم وسياسة وتصوف [٥٠]

---

(٤٩) صبح الاعشى — الجزء الثالث . ص ٣٧٢

(٥٠) في ميدان الادب المصري — بقلم محمد ضياء الدين الريس — ملحق العدد ٢٩٧٥ من السياسة الاسبوعية



قاهرة المماليك

فاذا انتقلنا الى قاهرة المماليك — هؤلاء السلاطين البواسل الذين استطاعوا ن يجعلوا بحر الروم الشرقي بحيرة مصرية وصدوا هجمات الصليبيين الذين حاولوا مراراً التغلب على فلسطين مفتاح مصر . وجدناها قد تحولت الى مدينة من أجمل مدن الشرق بما أدخلوه عليها ن جديد

ظفرت القاهرة اثناء حكم المماليك بطائفة من السلاطين الذين دونوا في التاريخ المصري صفحات مجيدة من الاعمال النادرة في الفتح والسياسة والانشاء. وكان في مقدمة هؤلاء السلاطين الأمجاد الظاهر بيبرس البندقداري ومنقذ الاسلام وهازم المغول والصليبيين ثم السلطان الناصر حليف التتار وصديق المؤرخ العلامة ابي الفداء . ويعد عصر الناصر من أزهر عصور مصر والقاهرة فلم يسبق ان كان للعمارة عصر ذهبي كعصر الناصر . امتاز عهده بالانتاج الفني . وتشهد النفقات الكثيرة التي أنفقها السلطان وامراؤه على المنشآت بما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والرفاهية. وأهم مبانيه في القاهرة مدرسة بين القصرين والجامع العتيق بالقلعة وبهو الاعمدة أحد اجزاء القصر الابلق بالقلعة . ولقد شاهد الرحالة ابن بطوطة الذي وفد على مصر عام (٧٢٦ هـ — ١٣٢٦ م) في عهد السلطان الناصر ابن قلاون كيف كان تنافس الامراء المصريين على تخليد اسمائهم . فشيدوا الخانقات والتكايا وغيرها فقال انهُ ليتعذر على الانسان ان يحصي المدارس او يصف عظمة بيمارستان قلاون بآلاته العجيبة وصيدليته المجهزة بالعقاقير الوفيرة او يتصور المبالغ الوفيرة التي تصرف يوميًا عليهِ . وقد وصف ابن بطوطة القاهرة في تلك العبارات الطريفة :

« ثم وصلت الى مدينة مصر أم البلاد . وقرارة فرعون ذي الاوتاد . ذات الاقاليم العريضة . والبلاد الاريضة . المتناهية في كثرة العمارة . المتباهية بالحسن والنضارة . مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر . وبها ما شئت من عالم وجاهل . وجاد وهازل . وحليم وسفيه . ووضيع ونبيه. وشريف ومشروف .ومنكر ومعروف. تموج موج البحر بسكانها. وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها . شبابها يجد على طول العهد . وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد . قهرت قاهرتها الامم . وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم »

ولقد بلغ عدد المساجد والمدارس التي شيدت في القاهرة بين عامي (٧٢٠ و٧٦١ هـ) اربعين وهذا العدد اكثر من ربع ما شيد منذ فتح العرب مصر الى ايام المقريزي في اوائل القرن الخامس عشر . ومجموعها عنوان ما كان عليهِ عصر المماليك من مجد ورفاهية ورخاء

***

ومما يؤسف له ان القاهرة في عهد الناصر لم تنج من بعض الحرائق التي دبرها افراد من القبط انتقاماً لما أصاب كنائسهم من التخريب (٧٢١ هـ—١٣٢١ م) فدمرت أحياء كاملة وشغل الامراء والشعب باطفائها عدة أسابيع وبسببها فقدت القاهرة كثيراً من خططها الفخمة ودورها وآثارها

قاهرة المقريزي

فاذا وصلنا الى القاهرة التي عرفها المقريزي وعاش تحت سمائها (٧٦٦هـ — ٨٤٥هـ) وجدناها صارت قلب الديار ومركز تجارتها ومبعث ثقافتها ومنارة دينها . ولم تكن ذلك المعقل المحدود الذي اشتمل على القصور الفاطمية . فامتدت من جميع جهاتها الا من جهتها الشرقية واجتازت عمارتها بوابتيها الشماليتين .وتكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية كثرت فيها المساجد والزوايا والدور. وانتشرت مبانيها الى الغرب حيث كان الفضاء بين سورالقاهرة الفاطمية والنيل وانحسر النهر عن سور القاهرة فسمح لقطعة من الارض بالظهور فنشأت ميناء جديدة عرفت باسم بولاق.وشيدت مجموعة من المنازل مكان مجرى النيل القديم

عاش المقريزي في عصر امتد في اواخر القرن الثامن الى اواسط القرن التاسع . وعاصر من سلاطين مصر اثني عشر(٥١) سلطاناً متعاقبين . وشاهد مرحلتين هامتين في تطور القاهرة . كانت المرحلة الاولى لما ارتدت القاهرة ثوب حياتها الجديدة عقب ما اصابها من وباء عاث فيها في عهد الملك الناصر فكانت من اروع محن مصر . والمرحلة الثانية في اوائل القرن التاسع بعدما منيت بهِ من المصائب الثلاث : الوباء والغلاء وهبوط النيل . ثم عادت تسترد مكانتها(٥٢) وعلى الرغم من تلك الكوارث التي نجمت بها القاهرة وعوامل الفناء التي كانت تذبل مجتمعاتها كلما اجتاحتها تلك المحن كانت تعود القاهرة دائماً وتخرج من غمار تلك المصائب قوية باسمة وسرعان ما تسترد حسنها وعظمتها (٥٣)

وفي عصر قايتباي امتلأت القاهرة بمجموعة رائعة من منشآته السامية .وهي مجموعة تترك أثراً جميلاً في النفس المهذبة لما تحتوي عليهِ من عناصر الذوق الجميل . وهذه المخلفات تجتذب اليها حتى الآن محبي الفنون التي تمثل خير تمثيل فن العمارة المملوكية . ونذكر من تلك المخلفات جامع

---

(٥١) كانت للعلامة المقريزي حظوة عند الظاهر برقوق (١٣٨٢ — ١٣٩٩ م) وابنه الناصر فرج والسلاطين المنصور عبد العزيز بن برقوق ففرج فالمنصور فالمؤيد شيخ فالمظفر احمد فالظاهر تتار فالصالح محمد ابنه فالاشرف برسباي فالعزيز يوسف ابن برسباي والظاهر جقمق وكلهم من المماليك الجراكسة

(٥٢) راجع الخطط المقريزية . الجزء الثاني

(٥٣) من آثار عصر المقريزي التي زانت القاهرة وزادتها بهاء ورونقا مدرسة ايطمش وبرقوق ومسجد زين العابدين ومدرسة اينال والمحمودية ومسجد ابن عبد العزيز ومدرسة سودون وتكية برقوق وضريحه وكلية فرج وضريحه ومساجد بركة الرطلي والباسطي والحنفي والزاهد وبيمارستان المؤيد ومسجده وجامع الفخري ومدرسة تغري بردي وغيرها من المنشئات الرائعة الجمال التي تدل على ماكانت عليه حالة الفنون والعمارة من رقي وازدهار

تمرز وجامع ازبك وقصر يشبك ومدرسة قايتباي وضريحه ووكالته بالازهر وسبيله ووكالته بباب النصر والثانية بالسروجية وقبة الفداوية ومدرسة الروضة ومسجد غانم ومدرسة ابو بكر مزهر ومسجد جقمز ومدرسة ازبك اليوسفي

وفي ايام اولئك المماليك لم تقف عظمة مصر عند السلطان الحربي بل كان لها اكثر منهُ سلطان علمي وأدبي . وكانت القاهرة مركز ثقافة الشرق . وكمثل من سلطان مصر الادبي انقل الى القارىء الفقرة الآتية من كتاب الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعي « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » قال :

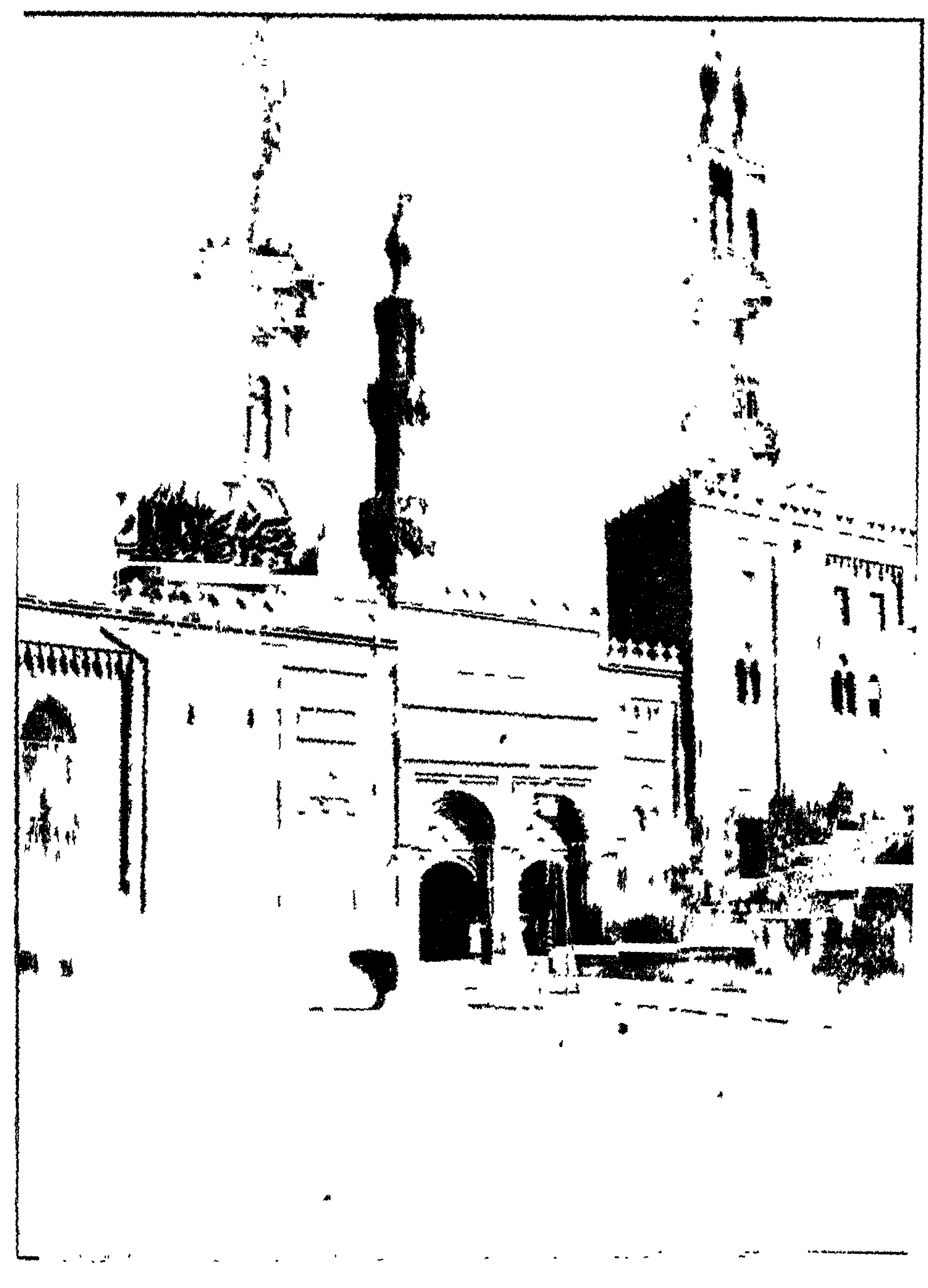
«ظلت الآداب العربية الى عهد السلاطين البحرية والبرجية والشراكسة حافظة مكانتها التي كانت لها من قبل . واليهم يرجع الفضل في انقاذ آداب العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق . فكانت مصر ملجأً للناطقين بالضاد ممن فروا امام التتار في العراق وفارس وسوريا وخوراسان . وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تينك الدولتين واستظلت العلوم والآداب العربية بحماية الملوك والسلاطين في مصر ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والادباء والعلماء . كالبوصيري صاحب البردة والسراج الوراق وابن نباتة المصري — والقلقشندي صاحب صبح الاعشى . والأبشيهي صاحب المستطرف . وابن منظور صاحب لسان العرب . وابن هشام النحوي العظيم . وابن عبد الظاهر والقسطلاني المحدث المشهور . وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع . وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الاعيان . والصفدي صاحب الوافي . وابن حجر المؤرخ امام الحفاظ والمحدثين في زمنه . والعيني المؤرخ والمحدث . وابن وصيف شاه . وابن دقماق والمقريزي صاحب الخطط والمكين ابن العميد . وابو الفداء صاحب تقويم البلدان والذهبي والنويري صاحب نهاية الأرب في فنون الادب . وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الابصار في ممالك الامصار وابن عقيل وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة . وجلال الدين السيوطي والدميري صاحب حياة الحيوان وابن اياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني . وقد استفاضت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلوم والفلسفة في الشرق كالأمام ابن تيمية وابن القيم الجوزية وابن خلدون »

وفي خلال القرن الخامس عشر لما فتح الترك مصر فقدت القاهرة أهم عنصرين في حياتها : مكانتها وسكانها . فقد نزلت عن عرشها مضطرة للاستانة متنازلة عن مقامها الروحي . وفقدت أيضاً شأنها التجاري . ولم تعد في أيام الأتراك اكثر من مدينة قديمة ذات آثار وذكريات . واستمر مركز القاهرة ثانويًّا حتى ولي الامر في مصر محمد علي . فأعاد لها مكاناً خليقاً بها بين المدن الكبيرة وأعاد الى القاهرة المجد القديم

استدراك

يستبدل التعليق الخامس بالصحيفة ١٠٠ بالآتي :

(٥) لا نظن ان حادثة اليمامة كانت سبباً في هذه التسمية التي ثبت انها ترجع الى اللاتينية Fossatum . ولعل العرب سمعوا هذا اللفظ في الشام كما سمعوه عند حصن بابليون



وجهة الجامع الأزهر

الجامع الأزهر

ليونس مهران
خريج معهد الآثار الاسلامية

الجامع الازهر

نجح الفاطميون بعد نضال عسير، في إقامة ملكهم العظيم في بلاد المغرب، وكانوا قبل ذاك قد اخفقوا في نشر دعوتهم في بلاد الشرق: الشام والحجاز وغيرهما، ولما استقروا هناك، بدأوا يتطلعون الى البلاد الاخرى الاسلامية، ينشدون توسيع املاكهم ونشر دعوتهم. وكان امر امتلاك البلاد المصرية جل آمال الخلفاء الفاطميين الاوائل وغاية رغبتهم. وقد يكون ذلك راجعاً الى حسن ادراكهم ما لموقع مصر من المكانة السياسية والحربية، « ولان ولاة مصر كانت اليهم ولاية الشام والحجاز، فكان امتلاك مصر امتلاكاً لهذين البلدين العظيمين، وتأسيس نفوذ الفاطميين، السياسي والديني، في ثلاثة من المراكز الاسلامية الكبيرة وهي: الفسطاط والمدينة ودمشق[1] » ولهذا لم يتوان الخليفة المهدي، اول الخلفاء الفاطميين، على أثر تأسيس خلافته في القيروان، في وضع الخطط لغزو مصر

وإن كان المهدي قد اخفق في حملته، كما اخفقت حملات الخلفاء الذين جاؤوا بعده. الاّ أن هذه الحملات مهّدت الطريق امام جيوش الخليفة الرابع المعز لدخول مصر، عند ما اختل امرها بعد وفاة الامير كافور الاخشيدي (١٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٧ هـ)، وكان هذا بقيادة ابي الحسن جوهر بن عبدالله (جوهر الكاتب الصقلي او الصقلبي) في يوم ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٢ يوليه سنة ٩٦٩ م)

وشرع جوهر يوم دخوله في إنشاء مدينة جديدة تكون العاصمة الجديدة الفاطمية سماها « المنصورية » [2] ثم سميت « القاهرة المعزية » لما جاء الخليفة المعز اليها في سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ — ٩٧٤م) وسمع قصة وضع أساسها

انشاء الجامع الازهر

وشرع جوهر، بعد أن أنشأ العاصمة الجديدة، في تشييد مسجد جامع بها فقد كان من عادة المسلمين في ذاك الوقت، اذا ما دخلوا أو انشأوا مدينة جديدة، أن يكون اول ما يتجه اليه نظرهم، إقامة الجامع الذي يجتمع فيه المؤمنون لاداء فريضة الصلاة واصلاح شئونهم السياسية والاجتماعية

---

(١) « الفاطميون في مصر » للدكتور حسن ابراهيم حسن » (ص ٨١)

(٢ كالمنصورية التى أنشأها المنصور بالله في شمال مدينة القيروان

ورأى الفاطميون ، من ناحية اخرى — وهم اهل شيعة — ان من حسن السياسة وبعد النظر، إقامة جامع خاص يكون موطن تعاليمهم ، وان لايفاجئوا في بدء حكمهم جوامع اهل السنة في مصر بخطبتهم التي يقولون فيها (وصل على الائمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله) فأنشأوا الجامع الازهر

وقد تعددت الاقوال عن سبب تسمية هذا المسجد « بالازهر » فيقول بعض المؤرخين أن الجامع لما بني كانت تحيط به القصور الزاهرة التي بنيت عندانشاء مدينة القاهرة فسمي «الازهر» ويقول آخرون إن تسميته بالازهر ربما كانت تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن العظيم بازدهار العلوم فيه. ولـكن ثقاة المؤرخين يقولون إنهُ لما كان الفاطميون ينتسبون الى السيدة فاطمة « الزهراء » بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد سموه « أزهر » اشارة الى اسم «الزهراء» جدتهم

الازهر مكان الدعوة الفاطمية الاولى

بعد دخول الفاطميين مصر ، زيد في الخطبة والأذان في الجامع العتيق [1] ومسجد ابن طولون [2]

ففي اليوم التاسع عشر من شعبان المعظم سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) أقيمت صلاة الجمعة بمسجد عمرو وخطب فيه للخليفة المعز وأدخلت في الخطبة : « اللهم صل على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة وسليل العزة الهادية المهدية ، عبد الله (الامام) معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين ، وأسلافه الائمة الراشدين . . . . » [1]

واشترك جامع ابن طولون في الدعوة للفاطميين . ففي يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ — ٩٧٠ م) ، أي بعد ثمانية شهور من اقامة الخطبة الاولى — التي أشرنا اليها في جامع عمرو — ، أدخل المؤذنون على الأذان بجامع ابن طولون « حي على خير العمل » ، اتباعاً لعادة الشيعيين ، وأتبع ذلك مساجد العسكر ثم جامع عمرو . فكان هذا بشرى للفاطميين بنجاح تعاليمهم

ولا شك في أن الازهر ، قد اتبع الزيادات ، التي زيدت في الخطبة والأذان في الجامع العتيق ومسجد ابن طولون منذ أقيمت الصلاة فيه ، حتى مجيء المعز الى القاهرة . ومن ثم نظمت الدعوة الفاطمية تنظيماً خاصًّا على يد الخلفاء أنفسهم . وكان المعز و عزيز يذهبان

---

(١) لما كان مسجد عمر أقدم مساجد مصر ، لان عمرو بن العاص انشأه عام ٢١ هـ ، فقد اطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع : ابن دقاق ، ج ٤ ، ص ٥٩

(٢) بناه احمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ — ٨٧٧ م) وخطب فيه لاول مرة في رمضان سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨—٨٧٩ م) : ابن دقاق ، ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢

الى الازهر للصلاة بالناس ، ويقيمان الخطبة فيه بانتظام الى ان فتح جامع الحاكم في سنة ٣٨٠هـ (٩٩٠م) فأصبحت تقام بانتظام في أربعة مساجد : عمرو ، وابن طولون ، والحاكم ، والازهر ، على التوالي

وكان الازهر ومناراته يزين بزينة فاخرة في أيام الفاطميين ، وينار بالانوار الساطعة في المواسم العامة ، حتى أنشأ المعز منظرة في قصره سماها « منظرة الجامع الازهر » يشاهد منها الزينات والانوار (٢)

قد كتب المؤرخ أبو المحاسن في كتابه « النجوم الزاهرة » عن صلاة الخلفاء بالجامع الازهر : « اذا أراد الخليفة ان يخطب يتقدم متولي خزانة الفروش الى الجامع ويغلق المقصورة التي برسم الخليفة والمنظرة وأبواب مقاصرها ، ثم يركب متولي بيت المال وعلى يد كل واحد منهما تعليق وفرشه ، وهي عدة سجادات مفروزة منطقة وبأعلاها سجادة لطيفة لا تكشف الا عند توجه الخليفة الى المحراب ، ثم يفرش الجامع بالحصر ثم يطلق البخور ، ويغلق أبواب الجامع ، ويجعل عليها الحجاب ، والبوابون ، ولا يمكن أحد ان يدخله الا من هو معروف من الخواص والاعيان . فاذا كان حضور الخليفة الى الجامع ، ضربت السلسلة من ركن الجامع ولا يمكن أحد من الترجل الا عندها . ثم يركب الخليفة ويسلم لكل واحد من مقدمي الركاب في الميمنة والميسرة أكياس الذهب والورق والفضة ، سوى الرسوم المستقرة والهبات والصدقات في طول الطريق ، ويخرج الخليفة والمظلة بمشدة الجوهر على رأسه وعلى الخليفة الطيلسان فعند ذلك يستفتح المقرءون بالقراءة في ركابه بغير رهجية والدكاكين مزينة مملوءة بأواني الذهب والفضة فيسير الخليفة الى ان يصل الى وجه الجامع ووزيره بين يديه ، فتحط السلسلة ويبقى الخليفة راكباً الى باب الجامع الازهر الذي تجاه درب الاكراد ، فينزل ويدخل من باب الجامع الى الدهليز الاول الصغير ، ومنه الى القاعة المعلقة التي كانت برسم جلوسه ، فيجلس في مجلسه وترخى المقرمة الحرير ويقرأ القارئون وتفتح أبواب الجامع حينئذ . فاذا وجب الاذان ، أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة ، ورئيس الجامع على باب المنبر ، وبقية المؤذنين من المآذن . فعندما يسمع قاضي القضاة الاذان يتوجه الى المنبر فيقبل أول درجة وبعده متولي بيت المال ومعه المبخرة وهو يبخر ايضاً . ولايزالان يقبلان درجة بعد أخرى الى ان يصلا ذروة المنبر فيفتح القاضي بيده التزرير ويرفع الستر ويتناول من متولي بيت المال المبخرة وهو يبخر ايضاً ثم يقبلان الدرج ايضاً وهما نازلان بظهورهما ، وبعد نزولهما ، يخرج الخليفة والقارئون بين يديه بتلك الاصوات الشجية ، الى أن يصل الى المنبر ويصعد عليه ، فاذا صار

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفاء : (ص ٧٥ — ٧٦)
(٢) المقريزي : خطط (ج ٢ ص ٢٧٣)

باعلاه ، أشار للوزير بالطلوع فيطلع اليه فيقبل الدرج حتى يصل اليه فيزر عليه القبة ثم ينزل الوزير ويقف على الدرجة الاولى ويجهر المقرئون بالقراءة ، ثم يكبر المؤذنون ثم يشرعون في الصمت، ويخطب الخليفة حتى اذا فرغ من الخطبة طلع اليه الوزير وحل الازرار فينزل الخليفة ، وعن يمينه الوزير ، وعن يساره القاضي ، والداعي بين يديه ، والقاضي والداعي هما اللذان يوصلان الأذان الى المؤذنين ، حتى يدخل المحراب ، ويصلي بالناس ويسلم ، فاذا انقضت الصلاة أخذ لنفسه راحة بالجامع ، بمقدار ما يعرض عليه الرسوم ويفرق الاحسانات ، وهي للنائب في الخطابة ثلاثة دنانير ، وللنائب في الصلوات الخمس ثلاثة دنانير ، والمؤذنين أربعة دنانير ، ولمشارف خزانة الفراش وفراشها ومتوليها لكل ثلاثة دنانير.... » (١)

واصبح الازهر مكاناً لبث التعاليم الفاطمية ونشرها . ومن المظاهر الجديدة التي عرفت ، انهُ لما مات بعض بني عم المعز ، صلى عليه الخليفة في الجامع الازهر ، وكبر عليه سبعاً ، ولما مات ميت آخر ، كبر عليه خمساً فقط ، فاقتدى بذلك اثر ابن أبي طالب ، الذي كان يكبر على الميت بحسب مكانته ، وهذا يخالف مذهب أهل السنة ، اذ يكبرون على الميت اربعاً فقط (٢)

الازهر بعد الفاطميين

وتغير الحال في عهد الايوبيين ، أهل السنة . فقد حاولوا محو كل أثر للفاطميين ، اهل الشيعة فأوقف صلاح الدين الخطبة من الازهر وأقرها بالجامع الحاكمي ، لأنهُ يفوقهُ سعة ، كما أنهُ قطع عن الازهر كثيراً مما اوقفهُ عليه الحاكم (٣)

واستمر الازهر معطلاً من اقامة خطبة الجمعة فيه نحو قرن من الزمن، وكانت يدي الحكام والامراء المغتصبين تمتد الى اوقافه واموا له ، والاهمال يعتريه حتى كادت تنهار جدرانه و ركنه ، فلما تولى الملك السلطان الظاهر بيبرس اهتم بأمره فزاد في بنائه ، وشجع التعليم فيه . وأعاد اليه الخطبة في عام ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ — ١٢٦٧ م) (٤)

وسارت سياسة الامراء بعد ذلك على اصلاح الازهر وتوسيع اختصاصاته واتخاذ الزيادات في بنائه كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ١٠٢ — ١٠٤ (٢) المقريزي : خطط ج ٢ ص ٣٥٣

(٣) يقول المقريزي ان السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب [illegible] وظيفة قضاء القضاة [illegible] الدين عبد الملك بن درباس فعمل بمقتضى مذهبه الشافعي، وهو امتناع [illegible] الامام الشافعي ، وبطل [illegible] من الازهر وأقرها بالجامع الحاكمي [illegible] مساحة الازهر ١٣٠٠٠ ذراع ومساحة الجامع الحاكمي ٣٦٠٠٠ ذراع

(٤) Van Berchem Corp. Inscr. Arab. ج ١ رقم ١٢٨

في عمارة الازهر

ما كادجوهر الكاتب يضع أساس القاهرة حتى شرع في بناء الازهر في اليوم الرابع والعشرين من شهر جمادي الاولى سنة ٣٥٩ ھ (ابريل سنة ٩٧٠ م) . وتم بناؤه وفتح للصلاة في يوم الجمعة السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ ھ (يونيه ٩٧٢ م) [١] ولم يكن بمصر من المساجد الكبرى سوى اثنين : جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والجامع الازهر يعتبر أقدم أثر باق للعمارة الفاطمية في الديار المصرية

وقد بني المسجد في الجنوب الشرقي من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذي كان حينذاك بين حي الديلم في الشمال وحي الترك في الجنوب . وليس من السهل ان نعرف الرسم الاصلي للجامع عند بنائه ولا أن نصف تماماً جدرانه ومبانيه وأجزاءه ، فانهُ لا يوجد في الواقع مصادر تبين لنا تصميمه الأول ومع ذلك فيمكننا أن نقول ان الجامع كان يتكون من رواق ذي خمس بلاطات ، تسير من الشمال الى الجنوب ، وكان على الجانبين ، يميناً وشمالاً ، رواقان من ثلاث بلاطات . أما في الجهة المقابلة لحائط القبلة (المحراب) فكان بالرواق بلاطة واحدة . ويتوسط رواق القبلة « بلاطة » رئيسية Transept [٢] يسير من الصحن الى القبلة وتقف البلاطات الخمس على جانبيه بمسافة قليلة . وأقيمت قبة في الرواق الاول (من ناحية حائط القبلة) على بمنة المحراب والمنبر [٣] ويقول المقريزي انهُ لما ارتفع بناؤها كتب على دائرتها :

« البسملة ، مما أمر ببنائهِ عبد الله ووليهِ أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليهِ وعلى آبائهِ وأبنائهِ الاكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي ، وذلك في سنة ستين وثلاثمائة » [٤] غير ان هذه الكتابة زالت منذ أمد بعيد

ويقول المقريزي في خططهِ ايضاً انهُ كان ببناء الازهر الاول طلسم ، حتى لا يسكنهُ طير ولا يفرخ فيه ، عبارة عن صورة ثلاثة طيور ، منقوشة كل صورة على رأس عمود . فكان فيها

---

(١) المقريزي : خطط (ج ٢ ص ٢٧٣)

(٢) و (٣) من خصائص العمارة الفاطمية ، التي دخلت مصر مع الفاطميين من شمال افريقية ، انشاء مثل هذه البلاطة الوسطى الرئيسية transept واقامة قبة بالرواق الاول على بمنة المحراب والمنبر . وكان أول استعمال هاتين الخاصتين في الجامع الازهر ثم في الجامع الحاكمي

(٣) المقريزي : خطط ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ ھ ، ج ٤ ص ٤٩ Corp. Inscr. Arab. Van Berchem ج ١ ، ص ٤٣ رقم ١٠

صورتان في مقدمة الجامع بالرواق الخامس : منها صورة في الجهة الغربية ، وصورة في أحد العمودين الذين على يسار من استقبل سدة المؤذنين، والصورة الاخرى في الصحن في الاعمدة القبلية مما يلي الشرقية

وقد أُدخل على بناء الازهر كثير من الزيادات حتى اصبحت مساحتهُ الآن حوالي ٢٦٣٣٣ ذراعاً (١٢ الف متر مربع) . واول من زاد في بنائه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٨٦— ٤١١ ه (٩٩٦ — ١٠٢٠ م) . وقد زاد ايضاً في اوقافه التي اوقفها أبوهُ الخليفة العزيز من قبله . ويحدثنا المقريزي أن الحاكم اوقف على الازهر وعلى الجامع الحاكمي وغيرهما رباعاً بمصر ، وضمن ذلك في كتاب ، وجعل ايضاً ، للجامع الازهر ، تنورين وسبعة وعشرين قنديلاً من فضة ، وشرط أن تعلق في شهر رمضان ، وتعاد الى مكان جرت العادة ان تحفظ فيه [(١)]

وجدده المستنصر بالله معدّ بن الظاهر لاعزاز دين الله (٤٢٧— ٤٨٧ ه (١٠٣٦ - ١٠٩٣م) وسار على خطته حفيده المنصور ابو علي الآمر باحكام الله . وقد صنع للازهر على يد الآمر من عام ٥١٩ ه (١١٢٥ م) محراب من الخشب ، يعلوه لوح خشبي كتب عليه :

« بسم الله الرحمن الرحمن ، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، أمر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الازهر سيدنا المنصور أبو علي الامام الآمر باحكام الله »[(٢)]

وفي عام ٥٢٤ ه (١١٣٠ م) جدد الحافظ لدين الله عبد المجيد بعض أبنية في الازهر ، وأنشأ فيه مقصورة جميلة ، عرفت بمقصورة « فاطمة » لأنهُ قيل أن فاطمة « الزهراء » رضي الله عنها ، رؤيت بها في المنام وكانت بجانب الباب الغربي الذي في مقدم الجامع بداخل الرواقات

وانتهى عهد الفاطميين وجاء الايوبيون فلم يعنوا بأمر الازهر ، وترك هذا المعبد مهملاً نحو قرن من الزمان ، حتى جاء السلطان المصلح العظيم الظاهر بيبرس البندقداري فاهتم بشأنه ، وزاد في بنائه ، وقدم اليه الهبات الوافرة ، وأعاد اليه في سنة ٦٦٥ ه (١٢٦٦ — ١٢٦٧م) الخطبة التي كان قد أبطلها الايوبيون

وفي عام ٧٠٢ ه (١٣٠٢ -- ١٣٠٣ م) خرب مصر زلزال عنيف . فسقط الجامع الازهر والجامع الحاكمي وجامع عمرو وغيره. واهتم امراء الدولة بتجديد هذه الجوامع ، وكان الازهر

(١) المقريزي : خطط ١ ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ ؛

(٢) هذه التحفة لا تزال محفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة الى الآن

من نصيب سلار (من رجال دولة المماليك البحرية) فجدد مبانيه واعاد ما تهدم منها

وفي سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥م) جدد الجامع على يد محتسب القاهرة محمد بن حسن الاسعردي (من سعرد في ارمينية) . وحوالي هذا العهد بنى الاميران طيبرس وأقبغا عبد الواحد مدارس بالقرب من الازهر . فبنى الامير علاء الدين طيبرس الخازنداري — نقيب الجيوش — المدرسة الطيبرسية عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٩ — ١٣١٠ م) ، وبنى الامير اقبغا عبد الواحد المدرسة الاقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) . وقد الحقت هاتان المدرستان بالازهر فيما بعد وما زالتا جزءا منهُ الى الآن

وفي عام ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) كان يسكن بجوار الازهر الامير الطواشي سعد الدين بشير الجمدار الناصري ، فرغب هذا الامير ، أن يقوم بتجديد الازهر لعل هذا يكون ذكراً طيباً من بعده . فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فسمح له بذلك . فقام الجمدار الناصري بتحسينات كثيرة في الازهر ، ورتب فيه مصحفاً ، وجعل له قارئاً ، ورتب للفقراء طعاماً يطبخ كل يوم ، ورتب فيه درساً للفقهاء من الحنفية ، ووقف على ذلك اوقافاً جليلة

وفي سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ — ١٣٩٨) سقطت منارة الجامع فأعاد بناءها الظاهر ابو سعيد برقوق بن آنصل وانفق عليها من ماله الخاص . غير ان هذه المنارة لم تدم طويلاً ، فقد سقطت في ٨١٧ هـ (١٤١٤ — ١٤١٥ م) ، ثم في عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ - ١٤٢٤ م) ، وكان يعاد اصلاحها في كل مرة . وقد انشأ السلطان برقوق صهريجاً للماء في صحن الجامع ، وعمل فوقهُ مكاناً مرتفعاً له قبة ويسيل فيه الماء ، وأقام ايضاً ميضأة

وشيد الطواشي جوهر القنقبائي المتوفى عام ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ — ١٤٤١ م) المدرسة « الجوهرية » بالقرب من المسجد ، عند الباب الشمالي الصغير تجاه زاوية العميان ، وبداخلها مدفن لمنشئها

ويعتبر الملك الاشرف ابو النصر قايتباي المحمودي (٨٧٢—٩٠١ هـ =١٤٦٧ —١٤٩٦م) المصلح الكبير للازهر في القرن التاسع الهجرى ، فقد أحدث تجديداً ظاهراً في المسجد ، فأنشأ الباب المسمى « باب المزينين » والمنارة التي هناك وفسقية وسبيلاً وصهريجاً وميضأة . وبنى على باب الجامع مكتباً ، ونقش في الحجر على الباب ، بعد كتابة كوفية صعبة القراءة : « إنما الأعمال بالنيات . ولكل امرىء ما نوى ، لا إله الا الله محمد رسول الله ، نصرٌ من الله وفتح قريب ، (بسملة) ، أمر بانشاء هذا الباب والمئذنة الشريفة مولانا السلطان الأشرف قايتباي بتاريخ شهر رجب الفرد ثلاثة من سنة . . . . »

(١) المقريزي : خطط (ج ٢ ص ٢٦٧)
(٢) انظر علي باشا مبارك : الخطط الجديدة (ج ٤ ص ١٩٦)

ولايزال اسم قايتباي على أحد المحاريب وبعض الشبابيك . ويقال ان رواق الشوام ورواق الاتراك من انشائه . ويشير ابن إياس (ج ٢ ص ١٦٧) الى ان هذا السلطان كانت لهُ عادة غريبة ، فقد كان يذهب الى الجامع الازهر متخفياً في زي مغربي للصلاة ولسماع ما يقوله الناس عنهُ

وفي عام ٩٠٤ هـ (١٤٩٩ م) رتب السلطان أبو سعيد قنصوه الأشرف — خال الناصر محمد بن قايتباي — الخبز والخزيرة (عصيدة باللحم) في الازهر في أيام شهر رمضان . ولما جاء الملك الاشرف قانصوه الغوري (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ = ١٥٠٠ — ١٥١٦ م) ضاعف الاحسان في شهر رمضان وبنى المنارة العظيمة ذات الرأسين المعتبرة داخل باب المزينين

وفي عهد العثمانيين ضعف شأن الجامع قليلاً ، ولكننا نلاحظ مع هذا بعض مظاهر الرعاية له ، فقد زاره السلطان سليم خان الاول كثيراً ، وصلى فيه ، وأمر بتلاوة القرآن فيه ، وتصدق على فقراء المجاورين . ويلاحظ ان طراز المباني التي أقيمت في العهد العثماني يدل على انها أقل شأناً مما تقدمها

وفي عام ١٠٠٤ هـ (١٥٩٥ — ١٥٩٦ م) جدد الشريف محمد باشا والي مصر (في عهد السلطان محمد الثالث من ملوك العثمانيين) الازهر ورتب للطلبة والفقراء طعاماً يطبخ كل يوم فأقبل عليه الطلاب من جميع البلاد

وفي سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) اوقف عليه محمد باي بن مراد باي حاكم ولاية تونس اوقافاً جليلة وجدد الامير اسماعيل بك القاسمي ، ابن ايواظ بك القاسمي ، المتوفي سنة ١١٣٦ هـ (١٧٢٣ م) سقف الجامع وكان قد آل الى السقوط

وفي سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) بنى الامير عثمان كتخدا القزدوغلي زاوية يصلي فيها العميان وسميت « زاوية العميان » وجدد رواق الاتراك ورحبته ورواق السليمانية (الافغانيين)

وفي سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) عمل احمد باشا كور والي مصر مزاول لمعرفة المواقيت ووضع إحداها في ركن صحن الازهر على يسار الداخل فوق رواق معمر

وفي سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) أجرى الامير عبد الرحمن كتخدا بن حسن جاويش القزدغلي (المتوفى سنة ١١٩٠ هـ = ١٧٧٦ م) في الازهر عمارات وخيرات عظيمة فزاد في سعة الجامع بمقدار النصف تقريباً ، إذ بنى مقصورة وأحسن تأثيثها ، وأقام قبلة للصلاة ، ومنبراً للخطابة ، وأنشأ مدرسة لتعليم الايتام وعمل صهريجاً للمياه ، وشيد له قبراً دفن فيه . وتصدق على فقراء المجاورين بالطعام والكساء . يقول الجبرتي ان هذه المقصورة في الجامع مقدار النصف طولاً وعرضاً ، ويشتمل على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقصورة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت وسقف اعلاها بالخشب النقي وبنى به محراباً جديداً ومنبرا . وأنشأ

لهُ باباً عظيماً جهة كتامة (المعروفة بالدوداري) وهو المشهور بباب الصعايدة، وبنى بأعلاه مكتباً لهُ قناطر معقودة على أعمدة لهُ من الرخام لتعليم الايتام من اطفال المسلمين القرآن الشريف وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيماً وسقاية لشرب العطاش ، وعمل لنفسهِ مدفناً بتلك الرحبة وجعل عليهِ قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنع منقوش عليها اسماء العشرة المبشرين بالجنة ووصفاً للنبي عليهِ الصلاة والسلام وبعض الاشعار ، وعليها ايضاً اسماء اهل الكهف وكتابات اخرى

وبنى امام المدفن المذكور رواقاً مخصوصاً بمجاوري الصعايدة المنقطعين لطلب العلم، وبهِ مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب .. وبنى بجانب ذلك الباب منارة ، وأنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع (وهو المشهور بباب الشوربة) وجعل أيضاً عليهِ منارة وجدد المدرسة الطيبرسية وجعلها مع المدرسة الاقبغاوية المقابلة لها من باب المزينين الكبير الذي أنشأه خارجهما جهة القبو الموصل الى شارع السكة الجديدة بجوار المشهد الحسيني . وهذا الباب مؤلف من بابين عظيمين كل باب بمصراعين . وجعل على يمينهِ منارة [1] وفوقهُ مكتب .وبداخله ميضأة ، ووراء ذلك درج المنارة ورواق البغداديين والهنود . وقد جاء هذا الباب الكبير وما بداخله من المدرسة الطيبرسية والاقبغاوية والاروقة من احسن المباني في العظم والفخامة وزاد في رواق الشوام ووقف عليهِ ، وجدد رواق المكيين والتكروريين وأجرى زيتاً للمصابيح وزاد في مرتبات الجامع وأخبازه ولا سيما في يومي الاثنين والخميس فضلاً عما رتبه لرمضان من وسائل الرفاهة والترسيع، فكان مجموع ما عمله في الازهر مما تقصر عنه همم الملوك

ويقول علي باشا مبارك : « الشائع ان السبب في اجراء هذا الخير العظيم على يد الامير كتخدا هو الشيخ علي العدوي شيخ رواق الصعيد بالازهر ، حتى ان الامير كتخدا — لحبه بالصعايدة من اجل الشيخ العدوي — جعل مدفنه بجوار هذا الرواق . وكان اكابر الازهر يتخذون هذا المدفن مجلساً يجتمعون فيه للمفاوضة والتشاور في المهمات »

ويقول الجبرتي إنه في زمنه ، اي حوالي سنة ١٢٢٠ هـ(١٨٠٥م) اصبح اكثرها منسياً.

وفي عام١٢٩٦هـ (١٨٧٨ — ١٨٧٩م)جدد الخديوي الاعظم محمد توفيق باشا نحو ثلث المقصورة القديمة مما يلي باب الشوام ، وأصلحت المدرسة الاقبغاوية التي فيها دار الكتب الازهرية

وفي عصر الخديوي عباس باشا حلمي الثاني اجريت كثير من الانشاءات والترميمات في الازهر . ففي سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢ —١٨٩٣م) جدد صحن الازهر وما بدائرتيه من البواكي ودرابزينات المقصورة القديمة ، وأصلح باب المزينين وطرقه ، والمدرسة الطيبرسية والاقبغاوية . وأنشئت دار الكتب الازهرية الكبرى في المدرستين المذكورتين في سنة ١٣١٤هـ(١٨٩٦ —١٨٩٧م)

---

(١) ازيلت هذه المئذنة سنة ١٣١٥ هـ

وفي يوم ٢٤ شوال سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) احتفل بافتتاح الباب العباسي والرواق العباسي . وفي ايام الخديوي المذكور ادخل نور الغاز بالازهر وابطلت وقدته بالزيت وأجري كثير من العمارات ببعض أروقة الازهر خصوصاً المتصلة بالسور الجنوبي

ومما يجب ذكره أن الامراء والملوك ، كانوا يبذلون المال والجهود في تكبير هذا الجامع وتحسينه ابتغاء مرضاة الله . وقد قيل ان الامير طيبرس مشيد المدرسة الطيبرسية لما احضر اليه القائمون بامر بنائها حساب نفقتها استدعى بطست مملوء بالماء وغسل اوراق الحساب بأسرها من غير ان يقف على شيء منها وقال « شيء خرجنا عنهُ لله تعالى لا نحاسب عليه »

وقد وصف علي مبارك باشا (الخطط الجديدة ، ج ٤ ص ١٤ — ٢٦) وصفاً دقيقاً بناء الازهر الحالي . وهو يفصل القول في ابعاد البناء . وفي كلامه عن الابواب ، والمحاريب ، والقبلات ، ودورات المياه ، وأماكن الوضوء ، وصحن المسجد ، ومناراته ، ومزاوله ، والاروقة والحارات ، وصهاريج المياه ، والمدرستين اللتين اسلفنا ذكرهما . وقد ذكر فرانز باشا في كتابه (القاهرة ، ١٩٠٣ ص ٢١ وما بعدها) كثيراً من التفصيلات التي تهم الاثري مثل بوابة قايتباي وقبلة المدرسة الطيبرسية وغيرها

وللازهر الآن ثمانية أبواب : ففي الجانب الغربي الخارج الى ميدان الازهر بابان : (١) باب المزينين [1] وهو باب شامخ عظيم من زيادات الامير كتخدا . (٢) والباب العباسي [2] وفي الجانب الجنوبي باب المغاربة [3] ، وباب الشوام [4] ، وباب الصعايدة [5] وفي الجانب الشمالي باب الجوهرية [6] وفي الجانب الشرقي باب الحرمين (وهو مقفل) [7] ، وباب الشوربة [8]

وتسمو فوق اسوار الجامع وابوابه خمس منارات : ثلاث من داخل باب المزينين مشرفة

---

(١) الباب الاصلي وخلف هذا الباب وكان يجلس المزينون عنده لحلق رؤوس المجاورين فعرف الباب بتلك التسمية

(٢) احدثته نظارة الاوقاف في عهد الخديوي عباس الثاني عند تأسيس الرواق العباسي

(٣) تجاه درب الاتراك والتوصل منه الى صحن الجامع بعد المرور من رواق المغاربة ورواق السنارية والاتراك

(٤) ويسلك منه الى المقصورة القديمة

(٥) من انشاء الامير عبد الرحمن كتخدا ويتوصل منه بعد رواق الصعايدة ومدفن الكتخدا الى المقصورة الجديدة

(٦) باب صغير تجاه زاوية العميان ويسلك منه الى المقصورة الجديدة بعد المرور في المدرسة الجوهرية وهو من انشاء جوهر القنقبائي

(٧) من انشاء الكتخدا

(٨) من انشاء الكتخدا ويتوصل منه الى المقصورة الجديدة وسمي كذلك لقربه من مطبخ الشوربة الذي كان يطبخ فيه الارز في رمضان ويوزع على فقراء الجامع

على صحن الجامع ، احداها منارة الاقبغاوية [١] (عن يسار الداخل الى الصحن) واثنتان عن يمين الداخل ، مئذنة قايتباي [٢] ، ومئذنة قانصوه الغوري [٣] وهي اعلى مناراته واعظمها فخامة

والمئذنة الرابعة بجانب باب الصعايدة ويتوصل اليها من رواق الصعايدة . والمئذنة الخامسة بباب الشوربة ، وكلتا المنارتين الاخيرتين من انشاء الامير عبد الرحمن كتخدا . ولا يؤذن عادة على تلك المآذن الا العميان حتى لا تقع انظار المؤذنين على سكان المنازل

وحرم الجامع (مكان الصلاة) ينقسم الى رواقين

(١) الرواق الكبير وهو القديم ويلي الصحن ويمتد من باب الشوام الى رواق الشراقوه

(٢) الرواق الجديد [٤] ويلي الرواق القديم ويرتفع عنهُ بنحو نصف ذراع ونصل اليه بدرجتين

وسقف الرواقين من الخشب المتقن الصنع ، ترتكز الباكيات على اعمدة من الرخام الابيض الجميل وهي من طرز مختلفة اما الباكيات المحيطة بالصحن فترتكز على اكتاف ويلاحظ ان العقود دقيقه الزاوية Pointed Arch

ويحيط بالصحن طرقة مسقوفة نعتقد انها أدخلت حديثاً في القرن الثاني عشر الهجري . اما عقود باكيتها التي تطل على الصحن فمن النوع الفارسي Keel Arch وهو الذي يقول عنهُ كثير من المؤرخين انهُ من خصائص العمارة الفاطمية في عصرها الاول وانهُ دخل عليها من بلاد الفرس . والواقع ان هذا لا ينطبق على الحقيقة اذ ان العقود الفارسية دخلت مصر في اواخر عصر الفاطميين واوائل عصر الايوبيين ، ولو انها دخلت مصر في العصر الاول للفاطميين (كما يقول المؤرخون) لكانت قد استعملت في باكيات الجامع الحاكمي او في زاوية الجيوشي

وكان في الازهر سبع مزاول ، اربع في صحنه لمعرفة وقت الظهر على يمين الداخل من باب المزينين ، وثلاث جهة رواق معمر لمعرفة وقت العصر

وكان للجامع عشرة محاريب ازيل منها اربعة وبقي الآن ستة

ففي الرواق الجديد محرابان : المحراب الكبير المقام عليه قبة مرتفعة قائمة على ستة أعمدة وأمامه مالكي المذهب ، ومحراب صغير عن شمال المنبر يعرف بقبلة الشيخ الدردير . وفي الرواق القديم محراب واحد ويعرف بالقبلة القديمة [٥] وعليه قبة قديمة مرتفعة ، وامام هذا

---

(١) أنشأها الامير علاء الدين آقبغا [illegible] الاقبغاوية

(٢) أنشأها السلطان الاشرف قايتباى

(٣) أنشأها السلطان الغوري

(٤) أنشأه الامير عبد الرحمن كتخدا في سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣م)

(٥) في الواقع ليس هذا المحراب محراب الجامع القديم الاصلي

المحراب شافعي المذهب . وكان في الرواق القديم محراب بالقرب من باب الشوام وكان يعرف في الزمن الأخير بقبلة الشيخ البيجوري شيخ الاسلام . وكان بالقرب من رواق الشراقوه قبلة صغيرة من خشب تعرف بقبلة الخطيب الشربيني وكان عليها كتابة تدل على انها عملت في سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) . وكان في صحن الجامع أربعة محاريب صغار بظاهر المقصورة : محراب يلي رواق معمر ، ومحرابان يكتنفان باب المقصورة الأوسط ، ومحراب عند الباب الثالث ، ومحراب صغير من القاشاني عند رواق الأتراك

وفي دار الآثار العربية بالقاهرة الآن المحراب الذي أنشأه الخليفة الآمر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ولوح الخشب الذي كان يعلوه كما ذكرنا في أول كلامنا عن «عمارة الازهر»

وللجامع منبر واحد ، وهو من الخشب المخروط الجميل الصنع . وله خطيب واحد يخطب في الجمع والاعياد (وهو غير الامامين المخصصين لمحرابي الرواقين القديم والجديد) . وهذا المنبر حديث [1] ، وكان في الاصل بالرواق القديم فنقله الامير كتخدا الى المقصورة الجديدة عند ما أنشأها

ومما يسترعي النظر مجموعة من زخارف الجص الاصلية باقية في الأماكن الآتية من الاروقة

(١) على العقود الاربعة الاولى من الجناح (البلاطة) الكبير الموصل من الصحن الى القبلة

(٢) حول النوافذ (المقفلة الآن) ، التي لا نزال نراها ، في الاجزاء الباقية من جدار حائط القبلة الاصلية

(٣) على العقود الخمسة الأولى من الركن الشمالي الشرقي . ويلاحظ أن وجه الجدار في هذه الناحية محلى بكثير من الزخارف الجميلة مما لا نراه في كثير من الجوامع

(٤) زخارف تحلي الحائط الداخلي للبلاطة التي تلي الصحن ، ويلاحظ ان هذه الزخرف تختلف في الرسم والترتيب . فهي في بطن العقود الثلاثة من كل طرف متشابهة تقريباً ، أما العقود الثلاثة عشر الوسطى فالجزء الواقع فوق الأكتاف محلى بلوحة مستديرة ذات زخارف جميلة تختلف عن زخارف بطن هذه العقود

حرمة الأزهر وقداسته

وكان للأزهر حرمة وقداسة في النفوس . يدلنا على ذلك ما روي من أنه كان مقصد اللاجئين في القرون الوسطى [2] وكان يتلى في الجامع الازهر جزءاً من القرآن أو من البخاري دفعاً للأوباء أو المجاعات [3]

---

(١) المنبر الاصلي القديم نقل الى الجامع الحاكمي (٢) ابن اياس (ج ٢ ص ٢٦٢ و ج ٣ ص ١٠٦)
(٣) ابن اياس (ج ٢ ص ١٧٧ و ج ٣ ص ١٠٦ و ١٣٢ و ١٦٧)

في سنة ٧٩٨ ﻫ (١٣٩٥ — ١٣٩٦ م) حصلت مجاعة بمصر فذهب سراج الدين البلقيني (عمر بن رسلان) الى الأزهر وصلى فيه[1] وفي عام ١١٧٢ ﻫ (١٧٥٨ — ١٧٥٩ م) سأل المجاورون شيخهم أن يقرأ لهم درساً في البخاري عسى الله ان ينقذ القاهرة من شر الطاعون[2] ويذكر بعض المؤرخين أن اتباع محمد بك الالفي — من أمراء المماليك — ظلموا أهل قرية بلبيس فجاء أهلها صارخين ملتجئين الى الازهر فقام شيخه وعلماؤه وذهبوا الى ابراهيم بك — وهو حاكم القطر المصري وقتئذٍ — وطلبوا منهُ رفع المظالم . وبعد أخذ وعطاء استقر القرار على رفع المظالم . وأن يكف الامراء وأتباعهم عن مد أيديهم لاموال الناس ويسيروا في الناس سيرة حسنة . وكتب القاضي حجة بذلك . . . .

وهناك حادث آخر وهو انهُ في عام ١٢٢٠ ﻫ (١٨٠٥ م) أكل العساكر الدلاتيه (نوع من عساكر الترك) الزرع وخطفوا ما صادفهم من الفلاحين والمارين وأخذوا النساء للافساد . فحضر الناس رجالاً ونساء الى الجامع الازهر يستغيثون. فخاطب المشايخ الباشا والي مصر في ذلك . فكتب للدلاتيه بالاقلاع عن ذلك

وكما كان الأزهر ملجأً فانهُ كان دار للتقوى والعبادة . يروي ابن اياس (ج ١ ص ٨١ . س ٣) أن عمر بن الفارض الصوفي كان مقيماً بهِ . كذلك كان ايضاً داراً للفقراء والمعوزين ، فقد انشئت فيهِ كثير من المنشآت للفقراء والمتصوفة والزهاد وأهل التقوى والصلاح . ولكن يظهر ان كثيراً من الاشرار لجئوا الى الازهر تحت ستار التقوى ويقال ان بعض الاشرار كانوا يتسربون الى الازهر في ليالي الموسم فيرتكبون فيهِ السرقات والمنكرات.ولهذا نجد ان الامير سودوب الذي ولي نظارة هذا الجامع عام ٨١٨ ﻫ (١٤١٥ — ٤١٦ م) قد أجلى عنهُ المقيمين فيهِ من المجاورين وأهل السبيل والكسالى ، هم وما يملكون من متاع . ولكن ثارت عليهِ ثورة الاتقياء ، كما تغير عليهِ السلطان المؤيد فقبض عليهِ وسجنه في دمشق[3] ويشايع المقريزي ، في كتابه ، أهل التقوى فيقول ان ما حل بسودوب كان جزاءً وفاقاً من الله على فعلتهِ . وهنا يتحدث عن الصدقات الكثيرة والهبات الجمة التي كانت تنفق على الازهر ويقول انهُ كان بين الفقراء عجم وزيالعة وأناس من أهل ريف مصر ومن المغاربة ولكل طائفة منهم رواق

---

(١) ابن اياس (ج ١ ص ٣٠٦ و ٣٠٨)

(٢) علي باشا مبارك : خطط (ج٤ص ٣٤ س٣)

(٣) دائرة المعارف الاسلامية

الازهر جامعة عالمية

لاشك في ان الازهر أشهر جامع بين جوامع الاسلام ، وأعظم معهد للعلوم الاسلامية ، تقصده الوفود من جميع انحاء المعمورة الاسلامية لتعلم العلم الذي أمرهم دينهم الحنيف بطلبه ولو بالصين . وهو مجتمع للمسلمين يجتمعون فيه،ويتعاشرون سنين مع تفرق جنسياتهم واختلاف بلدانهم

ويقول المقريزي إن اول ما درس في الازهر الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة . ففي صفر عام ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) جلس قاضي مصر (أبو الحسن عليّ بن النعمان بن محمد بن حيّون) بجامع القاهرة المعروف بالجامع الازهر وأملى مختصر أبيه في الفقه عن اهل البيت . ويعرف هذا المختصر (بالاقتصار) وكان جمعاً عظيماً . وأثبت اسماء الحاضرين

واستمر الحال على ذلك حتى جاء الخليفة العزيز بالله ابن المعز الفاطمي . وكان هو ووزيره ابو الفرج يعقوب ابن كلس من فحول العلماء . فاختار خمسة وثلاثين عالماً وجعلهم مدرسين في الازهر ، واذا كان يوم الجمعة حضروا اليه وتحلّقوا فيه لقراءة الفقه على مذهب الفاطميين ، وكانوا شيعة اسماعيلية ، ودراسة الحكمة وعقائد الدين وفنون الادب وقد ابتنى لهم الخليفة العزيز منازل حول الجامع [١] ، يسكنون فيها وأجرى لكل واحد منهم رزقاً معلوماً كما كان يخلع عليهم في عيد الفطر وفي غيره من المناسبات . بذلك كان العزيز أول من حول الازهر الى جامعة واول من ابتنى بجواره مساكن لسكنى طلبته ويجب ان نذكر في هذا المقام ان اليد الفعالة التي كانت تقوم بكل هذه الاصلاحات هي في الواقع لوزيره يعقوب بن كلس الذي كان يدين باليهودية اولاً ثم تحول عنها الى الاسلام

واول من وقف الاوقاف على الازهر هو الحاكم بامر الله . ولقد نقل هذا الخليفة الكتب التي كانت بدار الحكمة ، الى مساجد الازهر ، والحاكم ، والمقس . فخص الازهر منها بما يقرب من النصف . وسار الخلفاء الفاطميون على سنة اعلاء شأن الجامعة الازهرية حتى جاء الايوبيون فأهملوها . ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس عرش مصر خصّ الازهر بعنايته واتخذه معهداً للعلم وزاد في اوقافه . ومنذ ذلك الحين ابتدأ الازهر يدخل في عهد جديد من التقدم والرقي ، حتى صار الطلاب يهرعون اليه من كل ارجاء العالم الاسلامي . وفاق المعهد الازهري المدارس الاسلامية خلال قرون عدة لاسباب عديدة منها — ان غزوات المغول في الشرق وما ترتب عليها من خراب وتدمير خارج مصر قضت على معاهد العلم هناك ، وكذلك انقراض الحضارة العربية

---

(١) هذه المنازل الحقت بالازهر الشريف فيما بعد وصارت من أروقته . ولعل السبب في اطلاق لقب «المجاورين» على طلبة الازهر هو سكن علماء الازهر وطلبته في مثل هذه المنازل المجاورة له من قديم الزمان

وتفكك المسلمين في بلاد الاندلس ادى الى دمار مدارسه الزاهرة . فكان طبيعيًا ان يهرع الراغبون في العلم الى الجامعة الازهرية من مختلف البلدان

وهناك عوامل أُخرى ساعدت على نمو العلوم والآداب في الازهر : وقوعه في مكان يتوسط العالم الاسلامي ، وقربه من الحجاز ومكانة مصر الاقتصادية وصفتها العربية ، امتداد القارة الافريقيه فيما يلي مصر ، وماكان لوادي النيل من ثقافة عظيمة قديمة العهد

اجراء الارزاق على المشتغلين بالعلم في الازهر

عرف الخلفاء الفاطميون منذ الساعة الاولى ، ان قوام الامور النافعة في العالم لايكاد يتم ، الا بمساعدة المال فسخره المعز في نصر قضيته وتوطيد سلطانه ثم جاء العزيز فلم يكتف هو ، وزراؤه ومن جاء بعده باجراء الارزاق والصلات على المشتغلين في الازهر بل وقفوا ايضاً هم ومن جاء بعدهم من الامراء والاغنياء — في مصر وغيرها من البلدان الاسلامية — الاوقاف الكثيرة ، للصرف على هذا المعهد الجليل واطعام فقراء الطلبة الملتحقين به

ويقول المقريزي إن أول من وقف على الازهر الاوقاف هو الخليفة الحاكم بامر الله ثم تبعهُ في اسداء الخيرات على هذا الجامع الشريف كثير من الامراء ومحبي البر من المتقدمين والمتأخرين

هذا الامير الناصري [1] رتب للفقراء والمجاورين طعاماً يطبخ كل يوم وانزل للجامع قدوراً من نحاس جعلها فيه . وهذا الملك قانصوه الاشرف [2] رتب الجزيرة (نوع من العصيدة باللحم) في شهر رمضان لكل الطلبة . وهذا الملك قانصوه الغوري [3] رتب في شهر رمضان من كل سنة ٦٧٠ ديناراً تصرف على مطبخ الازهر ومائة قنطار من العسل ، وخمسمائة اردب من القمح ، وهذا الامير عبد الرحمن كتخدا [4] زاد في مرتبات الجامع ، اخبازه ورتب لمطبخه في ايام رمضان ، كل يوم رزاً وسمناً ولحماً وزيتاً واطعمة اخرى للمجاورين .

ومما يذكر بالاعجاب عناية اعضاء العائلة المالكة العلوية الكريمة واغنياء مصر بهذا الجامع الشريف وطلبته . فالاميرة زينب هانم كريمة العزيز محمد علي أوقفت أوقافاً على الازهر بلغ ريعها عشرين الف جنيه وهو الآن اعظم من ذلك

ووقف السيد أبو بكر راتب باشا رحمة الله عليه في سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٦٢م) اوقافاً غنية على رواق الحنفية وخصهُ بالحنفية من المجاورين المصريين

---

(١) احد أمراء المماليك
(٢) المتولي سلطنة مصر في سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٠ م)
(٣) المتوفي في سنة ٩٠٦ هـ , ١٥٠٠م)
(٤) احد امراء الاتراك

ووقفت المرحومة الاميرة جميلة هانم كريمة ساكن الجنان اسماعيل باشا خديوي مصر العزيز اوقافاً عظيمة . ووقف محمد باشا ابو سلطان كبير اعيان منية ابن خصيب مائة وخمسين فداناً من اجود اطيانه في المنيا لينفق من ريعها على الجراية اليومية في الازهر

ووقف امير الامراء محمد باي ابن مراد باي ابن الامير الكريم محمد باشا ابن مراد باشا حاكم ولاية تونس اوقافاً كبيرة في سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣م)

وقبل انشاء نظارة الاوقاف كانت الاعيان الموقوفة بيد من يعينهم القاضي الشرعي نظاراً على تلك الاوقاف . ومما يؤسف له ان كثيراً من اولئك النظار قد اهملوا في حفظ الاعيان الموقوفة فتلاعبت بها الايدي واندثرت . ولو بقيت كل تلك الاوقاف لكان للازهر اليوم ايراد يفوق ايراده الحالي اضعافاً مضاعفة

وكانت تعطى للمشائخ المدرسين ولبعض الطلبة ارزاق من مرتبات مالية شهرية وخبز يسمى «الجراية» وكان العالم المدرس اذا توفى عن اولاد أجري بعض رزقه عليهم وكلفوا الاشتغال بطلب العلم . ومما يذكر أنهُ في عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ — ١٣٨٣ م) في عهد الامير بهادر الذي كان ناظراً على الجامع استصدر مرسوماً من السلطان برقوق ينص على أن من مات من مجاوري الازهر من غير وارث شرعي وترك شيئاً فانهُ يؤول الى المجاورين اقرانه بالجامع . وقد نقش هذا على حجر عند الباب البحري القديم ولكن هذا النقش غير موجود الآن [١]

مساكن الطلبة

ذكرنا ان الخليفة الفاطمي العزيز بالله كان أول من بنى سكناً للطلبة والعلماء . ثم اهتم من بعده الامراء والوزراء واغنياء الامة المصرية في تعمير الازهر وتوسيعه ، فألحقوا به مساكن للطلبة تسمى بالاروقة . وهي عبارة عن غرف ومبانٍ [٢] انشئت في اوقات مختلفة ، متصلة باسوار الازهر ، وأعدت بجانبها محلات الغسيل والطبخ ، ووصلت بنفس الجامع ، فأصبح الطالب لايحتاج الى الخروج من الازهر الاّ نادراً ، وسهلت على الطلبة الغربة ، وساعدت الفقير على التعلم ، وآخت بين افراد الامة الاسلامية المتباعدة اطرافها

ولكل جهة من جهات القطر المصري ولكل اقليم من الاقاليم الاسلامية الاجنبية عن مصر رواق بالازهر . وتقسيم اروقة الازهر وإما بحسب الجنس وإما بحسب المذهب . وهي تسعة وعشرون رواقاً:—

الى اليمين من الباب العباسي (الواقع الى جنوب باب المزينين) يوجد الرواق العباسي وهو

---

(١) المقريزي: خطط (ج ٢ ص ٢٧٦)

(٢) الرواق بمعناه الدقيق هو الفضاء الواقع بين عمودين

ثلاث طبقات وفيه اروقة الاكراد ،والهنود، والبغداديين ، واليمانيين ، ودكارنة صليح،ورواق الطيبرسية ، ورواق الاقبغاوية .ويليه في السور الجنوبي رواق الجبرتية ثم رواق الترك ورواق السنارية ورواق البرنية ورواق المغاربة . وبعده في السورالجنوبي ايضاً باب الشوام وعن يساره رواق الجاويين وعن يمينه رواق السليمانية (الافغان) ورواق الشوام . ويليه في السور نفسه الى جهة الشرق باب الصعايدة وعلى يمينه رواق الصعايدة . وفي السور الشرقي الى جهة الجنوب باب الحرمين (وهو مقفل) وداخله رواق الحرمين . ويليه باب الشوربة وعن يساره رواق البرابرة . وفي السور الشمالي الى جهة الشرق باب الجوهرية في داخله رواق الجوهرية ، وعلى يمينه رواق اهل الشرقية . وفي خارج الجوهرية رواق زاوية العميان الذي لا يسكنهُ غيرهم . وبجواره رواق الحنابلة.وفي الجانب الغربي من السورالشمالي اروقةالبحاروة والفشنية ،والفيوميين والشنوانية ، ورواق الحنفية ، ورواق ابن معمر

ويلحق بالاروقة الحارات ، وهي اماكن ليست ذات غرف ، ويضع فيها الطلبة خزائنهم ودواليب امتعتهم . ولكل حارة شيخ من العلماء يرجع اليهِ طلبتها في امورهم . وعدد الحارات الآن اثنتا عشرة حارة :

البشابشة ، والواطية (في ظهر رواق المغاربة) ، والسليمانية (على يمنة باب الشوام والممشى) والزهار (بين بابي الجوهرية والشوربة) ، والنفراوية،والبيجرمية ، والمناصرة (قريبة من رواق الشرقاوية) ، والعفيفي ، والزرقانية ، والجيزاوية (في صحن الازهر) والشنوانية (في الجانب الشمالي وراء الصحن)

التعليم في الازهر

ذكرنا ان أول ما درس في الازهر الشريف الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة. ولكن المعروف ان الفاطميين عنوا فوق ذلك بعلوم التوحيد والرياضة والمنطق والبيان والنحو والطب والفلك وتقويم البلدان وغيرها ، اذ ان المعروف ان مكتبة الفاطميين ، كانت محتوية ، على مائة الف مجلد منها ستة آلاف في الطب ، وعلى كرتين سماويتين ، احداهما من الفضة ، وعلى خرائط جغرافية ثمينة . ويقول المقريزي ان احد الرحالة دخل هذه المكتبة « فرأى فيها مقطعاً من الحرير الازرق ، غريب الصنعة ، فيه صورة اقاليم الارض ، وجبالها ، وبحارها ، ومدنها ، وانهارها ، ومساكنها ، وجميع المواطن المقدسة ، مبينة للناظر ، مكتوبة اسماء طرائقها ومدنها ، وجبالها ، وبلادها ، وأنهارها ، وبحارها ، بالذهب وغيرها بالفضة والحرير» . ولما جاء صلاح الدين الايوبي وأراد ان يقضي على كل أثر للفاطميين فتح بمصر مدرسة لتعليم الفقه الشافعي

والمالكي وانقطع الازهر عن تدريس العلوم الفاطمية فكان اول ما درس به من مذاهب أهل السنة مذهب الامام الشافعي ، رضي الله عنه ، ثم المذاهب الاخرى . ثم جاء السلطان الظاهر بيبرس — من ملوك الجراكسة — فأعاد للازهر حياته العلمية والدينية . وقد اهتم من جاء بعده من سلاطين وأمراء بأمر الجامعة الازهرية وعنوا على الخصوص بتدريس العلوم الدينية وكذلك علوم النحو والصرف والبلاغة . وكانت العلوم العقلية ، من رياضية وغيرها تدرس ايضاً ولكن كان يشتغل بها عدد قليل من الطلاب . واعتقد البعض ان الاشتغال بهذه العلوم مخالف للدين فأهمل تعلمها وأصبح الطلاب ينظرون اليها ساخطين ويفرون منها . قال المرحوم علي باشا مبارك ناظر المعارف العمومية في خططه : « وينهي أهل الازهر من يقرأ كتب الفلسفة ويشنون عليه الغارة وربما نسبوه للكفر » ولكن لم يستمر اهمال هذه العلوم طويلاً فقد جعلت تأخذ مكانها بين العلوم التي تدرس في الازهر واصبحت طريق الوصول الى المنصب والشهرة ، وبعثت شيئاً من الحياة يدب في الركود الذي اصاب التعليم في ذلك المعهد القديم .ثم توالى ارسال بعثات علمية الى اوربا يختار اعضاؤها من طلاب الازهر ولكن كان الازهريون يسخرون من اخوانهم الذين تعلموا في اوربا

ولما جاء الخديوي اسماعيل عمل على اصلاح الازهر اصلاحاً يتفق والآراء الجديدة واعانهُ على تنفيذ مشروعه شيخ الازهر لعهده الشيخ محمد العباسي المهدي الحنفي وكان فقيهاً واسع الخبرة ولم يكن في الازهر قبل زمن هذا الشيخ الجليل امتحانات للطلاب ، بل كان يمنح الطالب شهادة غير رسمية من شيخه (اجازة) تدل على انهُ قد فهم نصًّا معيناً ، وتؤهله للتدريس. وهذه الطريقة كانت لا تؤدي طبعاً الى ايجاد عناصر تتميز بالكفاءة والجدارة . فاستصدر الشيخ المهدي الامر العالي الخديوي [1] بتنظيم امتحانات للطلبة عند التخرج ، وتكوين لجنة من ستة اعضاء وتعيين المواد التي يجب تأدية الامتحان فيها ، وتقرير مكافآت دراسية للطلاب . وقسمت العلوم الدينية والشرعية الى احدى عشرة مادة يؤدى فيها الامتحان . واصبح الطالب يحصل اولاً على شهادة « الاهلية » (ثانوية) ثم الشهادة العالمية (عالية) اذا اراد المزيد

على أن الخديوي توفيق باشا والخديوي عباس الثاني اللذين خلفا الخديوي اسماعيل ، لم يضنا على الازهر بالرعاية والعطف . وبذل الخديوي عباس الثاني كل ما في وسعه لتحقيق الاصلاح ولكنهُ كان يجد معارضة قوية ، لان الكثرة الغالبة ، من الازهريين ، كانت الى ذلك الوقت ، لا تقبل التجديد ولا ترضاه

---

(١) تجد نصه في جريدة وادي النيل الصادرة في ٦ ؛ فبراير سنة ١٨٧٢م

كتب الازهر

تعطينا الكتب العديدة التي كانت تدرس في الازهر فكرة عن الذوق العلمي والأدبي ، الذي كان سائداً في العصور الاخيرة .وقد اخذت الكتب القديمة ، على مر الايام ، تصاب بالعقم لانها وقعت فريسة للجمود الديني . ويلاحظ ان الازهر ، شأنه في ذلك شأن بلاد الشرق ، يميل الى المؤلفات الاحدث عهداً التي يضعها الشراح ، وهي شروح تعليمية بحتة تصور الاسهاب المجرد من الابتكار . وكان الاجدر ان يدرس امهات المؤلفات القديمة القيمة ، في الادب والشعر واللغة والتاريخ والنحو والبيان ، والدين ، والحديث الشريف والتفسير والاصول وغيرها وعلى كل حال فقد بدأ الآن يتنبه الى ذلك بفضل ما يقوم به رجال الاصلاح في الازهر الشريف وعلى رأسهم العلامة الجليل الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

مكتبة الازهر

ذكرنا ان مكتبة الفاطميين كانت مملوءة بدرر الكتب النادرة وانها كانت محتوية على مائة الف مجلد في علوم الطب والتوحيد والرياضة والمنطق والبيان والنحو والبلاغة والفلك وتقويم البلدان وغيرها [١] . وكان اعيان المسلمين يتبارون في تسهيل طلب العلوم الاسلامية ونشرها بما يقفونه عليها من خزائن الكتب ونوادر المصنفات في مختلف العلوم والفنون قبل اختراع الطباعة . فلم يمر زمن طويل حتى امتلأت خزائن اروقة الازهر بالمجلدات والكتب مع ما كان يحل بها في كثير من العصور

وفي سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ — ٩٧) في عصر الخديو عباس الثاني وفي مدة مشيخة شيخ الاسلام الشيخ حسونه النواوي ، اسست « دار الكتب الازهرية الكبرى » واعدت لها مدرستا الاقبغاوية والطيبرسية ، وجمعت فيها كتب الاروقة والحارات ، عدا كتب قليلة ، ورتبت وجلدت الكتب ، ونظمت احسن تنظيم . وأخذ اعيان المسلمين يمدون هذه الدار بنفائس الكتب : وفي مقدمتهم احمد مختار باشا الغازي واحمد باشا راشد وورثة سليمان باشا اباظه والمرحوم السيد حسن باشا جلال الحسيني المستشار بمحكمة الاستئناف ، فبلغ الآن عدد ما فيها من الكتب اكثر من تسعة واربعين الف مجلد ، والمخطوط منها نحو ١٥ الفاً

وهناك مكتبات فرعية خاصة ببعض اروقة الازهر . ففي رواق المغاربة مكتبة فيها حوالي ٨١٥٧ مجلداً وفي مكتبة رواق الترك حوالي ٦٩٥٠ مجلداً ، وفي مكتبة رواق الشوام اكثر من

---

(١) رجع كتاب كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ص ٢٧ — ٣٢

٣٣٥٠ مجلداً ، وفي مكتبة رواق الحنفية حوالي ١٤٠٠ مجلدات . وأمناء هذه المكاتب خاضعون لمراقبة دار الكتب الازهرية الكبرى

مشيخة الازهر

لم يكن للازهر في عصره الاول شيخ يتولى أمره كما هو اليوم — بل كان يرعاه الملوك والامراء ، ويدير شئونه الحقيقية مشايخ المذاهب الاربعة ، ومشايخ الاروقة . وفي القرن الحادي عشر الهجري رأى ولاة الامور أن مكانة الجامع اصبحت تستدعي وجود رئيس يراقب اموره، ويدير شئونه ، يكون « شيخ الجامع الازهر » وينتخب من بين كبار العلماء الممتازين مهما كان مذهبه

وكانت العادة في أول الامر ان شيخ الجامع يستمر قائماً بأعماله حتى وفاته ، حتى انهُ لما كبر الشيخ ابراهيم الباجوري عن القيام باعباء منصبه سنة ١٢٧٥ ه‍ (١٨٥٨—٥٩م) أمر خديو مصر المغفور لهُ سعيد باشا أربعة مشايخ ليديروا حركة الجامع بطريق التوكيل . غير ان هذا النظام ابطل في سنة ١٢٨٧ ه‍ (١٨٧٠ — ٧١ م) بعزل الشيخ العروسي من مشيخة الجامع . وشيخ الجامع الازهر بمصر هو شيخ الاسلام . وهو ايضاً عضو في مجلس البلاط الملكي ، وعضو في المجلس الاعلى للازهر ، ورئيس لمجلس ادارة الازهر ، ومدير لادارة أوقاف الازهر ، ورئيس أعلى للمعاهد الدينية بالقطر المصري الى غير ذلك من المناصب العالية الاخرى . فليس من شك في أن لهُ أعظم مقام ديني اسلامي في المملكة المصرية ، وأن مكانتهُ سامية ، لا في مصر وحدها ، بل وفي جميع بلدان العالم الاسلامي

وليس لدينا في الواقع تاريخ مفصل لمشايخ الازهر قبل عام ١١٠٠ ه‍ (١٦٨٨ — ٨٩م) اذ أن الجبرتي هو الذي اهتم بتدوين تاريخ المشايخ من هذا التاريخ . وكان يتولى المشيخة في ذلك الحين علماء المالكية ، وأول شيخ منهم هو الامام ابو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي ، رجل العلم والاصلاح ، المتوفى في ٢٧ ذي الحجة سنة ١١٠١ ه‍

ثم جاء بعده الشيخ ابراهيم محمد البرماوي الشافعي المتوفي سنة ١١٠٦ ه‍

ثم شيخ الاسلام الشيخ محمد النشرتي المالكي وتوفى سنة ١١٢٠ ه‍

ثم الشيخ عبد الباقي البلقيني

ثم الشيخ محمد شنن المتوفى (سنة ١١٣٣ ه‍) ، وكان اعظم المصريين ثروة فقد ترك لولده أربعين الف جنيه من الذهب ، ما عدا انواع الفضة وغيرها . وترك غير ذلك املاكاً وضياعاً واطيانا ومماليك . فبدد ابنهُ كل هذه الثروة ومات مديناً

ثم تولى الشيخ ابراهيم موسى الفيومي المالكي وتوفى عام ١١٣٧ ه‍

ثم انتقلت المشيخة الى الشافعية وأول من تولاها شيخ الاسلام العالم الشيخ عبد الله محمد عامر الشبراوي وتوفي سنة ١١٧١ هـ

ثم جاء بعده العالم الجليل الشيخ محمد سالم الحفني الشافعي ، صاحب المؤلفات في الحديث والعقائد والفرائض والجبر . وقد توفي سنة ١١٨١ هـ .

ثم تولى الامام الفقيه الشيخ عبد الرءوف السحيني المتوفى سنة ١١٨٢ هـ

ثم العلامة الشيخ احمد عبد المنعم الدمنهوري المتوفى سنة ١١٩٢ هـ .

وبعد وفاته قام نزاع على من يتولى المشيخة بين انصار الشيخ عبد الرحمن العريشي والشيخ احمد العروسي وقد انتهى الامر بتولي الشيخ احمد العروسي الشافعي المتوفى سنة ١٢٠٨ هـ

ثم تولى الشيخ عبد الله حجازي الشرقاوي المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ . وكانت أيامه من أشهر الايام في تاريخ الازهر بسبب حصول الحملة الفرنسية في زمنه وما جرته على الازهر من متاعب وبلاء

ثم تولى الشيخ محمد الشنواني المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ

ثم الشيخ محمد العروسي المتوفي سنة ١٢٤٥ هـ

وجاء بعده الشيخ احمد علي الدمهوجي المتوفى سنة ١٢٤٦ هـ

ثم الشيخ حسن محمد العطار ، المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ — وقد كان متضلعاً من العلوم الرياضية، والشرعية والعربية والشعر

وجاء بعده الشيخ حسن القويسني المتوفى سنة ١٢٥٤ هـ وكان كفيف البصر شريفاً ، ذا هيبة عند الامراء والعظماء

ثم تولى الشيخ احمد عبد الجواد الصائم السفطي المتوفى سنة ١٢٦٣ هـ

ثم الشيخ ابراهيم محمد البيجوري الذي لم يتمكن في اواخر ايامه لكبر سنه وشيخوخته ، من القيام باعباء المشيخة فوكل اربع من كبار العلماء بالمشيخة وهم : الشيخ احمد كبوه العدوي المالكي ، والشيخ اسماعيل الحلبي الحنفي ، والشيخ خليفه الفشني الشافعي ، والشيخ مصطفى الصاوي الشافعي .

ولما توفى الشيخ البيجوري (سنه ١٢٧٧ هـ) بقى الازهر بلا شيخ مدة اربع سنوات ، إستمر الوكلاء في ولاية المشيخة . وتسمى هذه المدة « فاصلة الوكلاء »

وفي سنة ١٢٨١ هـ تولى المشيخة الشيخ مصطفى العروسي وعزل عنها سنة ١٢٨٧ هـ فتولى الشيخ محمد المهدي العباسي الحنفي ولكنهُ عزل عنها — بطلب من العرابيين — في عام ١٢٩٩ هـ فتولاها الشيخ محمد الانبابي .

وبعد انتهاء الثورة العرابية اعيد الشيخ المهدي في ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ ولكنهُ استقال من الازهر والافتاء سنة ١٣٠٤ هـ

وأعيد الشيخ محمد الانبابي حتى استقال في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣١٢هـ

وجاء بعده الشيخ حسونه عبد الله النواوي الحنفي وفصل في المحرم سنة ١٣١٧ هـ

ثم تولى الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي في عام ١٣١٧هـ وتوفى الى رحمة الله فجأة بعد شهر واحد

فتولى بعده الشيخ سليم البشري المالكي واستقال في ذي الحجة سنة ١٣٢٠ هـ

فتولى الشيخ السيد محمد البيلاوي واستقال في المحرم سنة ١٣٢٣ هـ

فتولى الشيخ عبد الرحمن الشربيني واستقال في ذي الحجة سنة ١٣٢٤ هـ. ثم تولى الشيخ حسونه النواوي للمرة الثانية واستقال سنة ١٣٢٧ هـ . فتولى الشيخ سليم البشري — للمرة الثانية — الى ان توفي لرحمة الله يوم الجمعة ٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٥ هـ . فتولى الشيخ محمد ابو الفضل الجيزاوي الى سنة ١٣٤٦ هـ . ثم الشيخ الجليل العلامة محمد مصطفى المراغي الى سنة ١٣٤٨ هـ . فتولى الشيخ محمد الاحمدي الظواهري حتى سنة ١٣٥٤ هـ . فعاد للمشيخة ثانية فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

المراجع

١ – خطط المقريزي
٢ — الفاطميون في مصر : للدكتور حسن ابراهيم حسن
٣ — خطط علي باشا مبارك
٤ – الاسلام والتجديد في مصر سنة ١٩٣٥
٥ — ابن اياس
٦ — كنز الجوهر في تاريخ الازهر : للشيخ سليمان الزياتي
٧ — « رسالة الى المؤتمر » : لمصطفى بيرم
٨ - « الازهر » : لمحب الدين الخطيب
٩ — محاضرات : للاستاذ كرسويل ألقيت بمعهد الآثار الاسلامية
١٠ — دائرة المعارف الاسلامية
١١ — النجوم الزاهرة
١٢ — كنوز الفاطميين : للدكتور زكي محمد حسن

مصادر مهملة

في

دراسة التاريخ الاسلامي

للدكتور زكي محمد حسن
امين دار الآثار العربية بالقاهرة

مصادر مهمة

في دراسة التاريخ الاسلامي

يشكو اساتذة الجامعة والمشتغلون بدراسة التاريخ الاسلامي في مصر مما يرونهُ في ابحاث الطلاب ورسائلهم من ضعف وقصور . ويبذل اساتذة الجامعة جهوداً كبيرة في اصلاح هذا النقص وفي تلقين تلاميذهم طرق البحث العلمي الصحيح ، وقد أوشكت جهودهم ان تؤتي ثمرها . وان كنا نلاحظ ان التقدم بطيء ، ولا يتفق والمكانة التي يجب ان تكون لجامعتنا بوصف كونها اكبر الجامعات التي تعنى بدرس حضارة المسلمين وتاريخهم . ولا ريب ان اساس هـذا البطء انما هو كثرة عـدد الطلاب وقلة الاساتذة المشتغلين بتدريس التاريخ الاسـلامي وارهاقهم بالدروس والمحاضرات وصرفهم عن تخصيص جزء كاف من وقتهم الثمين لمقابلة تلاميذهم والبحث معهم في ما يصـدر من مؤلفات ودراسات وارشادهم الى المصادر والمراجع والاشراف على ما يكتبونه من نبذ ورسائل ، لتقويم اخطائهم وهدايتهم الى اصلح الطرق للدرس والتحصيل

والواقع ان الاتصال الشخصي بالاساتذة والافادة من التحدث اليهم في غير اوقات المحاضرات العامة والدروس المقررة امرٌ تنبهت لهُ الجامعات والمدارس العالية في اوربا حتى اننا لنجد بعضها يطبع بيانات بالمواعيد التي يخصصها كل استاذ لاستقبال طلابه في بيتهِ او في حجرات البحث بالجامعة او المدرسة . فضلاً عن ان معاهد التعليم العالي عنيت اشد العناية بحجر البحث فيها فزودتها بأثمن المؤلفات وفرضت على الطلاب قضاء ساعات فيها للدرس والرجوع الى الاساتذة فيما يستعصي عليهم فهمه والاسترشاد بآرائهم في مختلف المسائل العلمية . ولعل المانيا اكثر الامم تمسكاً بهذا النظام في جامعاتها ومدارسها حيث يسمونهُ Seminar [1] اما الجامعات الانجليزية والفرنسية فيعتمد طلابها على الاتصال بالاساتذة في بيوتهم او في مكتبات معاهدهم اكثر من اعتمادهم على ساعات «السيمنار»

على اننا لا نعنى في هذا المقال بطلاب الجامعة المصرية والمعاهد العالية بقدر ما نعنى بغيرهم ممن يبحثون في التاريخ الاسلامي لأن لاولئك اساتذة في الجامعة يقومون رسالتهم العلمية على خير ما يسمح بهِ ارهاقهم وغير ذلك . وقد ظهرت بشائر نجاحهم في إعداد شبيبة صالحة للدرس والبحث العلمي. أما «المتطوعون» فلا رقيب عليهم ولا مرشد لهم بل ان لبعضهم ذكراً مستفيضاً وقد عوّدهم كثيرون

---

(١) من اللاتينية seminarium بمعنى « مشتل او مكان تزرع فيه الاشجار الصغيرة »

من القراء على أن يصدقوا ما يسطرون وان يعجبوا بما يكتبون وأن يروا فيهم أعلاماً في التاريخ الاسلامي، حتى لقد بلغ بعضهم ان ينقلوا عن المقريزي وعن ابي المحاسن بن تغري بردي وعن غيرهما من مؤرخي العرب ما يملاون به صحيفتين أو ثلاثاً فيها آراء بعض الكتب المدرسية ثم يدفعون بهذا كله الى صحيفة تنشره بتوقيعهم وإلى جانبه عبارة : « النقل ممنوع بتاتاً » كأن مؤلفي العرب قد بعثوا من قبورهم ليحظروا الافادة من كتبهم او كأن هذه اصبحت وقفاً على هؤلاء «المتطوعين» او كأنهم أحدثوا في التاريخ الاسلامي أحداثاً وكشفوا في دراساته نظريات يحرصون على تسجيلها والاحتفاظ بها

نترك اذن طلاب الجامعة لاساتذتهم ونحدث هنا غيرهم ممن يكتبون في التاريخ الاسلامي عما نراه في كتاباتهم من مآخذ حبذا لو عملوا على اصلاحها

العلاقة بين التاريخ الاسلامي والآثار الاسلامية

ولعل أخطر ما نلاحظهُ في ما يكتب في مصر عن التاريخ الاسلامي أن لا صلة بينهُ وبين الآثار الاسلامية في شيء . فكأن مصادر التاريخ الاسلامي عند كتّابنا لا تتجاوز ما في كتب الأدب والتاريخ من سير وحوادث. أما الكتابات التاريخية المرقومة على العمائر والمساجد والاضرحة والتكايا والتحف الأثرية وغيرها فهم لا يظنون أن لنصوصها شأناً عظيماً في تأييد اقوال المؤرخين او اثبات خطأها وهم لا يعرفون أنها تكشف لنا في كثير من الاحيان عن حقائق لا تعرض لها كتب الأدب والتاريخ مما جعل المستشرقين يعنون عناية وافرة بدراسة هذه الادلة المادية وبجمعها وتنظيمها والتعليق عليها . ومنهم من وقف جزءاً كبيراً من حياته على هذه المهمة الشاقة. وعلى رأس هؤلاء العلماء الاستاذ السويسري مكس فان برشم Max van Berchem عميد الببليوجرافيا الاسلامية (علم قراءة الكتابات القديمة) . وقد ولد هذا العالم الجليل سنة ١٨٦٣ وتلقى علومه في جنيف وشتتجارت ودرس العلوم الشرقية في ليبزج وبرلين وباريس ووجهه ادوار سخاو وكارمون جانو الى دراسة الفيلولوجيا وعلم الآثار ولم يلبث فان برشم ان نبغ في قراءة الكتابات الاثرية العربية وتفسيرها وربطها بمسائل التاريخ الاسلامي نبوغاً جعله أكبر حجة في هذا الميدان وعلماً يهتدى به . واقتفى أثره علماء هذه الناحية من الدراسات الاسلامية في العصر الحاضر ولا تزال الرسالة التي تقدم بها الى جامعة ليبزج للحصول على درجة الدكتوراه من المراجع الهامة في ضريبة الخراج[1] ثم زار فان برشم بلاد الشرق الاسلامي ورجع منها بمحصول

(١) موضوعها : La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes. étude sur l'impôt du Kharag

وافر من المواد والمستندات العلمية اللازمة للعمل العظيم الذي كان يعد لهُ نفسه وأخذ يدرّس الآثار الاسلامية في جامعة جنيف . ورأى بثاقب نظره ان للعمائر الاسلامية وما عليها من كتابات أخطر الشأن وأجل الفائدة في دراسة المدنية الاسلامية وتطور الحياة العقلية والسياسية والادبية لامم الشرق الادنى . فعوّل على ان يصف العمائر المذكورة وان يجمع نصوص ما عليها من الكتابات وان يضمنها مؤلفاً كبيراً أظهرت في حواشيه ثقافته العظيمة وعلمه الغزير. هذا المؤلف الضخم هو ال Corpus inscriptionum arabicarum أي «جامع الكتابات العربية » وليس لاي باحث في التاريخ الاسلامي غنى عنهُ

واستعان فان برشم في هذا العمل الجليل بأعوان من خيرة تلاميذه وزملائه فجمعوا معه الكتابات الاثرية في مصر وسورية وفلسطين وأدرك مجمع الآداب في باريس قيمة « جامع الكتابات العربية» فشمله برعايته وجعله لاحقاً « لجامع الكتابات السامية » الذي عمل قبل ذلك على يد ارنست رينان

وكتب فان برشم مع ادمون فاتيو وصفاً لرحلته في سورية لا يزال من انفس المراجع في تاريخها وآثارها والعلاقات بين الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية . هذا كله فضلاً عما كتبهُ من ابحاث شتى في مختلف نواحي الآثار الاسلامية والتاريخ الاسلامي مما لا مجال لاستقصائه هنا

على ان الحرب ابعدت عنه كثيرين من تلاميذه وأعوانه اذ شغلهم واجبهم نحو اوطانهم عن الدرس والتحصيل والكتابة والتأليف . وكان فان برشم السويسري المحايد يشاهد هذا في اسف وحزن. ثم التقى المحاربون سلاحهم وعاد الى العلم طلابه واساتذته وبدأت الحياة تدب من جديد في اوساط المستشرقين وعلماء الآثار ولكن شاء القدر ألاَّ ينعم فان برشم بعودة السلام طويلاً اذ انهكه العمل فسقط في ميدانه مريضاً وكان في مصر فنصحهُ الاطباء بالعودة سريعاً الى بلاده حيث لم يمهله المرض الا بضعة اسابيع فمات في مارس سنة ١٩٢١

مات فان برشم بيد ان علم الكتابات الاسلامية القديمة كان قد نما وترعرع وتمشت اقدامه . وخلف فان برشم في حمل عبئه قليلون من تلاميذه وعلى رأسهم جاستون فييت الذي وقف على اتمام الجزء المصري من «جامع الكتابات العربية » فكتب الجزء الثاني من هذا المرجع الجليل (١)

(١) انظر G. Wiet : Corpus inscriptionum arabicarum, Egypte, tome II (Mém· de l'Institut fr. d'Archéologie Orientale t· 52, 1930)

وكان طبيعيًا ان يعمل تلاميذ فان برشم واعوانه على تحقيق رغبته في جمع كل النصوص العربية المكتوبه على العمائر والتحف في مختلف انحاء العالم الاسلامي فتضافروا على تنفيذ هذا المشروع ونهض باعبائه فييت G. Wiet وكومب Et. Combe وسوفاجيه J. Sauvaget معتمدين على معونة المشتغلين بالآثار الاسلامية والتاريخ الاسلامي . وكان طبيعيًا ان يهدى هذا السجل الجامع الشامل الى روح فان برشم. كما كان اختيار العبارة العربية التي كتبت تحت الاهداء اختياراً موفقاً الى أبعد حدود التوفيق :

« اذا مات الانسان انقطع عمله الا عن علم ينتفع به»

اجل ! أي عبارة تصدق اكثر من هذه في الاشارة الى الرسالة التي أداها فان برشم في حياته العلمية ؟

هكذا ولدت فكرة السجل التاريخي للكتابات العربية :

Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe

وقد ظهر الجزء الاول منهُ سنة ١٩٣١ وتلتهُ أجزاء أخرى حتى طبع الثامن في هذا العام ويشتمل كل جزء من هذا السجل على اربعمائة كتابة مرتبة ترتيباً تاريخيًا وموصوفة وصفاً وجزاً والى جانب كل منها بيان بالمراجع المختلفة التي تحدثت عنها او عن العمارة او التحفة المكتوبة عليها. وهذا البيان خير دليل للباحثين في الدرس والمقابلة . وقد بدأ السجل بنقش العمارة المكتوب بالحروف النبطية سنة ٣٢٨ ميلادية ، وتاريخ آخر الكتابات في الجزء الثامن سنة ٥٥٠ هـ وقد جمع هذا السجل كل الكتابات المؤرخة او التي يمكن معرفة تاريخها باسم امير او حاكم فيها او بطرازها الفني او بغير هذا وذاك من الادلة والقرائن

وهكذا نرى ان للباحثين في التاريخ الاسلامي مصادر خطيرة الشأن بما تشتمل عليه من كتابات تاريخية تكشف عن كثير في حياة بناة العمائر واصحاب التحف وفي تطور الانظمة والعادات والحوادث السياسية في العالم الاسلامي . واوفى هذه المصادر

(١) جامع الكتابات العربية Corpus لفان برشم وبعض زملائه وتلاميذه

(٢) سجل الكتابات العربية Répertoire لفييت وكومب وسوفاجيه وبعض المشتغلين بالآثار الاسلامية

هذان معجمان نفيسان ، نحرص على التنويه بقيمتهما ونتمنى ان نرى الطلاب والباحثين يقبلون على الانتفاع بما فيهما

أوراق البردي

كذلك نلاحظ ان كثيرين ممن يكتبون عندنا في التاريخ الاسلامي يهملون دراسة اوراق البردي اهمالاً يؤاخذون عليه ، وان كثيرين منهم لا يعرفون شيئاً عن علم قراءة الاوراق البردية العربية، بينما تنبه الى خطر شأنه الغربيون منذ زهاء قرن من الزمان . فقد عثر بعض الفلاحين في سنة ١٨٢٤ على جرة صغيرة فيها ورقتان مكتوبتان باللغة العربية وأرسلهما دروفتي قنصل فرنسا في القاهرة اذ ذاك الى المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي فكتب مقالاً عنهما في مجلة العلماء بباريس سنة ١٨٢٥ . وفي النصف الثاني من القرن الماضي اضطرد العثور — ولا سيما في اقليم الفيوم — على اوراق البردي المكتوبة باللغة الاغريقية او العربية او بهما معاً . وبيعت جل هذه المجموعات الى الاوربيين فتفرقت في المجموعات الأثرية والمتاحف ولا سيما في فينا وبرلين وباريس ولكن دار الكتب المصرية لا تزال تحتفظ بمجموعة ثمينة من اوراق البردي العربية التي كشفت في الفيوم او في غيرها من الاقاليم المصرية كأخميم وسقارة والاشمونين وميت رهينة واهناسية وادفو

وقد وقف الاستاذ اودلف جروهمان جزءاً كبيراً من جهوده العلمية على درس اوراق البردي العربية واصدرت له دار الكتب المصرية مؤلفاً — في جزئين — عما فيها من هذه الاوراق كما كتب كاراباتشك Karabacek وجروهمان عن اوراق البردى المحفوظة في مجموعة الارشيدوق رينر Rainer بالمكتبة الاهلية في فينا. وكتب مرجوليوث سفراً ضخماً عما في مكتبة جون رايلاندز بمدينة مانشستر في انجلترا وكتب المستشرق الالماني بيكر Becker عن الاوراق البردية في مجموعة شوت راينهارد Schott-Reinhardt وكتب ايضاً عن مجموعة افردويت في المتحف البريطاني (١) التي كتب عنها ايضاً بل H. J. Bell وكروم W. E. Crum

وحسبك لتعرُّف قيمة هذه الاوراق البردية في دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر الاسلامية أن تعلم أن بينها وثائق حكومية تتعلق بالخراج والجزية والبريد وأسماء المناصب وانظمة الادارة وطرق التجارة وأثمان البضائع والحاجيات المعاشية والبيوت والاراضي فضلاً عن المكاتبات الخاصة التي تكشف عن أشياء دقيقة في العلاقة بين الافراد واسراتهم او رؤسائهم او محبيهم

هذه الاوراق البردية اذاً مصدر صادق لدراسة الحياة في وادي النيل ابان العصور الوسطى فعسى ان يقبل الكتاب في التاريخ الاسلامي على استغلاله حق الاستغلال (٢)

---

(١) لا يتسع المجال هنا لبيان الكتب والمقالات التي كتبها هؤلاء المؤلفون وفي استطاعة القارىء ان يعرفها بالبحث والاستقصاء في فهارس دور الكتب

(٢) راجع المحاضرات الاربع التي القاها الاستاذ جروهمان في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة في ابريل سنة ١٩٣٠ عن الاوراق البردية العربية وترجمها الاستاذ توفيق اسكاروس وطبعتها دار الكتب المصرية

السكة

واذا تذكرنا ان وجود اسم الخليفة او الامير على عملة اقليم من الاقاليم يشهد بخضوع هذا الاقليم له ، فكتابة الاسم على السكة تشبه ذكره في الخطبة او كتابته على الاقمشة وبعض التحف، نقول اذا تذكرنا ذلك ، عرفنا ما لدرس الدنانير والدراهم المضروبة في العالم الاسلامي من فائدة جليلة ، في تحقيق كثير من حوادث الفتح واخضاع المدن حرباً او صلحاً . وقد عني الغربيون كثيراً بما في المتاحف والمكتبات والمجموعات الاثرية الخاصة من قطع العملة الاسلامية فصوروها ونشروا لها الفهارس العلمية . فكتب لافوا H. Lavoix عن النقود الاسلامية في المكتبة الاهلية بباريس وكتب كاستليوني Castiiiiogni عن المحفوظ منها بمتحف ميلانو وكتب فون فرين Von Fraehn وماركوف A. de Markof عما في متاحف سنت بطرسبرج (لينغراد) ونسلمان G. H. F. Nesselmann عما في متحف العملة بمدينة كونجزبرج بالمانيا ولين بول Lane-Poole عما في المتحف البريطاني ودار الكتب المصرية كما الف هانس J. Hans ومولر J. H. Mœller وسوفير Sauvaire وبتراسفسكي J. Pietraszowski وارتين باشا واسماعيل غالب واحمد توحيد ولسن رايت Wright وروجرزبك E. T. Rogers ومحمد مبارك وماوس Mauss ويونجفلايش Jungfleisch وغيرهم المؤلفات الوافية في هذا الموضوع، ولكن اكثر كتابنا في التاريخ الاسلامي لا يعنون بهذه الكتب ولا يعملون على ان يستنبطوا منها شيئاً ، بل ان اكثرهم يجهل وجودها وربما كان جل الموجود منها في دار الكتب المصرية لم تفصل اطراف صفحاته حتى الآن . ومع ذلك فان أمينها الجليل قد يصرّ على ألّا يسمح لك باستعارتها في الخارج حفظاً لصالح الجمهور وضماناً لانتفاع الجميع بها ! !

المراجع الجديدة

وقد لاحظنا ان اعتماد كتابنا على بعض المراجع الانجليزية او الفرنسية القديمة عظيم جداً فسيديلو وجوستاف لوبون وكونديه ودوزي من اكثر الاسماء وروداً في مراجعهم ونحن لا نريد ان نبخس هؤلاء المستشرقين حقهم ولكننا نذكر انهم كانوا يكتبون في زمن لم يكن علم الاستشراق قد تقدّم الى الحد الذي بلغهُ الآن ، فضلاً عن ان معرفتهم اللغة العربية لم تكن من التمام بحيث تمكنهم من قراءة المراجع العربية ، واستنباط الحقائق التاريخية منها ، ومما يزيد الطين بلة أن الامانة العلمية عند بعضهم لم تكن فوق كل شك ، فالنصوص التي لا يفهموها كانوا يمرون عليها مرّ الكرام دون اشارة او تنبيه، وعواطفهم الدينية والشعبية كانت تلقي بهم احياناً في احضان التفاسير الخاطئة ، وتجعلهم يستنبطون نتائج مشدودة من شعرها كما يقول الفرنسيون نود اذن ان ننبه طلابنا وكتابنا الى المؤلفات الحديثة التي يكتبها المستشرقون لاخذ آرائهم

بالدرس والتمحيص، وتفنيد الفاسد منها وتأييد الصحيح. كما ان ثمة طبعات جديدة لبعض المراجع القديمة، ينشرها اصحابها ويضيفون اليها ما افادوه من تقدم العلم، وطبع المخطوطات وظهور المؤلفات، ونشر الوثائق والمستندات، مما قد يقلب كثيراً من نظرياتهم القديمة. ويعمل بعض المستشرقين على تنقيح بعض المؤلفات التي كتبها شيوخهم، عاملين على اصلاح فاسدها وكتابة الحواشي لشرح ما غمض منها او التعقيب على ما كان مقتضباً فيها. كما فعل لڤي بروڤنسال في تاريخ اسبانيا لدوزي

فالواجب اذن ان يكون الطلاب على اتصال بالهيئات العلمية المختلفة لمعرفة مايصدر من الكتب والابحاث، وما يشغل بال المستشرقين واساتذة التاريخ الاسلامي في الشرق من المسائل والنظريات والحلول التي تراها المدارس المختلفة لبعض ما اشكل من حوادث التاريخ الاسلامي، والاحكام التي يصدرها الاساتذة على المراجع والابحاث للتمييز بين الغث منها والسمين، وليتيسر للطالب او الباحث ان يعرف الاساتذة الذين اختصوا بدراسة النواحي المختلفة في التاريخ الاسلامي والمدنية الاسلامية. فالباحث في تاريخ مصر لاخير فيه ان ترك مؤلفات كترمير ولين بول وبيكر وڤان برشم وفييت، ليرجع الى ما جاء في موير أو سيدلو أو لسترينج Le Strange أو دوزي، كما أن الكاتب في تاريخ شمالي افريقية اوالاندلس يؤخذ عليه عدم الالمام بما كتبهُ دوزي وجورج مارسيه ولڤي بروڤنسال وفورنل وكودل وفون درهايدن وغيرهم

فنحن نحتاج قبل كل شيء الى تنظيم بحثنا، والتفريق بين المراجع، وتقدير كل منها حق قدره، ومعرفة الناحية التي يمكن فيها الاعتماد عليه والرجوع اليه

ابحاث العلماء في المجلات العلمية

أنشأ المستشرقون في شتى البلاد الاوربية المجلات العلمية لنشر ابحاثهم وتسجيل نظرياتهم. وتشتمل المجلات المذكورة في كثير من الاحيان على مقالات من خطورة الشان بدرجة عظيمة، فتصبح من المراجع الاساسية في الموضوعات التي تتناولها. ولا غرو فان الذين يقومون على تحريرها من العلماء الاجلاء، فهم لا ينشرون الا الابحاث التي لها قيمة علمية كبيرة. فضلاً عن أن كتاب المقالات المذكورة إما اساتذة لهم إطلاع كبير والمام وافر، وهم حجة في الموضوعات التي يكتبون فيها، واما من نوابغ الباحثين الناشئين، الذين يعنون كل العناية بهذه المقالات ويعملون على أن تظهر فيها حسن طريقتهم في البحث فضلاً عما افادوه من الدرس والتحصيل، لان هذه المقالات أكبر سبيل الى الشهرة في أوساط العلماء وبها يرشح كتابها لكراسي التدريس او المناصب العلمية والسياسية التي يتطلعون اليها

وعلماء الغرب يعنون اشد العناية بالابحاث التى تنشر في المجلات العلمية التي قد تدرض لما يدرسونهُ من موضوعات . وهم يعتمدون على الجيد منها ، لأنها تمثل جهود علماء يقفون جزءاً كبيراً من وقتهم لبحث احدى المسائل ، التي تؤهلهم للكتابة فيها دراساتهم او اوساطهم أو رحلاتهم او غير ذلك من الظروف والمناسبات

ولكننا في مصر لا نعنى بهذه الابحاث، والمجلات العلمية الحقة التي ترد الى مكتبة دار الكتب او مكتبة الجامعة لا يفيد منها الطلاب فائدة تذكر ، فيفوتهم ما فيها من ابحاث قد تهديهم الى كثير من المراجع القديمة وتكفيهم مؤونة قراءة طويلة في غير ما دليل او مرشد . فطلابنا لا يكادون يعرفون الا المراجع العربية الرئيسية كالطبري وابن الاثير وابن خلدون وأضرابهم ، وبعض المراجع الافرنجية « الكلاسيك » ، التي اضعفت قيمة كثير منها الدراسات الحديثة ، ومؤلفات المستشرقين المعاصرين

وانك لتجد نتيجة ملموسة لاهمال هذه الابحاث النفيسة في عقلية طلابنا ، فهم يحتقرونها ويجلون الكتب الضخمة . وهم حين يفكرون في البحث او التأليف ينصرفون الى الكليات دون الجزئيات فطالب الليسانس يريد ان يكتب رسالته عن حكم المماليك في مصر (مرة واحدة ! !) وهو ينسى ان دولة المماليك ظلت في وادي النيل زهاء قرنين ونصف قرن، وان الادارة فيها كانت متشعبة والحياة مضطربة بالاحداث ، التي لا يكفي لبحثها مجلد او مجلدان ؛ وان في استطاعة عشرين طالباً ان يكتب كل منهم رسالة عن ناحية من نواحي الحياة العقليه او السياسية او الادبية في عصر المماليك ، وان كل سلطان من سلاطين هذه الدولة يمكن ان يكتب عنهُ بحث قائم بنفسه ، وان مجلداً يشتمل على تاريخها كله لا يمكن ان يكون رسالة علمية فيها بحث شخصي وآراء جديدة ولا يمكن ان يفيهُ حقه الا استاذ كبير، يكون همه تبسيط الحقائق وشرحها وربط بعضها ببعض على نحو لا يتيسر لبادىء أو طالب لم تكمل ثقافته بعد

مؤلفات المستشرقين عامة

ولعل القارىء يرى ان حديثنا حتى الآن كان جله على مؤلفات المستشرقين وابحاثهم ، ولعله يتساءل كيف نغض الطرف عن المراجع العربية ، او مايكتبهُ المؤرخون المسلمون. والواقع ان هذا بعيد عن قصدنا ، فالمراجع العربية القديمة لها عندنا المقام الاول . وما يكتبهُ المؤرخون المسلمون المحدثون يختلف تبعاً لقيمة صاحبه العلمية ، وطريقتهُ في التفكير والبحث والكتابة . ولكن الواقع اننا لم نحسن الافادة من مراجعنا العربية القديمة ، حتى اتصلنا بالغرب وأخذنا طريقة الدرس عن المستشرقين . فلمَ نجحد الجميل ? ولمَ ننكر ان المستشرقين هم الذين كشفوا

لنا ابن خلدون وما في مقدمته من نظريات اجتماعية تبدو كأنها وليدة القرن العشرين ؟ ولِمَ تنكر اننا تعلمنا من المستشرقين أن نحسن استغلال النصوص ، وان تنقب في بطون الكتب ، وان نبذل الجهود الجبارة في استنباط الاجابة على أسئلة تهمنا في العصور الحديثة ، ولم يكن المؤلفون العرب يعنون بها ، حين كانوا يستطردون في تفاصيل لا نأبه لها الآن ؟ ولِمَ تنكر ان المستشرقين علموا بعضنا طريقة الدرس ونظام البحث والتأليف ؟ ولِمَ تنكر انهم دفعونا دفعاً الى العناية بدرس تاريخ مدنيتنا في أسلوب علمي سليم ؟

قد يقال ان كثيرين من المستشرقين يعميهم التعصب الديني عن الحقائق ، او يدفعهم الى قلبها ونحن لا تنكر ذلك بل نستطيع ان نقيم عليه الف دليل ودليل . ولكن الباحثين منا ليسوا أطفالاً ، لا يستطيعون أن يفطنوا الى مثل هذه الحالات وان يتخذوا لها ما يجب من الحيطة والحذر

ولقد كان الأب لامانس Lammenas غفر الله له من أشد المتعصبين على الاسلام ، وهو بعد ذلك من المعجبين ببني أمية ، لان دولتهم كانت لا دينية ، ولأنهم أقاموا ملكهم في الشام ، وتأثروا بالمدنية القديمة التي قامت في ربوعه . وكان المستشرقون أنفسهم يعرفون في لامانس هذا العيب الكبير ويأخذونه عليه [١] . ولكنهُ كان وافر الاطلاع . وحسب المرء نفعاً ومراناً في التاريخ الاسلامي أن يقرأ لامانس ، وان يهضم ما يروقهُ من أبحاثه ، وان يبحث وينقب ليستطيع الرد على الجزء الباقي ، وان يراجع النصوص التي كان يبني عليها لامانس كثيراً من أحكامه ، ليرى كيف كان يجحف في تفسير بعضها ، وكيف كان يهمل ما لا يتفق ورأيه ، وكيف انهُ كان يغض الطرف أحياناً عن المناسبات فيستنبط من الشواذ قواعد ، ومن الحالات الفردية أحكاماً عامة . وقصارى القول ان قراءة لامانس ، ومن على شاكلته ، رياضة علمية ، ميدانها الكتب والمكتبات ، وتقرع فيها الحجة بالحجة ، ويدفع النص الواحد بالنصوص الكثيرة

ولكن بعد ذلك كله ، لا نظن أن باحثاً منصفاً يستطيع ان ينكر ضرورة الالمام بكل ما يكتب المستشرقون ، لأن اكثر ما يكتبونهُ دقيق ومنظم ، وفيه كثير من مزايا البحث العلمي الصحيح ، أما عيوب التعصب فمن السهل أن ندركها ونحذر شرها. ومع ذلك فان الروح التي تسود المستشرقين اليوم في الكتابة عن الاسلام ليست هي الروح التي كانت تسود اكثرهم في الجيل الماضي . فأغلبهم اليوم يدفعهُ الى درس المدنية الاسلامية ميل اليها واعجاب بها ، ومن ثم فانهم في الجملة اكثر إنصافاً الآن منهم في الماضي . وجلهم يعملون على أن يتركوا الحكم على العقائد

---

(١) راجع مقال الاستاذ فييت في تأبين الاب لامانس ، وذلك في مجلد سنة ١٩٣٧ من مجلة المجمع العلمي المصري (Bulletin de l'Institut d'Egypte)

الدينية تركاً تامـاً وأن يكتبوا باسلوب علمي عن الظواهر الاجتماعية والاحداث السياسية في حد ذاتها ، وأن يحكموا على ابطال التاريخ الاسلامي وامرائه من الناحية الشخصية والسياسية فحسب ، تاركين الدين جانباً بل عاملين على تفهم البيأة العربية وما كان للاسلام من فضل في توحيد كلمة العرب واعلاء شأن المسلمين في العصور الوسطى

والذي يزيد مؤلفات المستشرقين قيمة ويجعل كثيرين منهم حجة في الموضوعات التي يكتبونها نظام التخصص الذي اتخذوه . فان المتبع عندهم اذا اكمل الناشيء منهم دراسته ان يتخذ فرعاً يحلو له فيزداد فيه تعمقاً ويثابر على الدرس والتحصيل فيه ليصبح ثقة يعتمد عليه طلاب هذا الفرع ويرجعون اليه في تفهم معمياته . ومن ثم نشأ نظام في التأليف لم نعرفهُ في مصر تماماً . وهو نظام التعاون في تأليف كتاب من الكتب، يخرجهُ أحد الاساتذة ، ويكتب فيه اساتذة آخرون كل في الفرع الذي وقف نفسهُ على دراسته . ومن أصدق الأمثلة في هذا الميدان كتاب تراث الاسلام الذي أخرجهُ توماس ارنولد والفريد جيوم ، واشترك في الكتابة فيه الاساتذة جب وتريند وباركر ونيكولسن ومارهوف وكرّاذي فو وغيرهم

مراجع دراسة التجارة في العصور الوسطى

وهناك مؤلفات عظيمة النفع في دراسة التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى . وكلها تشتمل على بيانات دقيقة وأبحاث طيبة في هذا الموضوع ، ولكننا لاحظنا أن كتّابنا يهملونها إهمالاً معيباً

فكتاب هايد Heyd في تاريخ تجارة الشرق في العصور الوسطى[1] كتب سنة ١٨٧٩ ولا يزال حتى الآن المرجع الاوفى في موضوعه . ومقالات جاكوب G Jacob عن تجارة العرب مع بلاد بحر البلطيق طريفة وشائقة ، بما فيها من بيانات وحقائق . وكتاب الموظف الصيني شاو يوكوا Chau Ju-kua عن التجارة الصينية العربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بعد الميلاد غني بأخبار رحلات التجار بين هذين البلدين ، وما كانوا يحملونهُ من بضائع ويسردونهُ من أخبار. وقد نقل هذا الكتاب النفيس الى الانجليزية على يد الاستاذين هرث Fr. Hirth وركهل W. W. Rockhill وطبع في سنت بطرسبرج (لينغراد) سنة ١٩١٢

كل هذه مؤلفات فيها أخبار جمة تهم الباحثين في التاريخ الاسلامي ، ولكن اكثرهم لم يطرقها بعد

---

(١) W. Heyd : Geschichte des Levantehandels im Mittelalter والطبعة الفرنسية عنوانها Histoire du Commerce du Levant au moyen-âge.

كتب الرحلات

كذلك قلّ ان نجد بين طلابنا وكتابنا من يعني بدراسة كتب الرحلات واستنباط الحقائق التاريخية منها .ولايستطيع باحث ان ينكر ان بعضها يشتمل على وصف دقيق للحياة الاجتماعية والسياسية في مختلف البلاد الاسلامية . فرحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير والنفحة المسكية في السفارة التركية[١] ورحلة سليمان التاجر العربي في الهند والصين[٢] والرحلات التي طبعها ج . فران G. Ferrand[٣] وكذلك مرآة الحرمين للواء رفعت باشا ، والرحلة الحجازية ورحلة الاندلس للبتانوني ، كلها مؤلفات يستطيع الباحث أن يستخرج منها شيئاً كثيراً عن العالم الاسلامي واحواله الاجتماعية ، يوازي ما يمكنه استنباطه من رحلات الاوربيين في العالم الاسلامي مثل ماركوبولو ونيبهر Niebuhr وفون ملتزان Von Maltzan وبوكوك Pococke وپترمان Petermann والفاريز Alvarez وباومجارتن Baumgarten ودوتي Doutté وسنوك هرجرونيه Snouck Hurgronje وتافرنييه Tavernier وتيفنو Thevenot وتورنفورت Tourneíort وغيرهم

حواشي المستشرقين وتعليقاتهم

وهذه مراجع نفيسة ايضاً . فقد جرى كثيرون من المستشرقين على سنة طبع الكتب العربية او ترجمتها الى لغاتهم مع كتابة الحواشي الطويلة لشرح محتوياتها ، او المقارنة بين ما جاء فيها وما جاء في غيرها من المصادر ، او لبيان الروايات المكتوبة في مخطوطات مختلفة من كتاب واحد. ولعل خير مثال نسوقه دليلاً على خطر هذه الحواشي وجليل شأنها طبعة الاستاذ فييت لخطط المقريزي . ولا غرو فلغة المقريزي ليست سهلة ، وطبعة بولاق من الخطط مملوءة بالاخطاء ولان هذا الكتاب من أنفس المصادر الاساسية لدراسة التاريخ الاسلامي والآثار العربية في مصر ،

---

(١) انظر A. Tamgrouti : En-Nafat al-Miskiya fi-s-sifara et - Tourkiya. Relation d'une ambassade marocaine en Turquie (1581-91) Paris 1929, Publications de la Section Historique du Maroc.

(٢) عنوانها بالعربية « سلسلة التواريخ » وقد صنعت هي و لذيل الذي كتبه لها ابو زيد حسن ، وذلك على يد الاستاذ رينو مع مقدمة طويلة وترجمت الى اللغة الفرنسية في باريس سنة ١٨١٥

(٣) انظر G. Ferrand : Relations des voyages et textes géographiques arabes, persans et turcs, relatifs à l'Extrême Orient, du VIIIe au XVIIIe siecles. traduits, revus et annotés par G. Ferrand, Paris 1913-14.

فقد بدأ الاستاذ فييت منذ سنة ١٩١٠ في نشر طبعة جديدة له، لم يصدر منها الا خمسة اجزاء ضخمة ولكنها لم تصل الى نهاية الجزء الاول من طبعة بولاق، لان حواشيها غنية جداً وفهارسها طويلة ومتنوعة، ولكن الاستاذ فييت انصرف لسوء الحظ عن هذا العمل المضني الى غيره من الابحاث والمؤلفات. ولدينا مثال آخر من شروحه الشاملة، نجده في ترجمة كتاب البلدان لليعقوبي وقد ظهرت هذا العام [1]

ومثل هذه الطريقة في طبع الكتب القديمة بكثير من الشروح والحواشي حديثة في مصر ولا نكاد نجدها الى حدّ ما الا في الكتب التي وقف على نشرها اساتذة الجامعة، او رجال القسم الادبي بدار الكتب المصرية، ولكننا نرى مثالاً طيباً لها في كتاب السلوك للمقريزي، الذي نشره وكتب حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر

مجموعات الابحاث

بقي ان نلفت نظر القراء الى الابحاث النفيسة التي تظهر في الكتب التي يتضافر على تأليفها الغربيون في بعض المناسبات، كالذي يهديه بعض المستشرقين الى شيوخهم من الاساتذة عند بلوغهم الستين او السبعين — ومن ذلك كتب أهديت الى فليشر Fleischer وهومل Hommel وجولدزيهر Goldziher وجاكوب وبراون Brown — او الكتب التي تؤلف تكريماً لبعض الاساتذة الاحياء كالمستشرق جودفروا ديمومبين، استاذنا في جامعة باريس ومدرسة اللغات الشرقية Gaudefroy-Demombynes، او تكتب احياناً احياءً لذكرى أساتذة آخرين مثل باسية Basset او ماسبرو. وكذلك الكتب التي تصدرها المعاهد العلمية في مناسبة مرور السنين الطويلة على تأسيسها، ومثال ذلك الكتاب الذي أصدرته مدرسة اللغات الشرقية في باريس في عيدها المئوي. ولن يفوتنا ان نشير الى محاضر مؤتمرات المستشرقين، وما يهدى الى هذه المؤتمرات من مؤلفات، ويلقى فيها من ابحاث. وقد عقد من هذه المؤتمرات منذ سنة ١٨٧٣ حتى الآن تسعة عشر مؤتمراً: في باريس سنة ١٨٧٣، ولندن سنة ١٨٧٤، وسنت بطرسبرج سنة ١٨٧٦، وفلورنسة سنة ١٨٧٨، وبرلين سنة ١٨٨١، وليدن سنة ١٨٨٣، وفينا سنة ١٨٨٦، وستوكهلم وكريستيانيا سنة ١٨٨٩، ولندن سنة ١٨٩٢، وجنيف سنة ١٨٩٤، وباريس سنة ١٨٩٧، وروما سنة ١٨٩٩، وهامبرج سنة ١٩٠٢، ومدينة الجزائر سنة ١٩٠٥، وكوبنهاجن سنة ١٩٠٨، واثينا سنة ١٩١٢، واكسفورد سنة ١٩٢٨، وليدن سنة ١٩٣١، وروما سنة ١٩٣٥، وصدرت عنها مؤلفات هي معين لا ينضب للعلوم الشرقية على اختلاف انواعها

(١) أنظر Yakubi : Les Pays, traduit par Gaston Wiet, (Textes et Traductions d'Auteurs Orientaux, Publ. de l'Inst. fr. d'Archéol. Or., 1937)

اللغات الاجنبية

على ان كثيراً من المراجع التي استعرضناها في هذا المقال مكتوبة باللغة الالمانية أو الايطالية. وهما لغتان لم يقبل الطلاب المصريون على دراستهما بعد . واللغة الالمانية صعبة المنال ، بينما الايطالية ليست سهلة الا لمن يتقن الفرنسية ويعرف أصول اللغة اللاتينية ؛ ولكن يلوح لنا ان كثيرين من الباحثين والطلاب في مصر يحجمون عن تعلم اللغات الاجنبية ، لانهم يخشون صعوبتها ويخافون ان تضيع اتعابهم سدًى . والذي نريد ان نقرره هنا ان العلماء يميزون بين دراسة أي لغة دراسة وافية ليمكن التكلم والكتابة بها ، وبين دراستها للتمكن من قراءة ما كتب فيها من المؤلفات التي يهمهم الاطلاع عليها ، واننا نعرف كثيرين من المستشرقين لا يستطيعون ان يتكلموا الا لغات بلادهم ، ومع ذلك فهم يستوعبون كل ما يكتب باللغات الاخرى في الفروع التي يدرسونها . ولاغرو فان الأمر في هذه الحالة لا يتجاوز حفظ عدد كبير من المفردات — ولا ننسى ان جزءاً كبيراً منها مشترك في الانجليزية والفرنسية او في الفرنسية والايطالية او في الانجليزية والالمانية وهكذا — ودراسة النحو والصرف والدأب على القراءة حتى تثبت العبارات والمفردات ولاسيما ما يتكرر وروده منها في ابحاث الفروع التي يدرسها الطالب . فدراسة اللغة دراسة جدية سنة او سنتين مع شيء من الدأب والمثابرة كافية للوصول الى هذه النتيجة

وقصارى القول اننا نود ان يتنبه الكتاب الى تفاهة الاعتذار بجهل اللغة الالمانية مثلاً . فنحن لا نريد ان يترافعوا بها ،او يلقوا الخطب ويكتبوا الابحاث . بل حسبنا ان يستطيعوا — والى جانبهم معاجم اللغة — ان يقرأوا كتاباً او بحثاً فيعرفوا ما جاء فيه ، والا فحدثني ربك عن حال طالب يدرس الادارة في مصر الاسلامية في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع للهجرة ويفوته ان يقرأ كتاباً في نحو ١٣٠ صحيفة ألفه بالالمانية جوتشلك H. Gottschalk عن أسرة المادرائيين ، التي كان لها شأن خطير في الادارة المصرية في عصر الطولونيين وبعد ان زالت دولتهم وعادت مصر الى حكم الدولة العباسية[١] . هذا مثال واحد ولن يعجزنا أن نأتي بغيره من الامثلة ولكن المقام لا يتسع لغيره

واذا فرضنا أن الطالب كان ممن لا استعداد عندهم لدراسة اللغة الالمانية او الايطالية ، وانه ممن لا يرجى منهم نفع في هذه الناحية فجدير به ان يسعى في تعويض جزء من هذه الخسارة ، وذلك بالبحث والتنقيب عما نشر من تراجم او تعليقات على المؤلفات الاجنبية التي يهمه امرها .

(١) انظر كتابنا Les Tulunides, Etude de l'Egypte musulmane à la fin du IXe siècl ص ٢٧٤ — ٢٨٦

فكثير من ابحاث بيكر Backer عن تاريخ مصر الاسلامية ملخص في المقالين اللذين كتبا عن مصر وعن القاهرة في دائرة المعارف الاسلامية التي يظهر منها طبعة انجليزية وطبعة فرنسية غير الطبعة الالمانية. وحبذا لو عنيت لجنة ترجمة دائرة المعارف الى اللغة العربية بتعريب هذين المقالين منذ الآن في عددين مستقلين بدون انتظار الوصول الى ترتيبهما في الحروف الابجدية

خاتمة

يرى القارىء الكريم اننا استعرضنا في هذا المقال بعض المراجع التي ثبت لنا ان كتابنا يهملونها . او لا يعرفون عنها شيئاً . كما ظهر لنا من قراءة بعض ابحاثهم ، او المصادر التي يقررون انهم رجعوا اليها في تأليف كتبهم

وإذا جاز لنا أن ننبه الى أشياء أخرى نرمي بها الى ان تكون ابحاث التاريخ الاسلامي في اللغة العربية جامعة شاملة ودقيقة غير سطحية ، وجب أن ننصح الطلاب وكثيرين من الكتاب بان يعنوا باتباع طريقة «الفيش» في قراءاتهم وذلك باثبات ما يهمهم في قراءتهم على قصاصات من الورق ، يرتبونها بحسب الموضوعات ، ويرجعون اليها عند الحاجة ، ليؤلفوا منها عناصر أبحاثهم ، ولتمكنهم من الرجوع الى مختلف المصادر ، وليسهل عليهم بفضلها تبويب كتبهم ، والاحاطة بما يكتب في موضوعاتهم. وثمة شيء آخر نود ان يهتم به المؤلفون .هو العناية بعمل « كشاف » او فهارس أبجدية يختمون بها كتبهم ليسهل الرجوع اليها والانتفاع بجهودهم فيها . ونحن ان فاتنا ان نقوم بعمل كشاف لهذا الكتاب فلأن المجال والوقت لا يسمحان بذلك ، فضلاً عن اننا ننسج في اسلوب تأليفه على هدية المقتطف عن مصر الفرعونية في العام الماضي ، ونحرص على ان يكون له حجم معين لا نملك أن نتجاوزه

فهرس